ناصر عراق

تاج الهدهد

رواية



الدار المصرية اللبنانية

تاج الهُدهُد

رواية

عراق ، ناصر .

تاج الهدهد : رواية / ناصر عراق . ــ ط1. ــ القاهرة :

الدار المصرية اللبنانية ، 2012.

320 ص ؛ 21 سم

تدمك : 9 - 742 - 427 - 977 - 978

1 ــ القصص العربية.

أ ــ العنوان . 813

رقم الإيداع : 9620 / 2012

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ــ ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

الطبعة الأولى : جمادي الآخر 1433 هـ ـ مايو 2012 م

ناصر عراق

تاج الهدهد

رواية

الدار المصرية اللبنانية

كان واسع الاطلاع... عاشقًا للمعرفة

وكان طيّب القلب... متقد الذهن... مُحبًّا للحياة والمرح

وقد علمني ما لم أكن أعلم

مُذ كنتُ طفلاً أحبو... حتى رحيله المفاجئ في 2011/4/12

إلى روح شقيقي الأكبر إبراهيم

ناصر

(كل دقيقة تمر بلا تغيير... انتصار للذل والتعاسة)

نجيب محفوظ (1911: 2006)

الحرافيش/ الحكاية السادسة/ شهد الملكة

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾

قرآن كريم/ سورة النمل/ الآية 20

1| في قطار الإسكندرية

البداية كانت عجيبة جدًّا، فالرجل الذي يجلس بجواري في القطار تحول فجأة إلى قرد! حيث راح يجري ويقفز وينتقل بسرعة مذهلة من هذا المقعد إلى تلك النافذة، لينقض على طفل صغير هادئ الطباع، فينتزع من يده قطعة شيكولاتة ويزدردها في الحال. لم يصرخ الطفل ولم تهتم والدته بالرجل القرد الذي جلس الآن في الممر الذي يفصل بين صفّي المقاعد، يلتفت يمينًا ويسارًا بإيقاع سريع لا يخلو من حذر. ثم هبّ مرة أخرى ليعاود العبث في القطار، فيخطَف جريدة من يد رجل مُسن أصلع، نظارته الطبية سميكة بصورة مزعجة. وجذب حقيبة يد امرأة بدينة ترتدي حجابًا بنيًّا، وقام بتفريغ محتوياتها بسرعة البرق بحثًا، فيما يبدو، عن طعام دون أن يفقد حذره. وها هو يتعثر في قدم بائع المشروبات، فتسقط منه الزجاجات والأكواب على الأرض محدثة جلبة مدوّية، فلا يعتذر أو يتذمر أحد!

اعتراني الذهول.. لماذا لا يخشى الركاب الرجل القرد كما خِفتُه أنا؟ ولماذا لا ينظرون إليه ولا يأبهون به؟ ألم تزعجهم تصرفاته الموتورة؟ ألا يتساءلون: كيف لرجل كان يجلس بجواري، أن يتحول إلى قرد في لمح البصر؟ كلا.. الحق أن هناك بعض الركاب قد تابعوا قفزاته المفاجئة، وحركاته المباغتة مثل هذه السيدة العجوز ذات الشعر الأبيض التي تجلس أمامي، لكن أغلب الناس لا يعيرونه أي اهتمام!

قررتُ أن أترك هذه العربة المشئومة، وأبحث عن عربة أخرى أكثر أمنًا وخالية من الحيوانات، فأنا لا أحتمل الإقامة مع أي حيوان - مهما كان وديعًا - في مكان واحد أبدًا، ولو للحظات. صحيح أنني أعشق الحيوانات وأحب أن أتأملها كثيرًا جدًّا، ولكن على شبكة الإنترنت، أو على شاشة التليفزيون من خلال القنوات المتخصصة في عالم الحيوان مثل ناشيونال وايلد جيوجرافي، لكن أن أصير أنا وأي حيوان ما داخل مكان مغلق مثل هذا القطار، فذلك أمر يفوق احتمالي، ويدفعني لأن أفرز الأدرينالين، على الرغم مني، بكثافة شديدة!

انتظرت مرتعبًا أن تثبط همّة الرجل القرد، وتهدأ حركاته البهلوانية، حتى أنطلق إلى عربة أخرى أكثر أمنًا. فلما أخذ يعبّ البيبسي عبًّا من زجاجة اختطفها من عربة البائع وهو متعلق بالنافذة، قمتُ بهدوء وأنا أرمقه جيدًا حتى لا يتهور ويهاجمني. وحمدتُ الله أنني لا أمسك بيدي أي شيء قد يثيره.. لا طعام ولا جريدة ولا حتى حقيبة، أما الموبايل ففي جيبي كالمعتاد. ما إن خطوت خطوتين اثنتين حتى انتفضت مذعورًا لأن الكمساري وضع يده على كتفي الأيسر من الخلف، وهو يقول بصوت غير مريح:

- من فضلك.. عُد إلى مقعدك.. لا أماكن في العربات الأخرى!

يا للمصيبة..! ما هذه الورطة التي لم تكن في الحسبان.. امتثلتُ لأمر الكمساري ذي الملامح الأخدودية المنفرة، فجلد وجهه كثير التجاعيد مثل جلد تمساح الكايمان. عدتُ إلى مقعدي مرتعد الفرائص، ونظراتي لا تفارق الرجل القرد الذي يبدو أنه استقر في هذا الوضع الشمبانزي، إذ جلس على إحدى عوارض النافذة، تاركًا ذيله يتدلى بحرية، يتأمل الطريق التي ينهبها القطار بسرعة حينًا، ثم يعود إلينا ليوزع نظراته المرتابة والمريبة على الجالسين

أغلب الأحيان.. تفحصتُ ملامحه بحذر، فلم يكن يشبه أيًّا من القرود، التي أعلق صورها في غرفتي بالمنزل، أو في حجرة التنفيذ والإخراج بالجريدة.

فجأة.. تذكرتُ أنني رأيت هذا الرجل القرد من قبل، حين كان يهرش فروة رأسه بيده وينظر إلينا بعينين تماثل تمامًا عينيّ قرد بابون مغرور! تذكرت أنه يشبه أحد الوزراء عندنا، لكنني لا أذكر اسمه الآن، ولا أذكر هل هو من الوزراء الحاليين، أم من الذين غدر بهم الزمان وأزاحهم عن مقاعدهم الوثيرة؟ فأنا أعرفهم جيدًا من فرط ما أمروني أن أضع صورهم في الجريدة، التي أعمل بها مخرجًا صحفيًّا منذ أربعة أعوام. نعم.. هذه النظرات المتربصة التي تنطلق من عيني الرجل القرد تشبه نظرات السيد الوزير بصورة مدهشة. حتى الفم الواسع المزوّد بنابين مخيفين، والذي يلتهم أي شيء يطاله، يشبه تمامًا فم صاحبنا، الذي فرّ اسمه من ذاكرتي رعبًا!

حين قامت السيدة العجوز ذات الشعر الأبيض التي تجلس أمامي متوجهة نحو الحمّام تقريبًا، انتبه الرجل القرد، وظل يتابعها حتى اختفت، ثم قفز نحوي قفزة مذهلة ألقت في قلبي الذعر، وجلس بجواري في المكان نفسه الذي كان يشغله عندما كان رجلًا!

كل السور القرآنية القصيرة التي أحفظها تكدست على شفتي، وأنا أتلوها بارتعاش صامت، طلبًا للأمان من الحيوان الذي يميل نحوي ويلامسني كلما مال مع حركة القطار.. لم ينظر إليّ الرجل القرد، لكنه جلس القرفصاء، تاركًا ذيله يتحرك بعفوية وهو يتفحص الركاب بعينيه العسليتين. لم أستطع أن أظل هكذا مسجونًا داخل زنزانة الهلع من الرجل القرد، الذي إن لمسني جسده، تعتريني قشعريرة تقزز تدفعني إلى حافة التقيؤ. تعجبت من نفسي لأنني لم أرتعب هكذا حين طارت نهلة فوق رأسي. فكرتُ جديًّا في أن ألقي

بجسدي من النافذة، عندما يهدّئ القطار من سرعته، وليكن ما يكون. لكنني خفتُ أن تنتاب الرجل القرد حالة ذعر من هذه الحركة، فيقفز خلفي لملاحقتي، وسيمسك بي حتمًا. فمَنْ منا قادر على مراوغة قرد؟ فهو الأمهر والأقدر في القفز وألاعيب الأكروبات.. هل أرجوه أن يبتعد بجسمه عني قليلًا؟ طردتُ هذا الخاطر المجنون فورًا؛ لأن جدتي مآثر رحمها الله حذرتني: (إياك والتحدث مع أي حيوان سوى الفيل والأرنب الأبيض فقط، وإلا فقدت بصرك).

أخرجت الموبايل من جيب قميصي بهدوء، وطلبت أدهم الشاذلي، أكثر أصدقائنا فطنة، لأستشيره في مصيبتي، فلم يرد. تباطأتْ حركة القطار فعلًا عند دخوله إلى طنطا، فعاودتني فكرة القفز من النافذة، لكن الحركة التي أقدم عليها الرجل القرد اجتثت هذه الفكرة من رأسي تمامًا؛ إذ دون سابق إنذار وضع الرجل القرد رأسه فجأة على فخذي ليستريح، متخذًا وضع النائم على جانبه، فصدمتني رائحة قذرة لا تحتمل. لا أدري كيف استطعت أن أقاوم رغبتي في التبول عندما أتى الرجل القرد بهذه الحركة المباغتة التي شلّت تفكيري، وجعلتني أردد الشهادتين بصوت مسموع وهيستيري.. لم أدرِ ماذا أفعل؟ كررتُ الاتصال بأدهم الشاذلي مرة أخرى بلا فائدة. فكرت أن أستغيث بالركاب لينقذوني من هذا الرجل القرد، الذي اتخذ من فخذي وسادة لرأسه، لكن الركاب موزعون بين نائم وهائم وشارد وحزين! لعنتهم في سريرتي، وزادت نقمتي على هؤلاء الذين لا يتحركون ولا يبالون برفيق لهم، ابتلاه الله بمحنة لم تحدث لإنسان من قبل.

رأيتُ فتاة قادمة من آخر العربة في اتجاهي، تسبقها ابتسامة رائقة، ذكرتني بنهلة قبل أن تطير.. حمدت الله على أن هناك من يشعر بمأساتي، فابتسمت لها

امتنانًا وتشجيعًا على مواصلة السير نحوي؛ حتى لا تخشى الرجل القرد الذي يستمتع بأحلامه على فخذي! لكنها تجاوزتني بعد أن ألقت نظرة خاطفة عليّ نبّهت الرجل القرد، الذي أفاق للحظات؛ ليتابع حركة الفتاة قليلًا، ثم آب إلى نعمة الغفوة فوق فخذي المسكين.. تحدثت الفتاة، التي أكيل لها السباب الآن، مع فتاة أخرى تجلس في المقعد قبل الأخير من العربة.

لم تستطع الرائحة النتنة للرجل القرد أن تخفف عني درجة الفزع التي أكابدها، لكنني حاولت أن أبعد أنفي عن رأسه وجسده قدر الإمكان. ومع ذلك أخفقت في التخلص من كابوس هذه الرائحة البغيضة. وحين تململت في مقعدي لأزيح بهدوء رأسه عن فخذي، أو أبعد فخذي عن رأسه، أطلق الرجل القرد صوتًا مشحونًا بحشرجة منذرة.. صحيح أنه كان صوتًا خافتًا، لكنه كافٍ لغرز أشواك الرعب في صدري، فحاولت أن أتسمّر في مكاني؛ حتى لا أزعج هذا الذي ينام فوق فخذي بأمان!

حركت رأسي ببطء شديد نحو النافذة لأعرف أين نحن؟ سرعة القطار أربكتني أول الأمر، لكنني أدركت أننا على مشارف بنها عندما خفف القطار من سرعته تدريجيًا. ومثلما رقد على فخذي فجأة، استيقظ الرجل القرد فجأة، ثم فتح فمه على أقصى اتساع؛ ليتلذذ بتثاؤب هادئ، كاشفًا عن نابين كبيرين مخيفين، ثم.. ثم.. ثم.. دون أدنى خجل بدأ الرجل القرد يبول على جميع من في القطار!

ماذا يحدث؟ لماذا لا يشمئز الناس؟ لماذا لا ينهره الكمساري؟ لم أتمالك نفسي من شدة القرف، فتقيأت من النافذة. ناولتني السيدة العجوز ذات الشعر الأبيض التي تجلس أمامي، وقد عادت لتوها إلى مقعدها، منديلًا ورقيًا متمنية لي الشفاء، وهي تنصحني بهمس:

- لا تأكل من محلات الشارع يا بنيّ!

صدَّقَت على كلامها المرأة المحجبة، التي لا أدري متى استعادت حقيبتها وكيف؟ إذ غمغمت بعبارات تندد بأكل المطاعم، وهي تخرج من حقيبتها المستعادة زجاجة عطر، ناولتها لي لأستنشقه، فأتخفف من حالة الغثيان التي استبدت بي. كان هذا أول حديث معي منذ صعدت إلى هذا القطار الملعون من محطة سيدي جابر بالإسكندرية.. قررت أن أسألها عن الرجل القرد، وأستوضح رأيها في أفعاله المشينة، التي يتقبلها الركاب دون ضجر. لكنها لم تعطني فرصة؛ إذ شرعت تتحدث في الموبايل بصوت أجش، يخالف تمامًا الصوت الهامس الذي نصحتني به قبل ثوانٍ!

بعد أن تخلص الرجل القرد من بوله ذي الرائحة التي لا تطاق، عاود القفز فوق المقاعد وبين النوافذ برشاقة مذهلة وسرعة عجيبة، حتى وصل إليها.. إلى الفتاة التي مرت بجانبي وظننتها جاءت لترحمني من الأسر.. كانت قد عادت إلى مقعدها عندما وصل القطار إلى بنها، حيث داعبت الطفل الصغير هادئ الطباع، وهي في طريق عودتها، فابتسم لها وكذلك فعلت والدته.

ماذا يحدث؟ يا نهار أبيض.. الرجل القرد يجلس على ركبتي الفتاة، ويأكل العنب الذي ينمو في بطن يديها! والفتاة لا تبدي أي امتعاض، بل تتركه يلتهم عنب يديها عن طيب خاطر. الفتاة تتحدث مع سيدة تجلس بجوارها وتبتسم، أظن أنها والدتها، والرجل القرد لا يعبأ بشيء سوى أن يبتلع العنب الذي لا ينفد، بل ينمو ويتجدد كلما اجتثه بأنيابه!

هممتُ بأن أنهض وأستصرخ الناس أن تهب لإنقاذ الفتاة وعنبها، فالرجل القرد نهم لا يشبع، والفتاة رقيقة ومسالمة، لا تقاوم ولا تحتج، بل تترك يديها على سجيتها لينمو العنب بتمهل، ويتغذى عليه هذا المخلوق

البشع.. صرفت نظرًا عن فكرة حضّ الناس على الثورة ضد الرجل القرد وإنقاذ الفتاة؛ لأنني تذكرت أنهم لم يكترثوا عندما تبوّل عليهم، فهل أطمع في أن يهتموا بفتاة ينمو العنب في يديها؛ ليطفئ نيران جوع رجل صار قردًا!

تناقصت سرعة ضربات قلبي، حيث قلّ إفراز الأدرينالين، بعد أن ابتعد عني الرجل القرد، لكن التوتر مازال حالًّا بجسدي وروحي، والحرص على متابعته، ورصد تحركاته بل تأهباته، وهو يتناول وجبته من العنب اليدوي لم يخفت. انتهزت فرصة السكون الذي خيّم على العربة مؤقتًا، وبدأت أجيل بصري لأستكشف هل هناك إمكانة لأنصرف من هذه العربة النحس، لأتوجه إلى عربة أخرى أكثر أمنًا وخالية من الرجال الذين يتحولون إلى حيوانات؟ لم ألحظ أي وجود للكمساري، ففرحت ونهضت ببطء، وأنا ألقي نظرة أخيرة على الفتاة وعنبها وقردها، لكن الكمساري انبثق من تحت الأرض فجأة لا أعرف كيف؟ وأمرني بالعودة مرة أخرى إلى مقعدي لأن القطار دخل محطة مصر.. لم يكن أمامي سوى الانصياع لأمر هذا الكمساري الفظ. لاحظت أن الركاب راحوا يتململون في أماكنهم، وتجرأ بعضهم وقام ليأخذ حقيبته من فوق الأرفف العلوية، لكن لم يشغلهم أبدًا المنظر المذهل للرجل القرد، الذي مازال يأكل العنب من راحة الفتاة بسعادة. انطلق صفير القطار فجأة فأزعجني، وازدادت همهمات الناس، قبل أن يلفظ القطار خطواته الأخيرة، ويتوقف نهائيًا.

فتحت النافذة بحذر، وشرعت في القفز منها وسط ذهول الركاب، حتى أن الرجل ذا النظارة الطبية السميكة هتف بقوة:

- النزول من باب القطار يا بنيّ.. وليس من النافذة!

لكنني لم أعبأ به، ولا بأحد ممن شاركوه في إسداء النصيحة نفسها في أذني، وقفزت من النافذة وأنا أنظر متوجسًا، لآخر مرة، إلى الرجل القرد، وهو ما زال يتلذذ بازدراد عنب الفتاة، الذي زاد ازدهاره في يديها مع مرور الوقت!

* * *

2 | في الصـــالة

- كيف حال شقيقتك وابنيها؟

بادرتني أمي بهذا السؤال، الذي كرره أبي بعينيه، فور دخولي إلى المنزل، فاللهفة على معرفة ما جرى لأختي رسمية تكوي كبديهما.. اكتشفت أنني نسيت شقيقتي وما حدث لها، بعد أن رأيت ما رأيت في القطار. مثلما نسيت ما حدث لفادي نجيب، حين اقتربت أكثر مما ينبغي من قبيلة القوارض!

طمأنتهما أن رسمية أجرت عملية القسطرة في القلب بنجاح، وعادت إلى منزلها.. بكت أمي ودعت لها بالشفاء، أما أبي، فقد ظل يردد بصوت خفيض:

- الحمد لله.. الحمد لله.. بارك الله فيك يا معتز.

نظرتُ في عيني أبي، فأشفقت عليه، فأنياب الشيخوخة لم ترحمه، وعناكب المرض هدّت حيله، وسطوة المنصب الكبير ذهبت مع الزمن. ومن كان يصدق أن الأيام ستحرمه من زيارة ابنته الأولى، وهي تعاني عطبًا في القلب؟

- عندما تنتهي من الحمّام والصلاة.. سيكون الطعام جاهزًا يا بنيّ.

قالت لي أمي ذلك بطيبتها المعهودة، التي زادتها تألقًا مع سنواتها الخمس والستين. شكرتها بصوت مكدود وجسد منهك. تحاملتُ على نفسي ودخلت

الحمّام.. طافت بخاطري أختي رسمية وابتسامتها الدائمة، التي تنم عن مزاج متفائل، فتمنيتُ لها الشفاء العاجل، فأنا أحبها كثيرًا ؛ لأنها هي التي ربتني ودللتني.. إنها تكبرني بخمسة عشر عامًا. (أنت ابني البكر الذي لم أنجبه).. هكذا كانت تقول لي دومًا عندما تداعبني، فأفرح بها وأبتهج. وحين عقد قرانها، وغادرت منزلنا إلى بيت زوجها بالإسكندرية. بكيت كثيرًا وظللت متشبثًا بفستان زفافها. لم أكن قد تجاوزت الثامنة آنذاك، لكنني أذكر جيدًا كيف احترق قلبي لفراقها، وكيف خاصمت أمي؛ لأنها وافقت على رحيلها مع رجل غريب!

تركت جسدي ينعم بالمياه الدافئة تنهمر فوقه، فتداعبه وتدغدغ مسامه. حقًّا ما أحوجني إلى هذا الدش بعد رحلة الإسكندرية الغريبة.. لا أعرف كيف سيفسر أصدقائي ما رأيت؟ نعم.. لا بد أن أقص عليهم، خاصة أدهم الشاذلي، حكاية الرجل الذي كان يجلس بجواري وتحول إلى قرد. سيتفهم أدهم ما حدث، وسيسعى جاهدًا لإيجاد تفسير مقنع له ولي.. لكن الخوف كله من زياد أبو سريع صاحب اللسان المنفلت، إنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، بل يعلق عليها بخفة ظل، تنتزع ضحكاتنا جميعًا من القلوب.

خرجت من الحمام وارتديت ملابس البيت: تي شيرت رمادي، وشورت أسود. مشّطت شعري بنصف اهتمام، وتعطرت، ثم أديت الصلاة قضاء.. طرقت أمي باب غرفتي برفق لتستعجلني حتى أتناول طعام العشاء! حين خرجت متجهًا نحو الصالة، لم أجد أبي جالسًا في مقعده المعتاد الذي يحتل الزاوية اليسرى من الصالة في مواجهة التليفزيون. وقبل أن أسأل والدتي عنه، انتابني ذعر شديد؛ إذ رأيته جالسًا على الكنبة الكبيرة في يمين الصالة ينظر إلى لا شيء، ثم راح يتحول ببطء شديد إلى أسد هَرِم!

هممتُ بالذهاب إليه، فلم تسعفني قدماي، حيث راح جسمي يفرز الأدرينالين بكثافة شلّت تفكيري وحركتي، تابعت تحوله البيولوجي بقلب يخفق بشدة وعجز تام ومقلتين كادتا تخرجان عن مكانيهما. (أبي صار أسدًا هَرِمًا).. يا للمصيبة! ماذا أفعل؟ هل أخبر أمي؟ إنها ما زالت في المطبخ؟ هل أركض وأهرب خوفًا من أن ينقض عليّ؟ لكن أمي.. هل أتركها مع ملك الغابة؟ إنه مسالم ومستكين، بعكس الأسد العفيّ، الذي تزين صورته الضخمة جدران غرفتي. نظراته تشي بمدى الإجهاد الذي يعتريه.. إنه يتأملني بعطف شديد، وكأنه يريد أن يخبرني بشيء ما.

- مالك يا أبي؟

سألته بصوت خفيض، دون أن أتحرك من مكاني قيد أنملة، ضاربًا بذلك عرض الحائط بنصيحة جدتي « مآثر » بألا أتحدث مع أي حيوان، سوى الفيل أو الأرنب الأبيض.. لا أظن أنه تمكن من سماعي. لم يرد، ولم تبدر منه أية حركة مشجعة على التواصل معه. وقفتُ مرتعش البدن، لا أدري ماذا أفعل؟ اقتربتُ منه بتؤدة شديدة، فوجدته قد دخل في سبات عميق. أعجبتني لبدته الكثيفة بلونها البرتقالي الساخن، فمددتُ يدي بحذر لألمسه، لكنني لم أجرؤ، فسحبتها بسرعة، وأنا أدور في مكاني حائرًا ومضطربًا لا أعرف ما العمل؟

- هيّا يا معتز.. الطعام سيفقد حرارته.

يا نهار أسود.. كيف لم تلحظ أمي أن أبي أصبح أسدًا؟ ألا تراه مكوّمًا هكذا على الكنبة؟ ألم تنتبه إلى أنه ترك مكانه المعتاد؟ ألم تدرك أنها لم تعد تسمع صوته منذ أكثر من عشر دقائق؟ وهو الذي لا يتوقف عن الحديث معها في كل شيء.. يجب أن أخبرها بما حدث لتساعدني في التصرف. هتفت بصوت عال:

- أمي.. أمي..

- لماذا ترفع صوتك يا معتز؟ ألا تعلم أن أباك نائم؟

كدتُ أقول لها إن أبي لم يعد كما هو، وأنه صار الملك.. ملك الغابة الذي تفر منه جميع الحيوانات، إذا استمعت إلى زئيره المخيف. نعم.. أعرف هذا الزئير المرعب الذي يرنّ في فضاء الغابة بامتداد خمسة كيلو مترات! ابتسمت لأول مرة في هذا اليوم المشحون بالغرابة، ثم تفحصت أبي الأسد، فوجدته مستسلمًا تمامًا للذة النوم!

رسمية.. لا يوجد غير رسمية من ستتفهم هذه الوقائع الغريبة، وتجتهد لتجد لها تفسيرًا.. لكن رسمية طريحة الفراش بعد أن غدر بها قلبها الرقيق، فلن تقوى على الحضور إلى القاهرة، ولا حتى على التفكير السليم.. رأسي ينفجر.. ماذا أفعل؟ هل أستدعي الطبيب؟ آهٍ.. أي طبيب: بشري أم بيطري؟ ما هذا السخف؟ أمي ما زالت تناديني، لكنني فقدت شهيتي للطعام أمام هذه الكارثة. كما أنني تراجعت عن أن أخبرها بشيء عن تلك المصيبة، التي انفجرت في شقتنا في هذه الليلة الكئيبة، مادامت لم تنتبه إلى ما جرى لرجل حياتها.

عليّ الاتصال بأدهم الشاذلي فورًا وإلا فسأجنّ.. طلبته دون أن أرفع عيني عن أبي الأسد، الذي بدا لي أنه لن يستطيع القيام مرة أخرى من رقدته الملكية هذه.

- أين أنت يا أدهم؟ أريدك حالًا.

ياه.. أخيرًا ردّ على اتصالاتي. فرحتُ جدًّا وقلتُ بصوت مسموع، وأنا أرنو إلى كتلة اللحم الضخمة الرابضة فوق الكنبة (لا تقلق يا أبي.. ستعود رجلًا مرة أخرى).

- أنا في الأقصر.. سأعود بعد ثلاثة أيام.. ما الخبر؟

اللعنة.. هل أُعلمه في الموبايل بأن أبي صار أسدًا؟ وأن الرجل الذي كان يجلس بجواري في القطار تحول إلى قرد، وأن نحلة طارت فوق رأسي قديمًا؟ لن يصدق.. وقد يسخر مني، بل قد يفشي هذه الحقائق المزعجة لأصدقائنا من باب التندر. لا.. لن أتحدث الآن. عندما يعود سأسرد له وقائعي المذهلة مع الرجال، الذين يتحولون إلى حيوانات.

- تمنياتي برحلة سعيدة.

قلتُ له ذلك بسرعة وأغلقتُ الموبايل، بينما مخالب الحيرة تنهش صدري.. تعجبتُ لأنني لم أعد أخشى من أبي الأسد النائم في سكون الآن! بل أخذتُ أعاين جسده المهول بإشفاق وحسرة. يا الله.. هذا هو المصير المؤلم لرجل فاضل. وقبيل سفري إلى الإسكندرية للاطمئنان على رسمية، حكى لي والدي طرفًا من ذكرياته المتشعبة، باعتباره مهندسًا بارعًا، استطاع بكفاحه وموهبته وإخلاصه أن يرقى إلى منصب وكيل أول وزارة الصناعة، قبل أن يُحال إلى المعاش.. كان يتحدث بصوت هامس يقطر حكمة، على الرغم من أنها ليست المرة الأولى، التي يسرد لي فيها جزءًا عزيزًا من ذكرياته. أخبرني كيف استطاع أن يقتنص المركز الرابع على مستوى الجمهورية في البكالوريا عام ١٩٥٣، وكم كانت فرحته عندما قرع الباب يومًا ما مندوب رئاسة الجمهورية ليسأله:

- هل أنت مختار شاكر عبد الصمد؟

(ارتجف قلبي آنذاك بقوة، حين علمت أنني مدعو، مع العشرة الأوائل في البكالوريا للقاء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية الوليدة آنذاك.. كانت أيامًا جميلة يا بنيّ).

- كان رجلًا طيبًا.. أما جمال عبد الناصر، فهو الزعيم بحق.

هكذا كان أبي يصف محمد نجيب بالرجل الطيب.. كنت أنصت إلى حرير ذكرياته بمودّة، خاصة بعد أن أنهيتُ دراستي في معهد الكومبيوتر بالمقطم. أما قبل ذلك، فكنتُ أنزعج كثيرًا عندما يشرع في سرد ما حدث له في الأيام الخوالي، فأتركه وأنصرف عند أول فرصة سانحة متذرعًا بأي سبب. المشاركة في بناء السد العالي كانت أكثر الأمور، التي يفخر بها والدي المسكين، حيث لا يفتأ يردد:

- إنه أعظم وأهم إنجاز مصري في القرن العشرين.

ماذا جرى لك أيها الرجل النبيل؟ قلتُ ذلك بصوت شبه مسموع، وأنا أتأمل جسده الضخم كأسد متهالك وجد مبتغاه أخيرًا في النوم على كنبة في صالة داخل بيت قديم! وقعت عينيّ بالصدفة على اللاب توب، فتوجهت نحوه بسرعة، لأفتش في الإنترنت عن الحالات، التي ينقلب فيها الرجال إلى أسود وقرود، لعل وعسى أجد تفسيرًا وحلًّا لمأساة أبي.

- الطعام يا معتز..

زاد إلحاح أمي في ضرورة أن أتناول طعامي فورًا، حيث وصلني صوتها من المطبخ مبللًا بعتاب حزين، فأخبرتها أنني سأشرع حالًا في تناوله. وبالفعل وضعت اللاب توب جانبًا؛ لألتهم ما تيسر من أرز ودجاج بسرعة خاطفة، ضاربًا عرض الحائط بنصائح أمي، التي لا تمل من تكرارها في وجوب أن نأكل ببطء؛ حتى لا نصاب بتلبك معوي!

عدتُ إلى اللاب توب.. بحثت في جوجل عن حل للمأزق الذي أصابني بتشويش ذهني حاد، فلم أجد. دخلت على موقع ويكيبيديا، فلم أقرأ شيئًا

يشبه ما حدث لوالدي ولرجل القطار. تملك مني اليأس، وأنا أحدّق في أبي النائم بعينين ملؤهما حزن العالم كله على ما آل إليه مصيره المفاجئ والغريب.

لا أعرف كيف صرتُ مهمومًا الآن بإعادة أبي إلى مصاف الجنس البشري، دون أن أحس بأية ذرة خوف لكونه بات أسدًا. كأنني أعرف هذا الوحش منذ زمن بعيد. تذكرت قول جدتي « مآثر » (كل الناس تحترم الأسد وتحبه.. لأنه ملك الغابة). آه.. هل أتصل بأخي جمال في الكويت؟ إنه أستاذ جامعي، صحيح أنه متخصص في علوم الفيزياء، لكن هذا لا يمنع من أن يسأل أصدقاءه من أساتذة الأحياء، أو ما شابه، ليدلونا على تفسير لهذه الظاهرة الغريبة وكيفية علاجها.

لكن جمال أصبح بارد الأعصاب بصورة لا تحتمل، خاصة بعد أن تزوج هذه الإنجليزية، التي تعرّف إليها في لندن، أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه من جامعة أكسفورد.. حقًّا، لقد شغلته لورا عنا كثيرًا، الأمر الذي يزعج والدتي ويكدّرها على الدوام، لأن ابنها لم يقترن بفتاة مصرية تستوعبه ويفهمها باعتبارهما أبناء ثقافة واحدة كما كانت تردد. لكن أبي، عندما كان رجلًا، كان يهوّن عليها الأمر، ويخفف حزنها على ابنها، الذي خطفته المرأة الإنجليزية وفقًا لرأيها!

سأتصل بجمال وليكن ما يكون.. إنه ابنه أيضًا، ولست أنا وحدي، وعليه أن يشاطرني هذه الكارثة، فيبذل أقصى جهد ليعيد أبي كما كان، رجلًا كامل الرجولة، بدلًا من أن يظل هكذا مكوّمًا في جسد حيوان ذي أربع، حتى لو كان ملك غابة مهيبة وشاسعة.

بحثتُ عن رقمه في الموبايل واتصلت به، بينما خفقان قلبي في ازدياد ملحوظ.. ضوضاء عظيمة صدمت أذني، قبل أن يصلني صوته:

- أهلًا معتز.. نحن في الطريق إلى اليابان لمدة عشرة أيام، وسنعود.

لم يمنحني جمال أية فرصة للكلام، فسألته بارتباك:

- أين أنت الآن؟

- في مطار الكويت.. سنقضي إجازتنا ونئوب فورًا.. كيف حال أمك وأبيك ورسمية؟

كدتُ أخبره بالحقيقة، لكنه أكمل بسرعة:

- سوف نتأخر على الطائرة.. أبلغهم تحياتي.. هل تريد مالًا؟ إلى اللقاء يا معتز.

هكذا جمال دومًا.. يستخفُّ بي، ولا يضع في باله أي احتمال للاتصال به، سوى أنني أريد أن أطلب منه بعض الأموال.. ليتني ما اتصلت به. إنه يكبرني بعشرة أعوام طوال، ولما بدأت أعي ما حولي، كان قد غادرنا إلى إنجلترا ليستكمل دراسته، بعد أن انتزع المرتبة الأولى على دفعته. وفور أن حقق إنجازه الأكاديمي بالحصول على الدكتوراه واقترن بلورا، عاد إلى القاهرة ليمكث معنا شهرًا واحدًا فقط، ثم طار بعدها إلى الكويت للعمل في جامعاتها.

نعم.. لم يكن يبخل علينا بالمال؛ خاصة بعد أن أحيل والدي، الذي صار أسدًا، إلى المعاش، حيث انخفض دخلنا الشهري بشدة.. لكنه ليس حنونًا كأختي رسمية؛ إذ إنه منشغل دومًا بصعوده الأكاديمي وأبحاثه التي تدر عليه أموالًا كثيرة، فضلًا عن الشهرة التي يتمرغ في نعيمها في مجال تخصصه.

عدتُ إلى اللاب توب فاقد الهمة، فلم أعثر على شيء يساعدني على إيجاد حل للمأزق الذي يفتت أعصابي.. اكتشفت كم أنا مجهد ومهدود

القوى.. توجهت نحو أبي يعصرني حزن عميق. اقتربت منه برفق، ولمسته لأول مرة مذ صار أسدًا.. كان مستغرقًا في نوم لذيذ، رائحته عطرة كعادته؛ حيث كان حريصًا باستمرار على أن يتطيب بأفخر أنواع العطور، حتى بعد أن تبخّر المنصب المرموق. وهكذا لم يستطع الغضنفر الذي صاره أن يزيل هذه الرائحة على الأغلب! لبدة شعره الكثيفة ناعمة كالحرير، ولونها يسر الناظرين.. تجاعيد وجهه أكثر استرخاءً. قبّلته في جبينه فلم ينتبه، ولم يتحرك، لكن إيقاع تنفسه ارتفع بصورة ملحوظة.. أمسكت ذيله ووضعته بجانبه، بعد أن تدلى على الأرض دون احترام لهيبة ملك! همستُ في أذنه بصوت خفيض:

- لا تقلق يا أبي.. تا الله لأجدنّ حلًّا لتعود إنسيًّا كما كنت.

استلقيتُ على الكنبة المقابلة لتلك، التي أصبحت عرين أبي منذ نصف ساعة أو يزيد. كنت مدججًا بسكينة عجيبة، لا أعرف من أين واتتني. كما كنت جائعًا إلى النوم بشدة بعد يوم شاق ومتعب وغرائبي.. لكنني استيقظت قبل أذان الفجر مباشرة على بكاء أمي وعويلها، وهي توقظني بعنف صارخة:

- أبوك مات!

* * *

3 | في المقابـــر

لم أجرؤ أن أسأل أمي: مَنْ مات؟ أبي الإنسان أم والدي الحيوان؟ كما لم أملك الشجاعة لأرفع الغطاء عن جثمان أبي لأعرف كُنه المتوفى: هل هو رجل أم أسد؟ على الرغم من أن أمي شجعتني على أن ألقي عليه نظرة أخيرة، عندما قالت لي قبل أن يحمله الرجال، الذين ملأوا المنزل مع بزوغ نور الصباح:

- ارفع الملاءة من فوق جسم أبيك، وقبّله يا معتز!

أشارت لي أمي أن أفعل ذلك، فلم أقدر، وهربت من الصراخ والعويل اللذين هزّا جدران شقتنا الفسيحة في شارع الحجاز بمصر الجديدة. وحين ذهبنا إلى مدافن أسرتنا في الإمام، لم أتمكن من رؤيته وهم يضعونه داخل المقبرة لأعرف ماهيته، فالزحام كان شديدًا، والكفن الأبيض غطى على كل شيء من جسمه الطيب. بحثت بعينيّ عن ذيله، لعله انسل من طيات الكفن، فلم أفلح، حيث إن كثافة الذين جاءوا ليدفنوه، فضلًا عن صياحهم وهمهماتهم، كانت مصدر تشويش لي؛ لذا لم أعرف آنذاك هل عاد والدي إلى أصله البشري قبل أن يموت؟ أم أنه رحل عن دنيانا ملكًا للغابة؟

قررتُ أن أسترق السمع في فوضى الدفن، عسى أن أقتنص جملة شاردة، أو عبارة واردة، تشير إلى طبيعة أبي.. لكن كل ما كان يصدر من كلام، عن

الذين جاءوا ليشيعوه إلى مثواه الأخير، لم يتعدَّ صيحات: لا إله إلا الله، أو الإشادة بخصال والدي والدعوة له بالرحمة.

لمحتُ أصدقاءه القدامى وزملاءه في العمل ومرءوسيه يذرفون دموعًا ساخنة، ويتمتمون ويهمسون بكلام غير واضح الحروف. آهٍ.. المهندس خليل فهيم تادرس.. صديق أبي الحميم، والذي أكنّ له مودة خاصة، والذي كان أول الحاضرين إلى منزلنا، فور علمه بالخبر المفجع.. نعم.. رأيته يرفع الملاءة عن وجه أبي وينحني فوقه، ربما لطبع قبلة أخيرة على جبينه، لكنني لم ألمح سوى ظهره، وأنا أقف بعيدًا ملتصقًا بباب غرفتي. ليس سواه من سيخبرني كيف رأى أبي؟ وهل غاب عن دنيانا رجلًا مهابًا، أم أسدًا فاتنًا مزدانًا بلبدة ساحرة؟ إنه يحبني مثل ابنه، ولا يناديني إلا: يا بنيّ ، كما أناديه: يا عم خليل.. نعم سأستجمع كل قواي وأسأله. إنه الآن يبكي هناك منفردًا، مستندًا إلى جدار المقبرة، مرتديًا بدلة سوداء فوق قميص أبيض ورابطة عنق قاتمة.. أنت كما أنت يا عم خليل: الحفاظ على أناقتك ضرورة حتمية حتى في الحضور الكئيب للموت! كم من مرة سمعتك تردد هذه العبارة أمام والدي، وأنت تضحك:

– الموت كائن فظ وفوضوي.. لا مواعيد ولا نظام له.. علينا مواجهته بكامل أناقتنا؛ حتى يخجل من نفسه، فلا ينقض علينا فجأة!

يضحك أبي بشدة، ويقهقه عم خليل على آرائه، التي يطلقها بصوت قوي لا يخلو من فصاحة. وألمح أمي وخالتي تريزا، زوجة عم خليل، الوحيدة التي بكت والدتي أمامها بسبب أخي جمال، تبتسمان وهما سعيدتان. لأن زوجيهما تغلبا على ضجر المعاش وغدر الزمان بالضحك عميقًا من القلب.

نعم.. لن ينبئني أحد بحقيقة الميت سوى عم خليل.. دنوتُ منه، لاحظت أنه استبدل بنظارته الطبية نظارة أخرى أكثر معاصرة للموضة. كان مطأطئ الرأس، منكس النظر يرنو إلى اللا شيء، والهواء القليل لأوائل سبتمبر يداعب شعره الأبيض الناعم. لما رآني أقترب منه، أقبل في اتجاهي واحتضنني بقوة للمرة الثانية هذا النهار.. ثم غمغم بعبارات مألوفة، تنثر دومًا في مثل هذه المناسبات الحزينة!

- أبوك يا معتز.. كان رجلًا نبيلًا بحق.

حركت رأسي شكرًا وامتنانًا.

- انظر.. كم عدد الناس الذين جاءوا ليودّعوه، على الرغم من أنه غادر منصبه الكبير قبل سنوات.. حقًّا لقد كان محبوبًا؛ لأنه كان شجاعًا وشريفًا وكريمًا.

لم أعلق، ثم بدأت ألتفت حولي لأتيقن أن لا أحد قريب منا، ليسمع ما أنتوي البوح به لعم خليل.. فجأة تركني عم خليل، وهرول على قدر طاقته السبعينية نحو مدخل المقابر يتبعه نفر آخرون.. ركضت خلفه وأنا أسائله:

- ماذا حدث يا عم خليل؟

بصوت لاهث وقلب مقطوع الأنفاس، قال لي:

- إنهما وزير الصناعة والسيد مندوب رئيس الجمهورية.. هيا لتستقبلهما.

تعجبتُ من هذه الحفاوة الرسمية، وشعرت بالفخر، لكنني تساءلت بيني وبين نفسي: (ترى هل يعرف رئيس الجمهورية أنه أرسل مندوبًا عنه لتقديم العزاء في أسد؟).. تقززت من أفكاري لأنني سمحت لهذا الخاطر السخيف

أن يقتحم خيالي، بينما الميت هو أبي. عندما قدّم لي الوزير واجب العزاء بعبوس ظاهر، رمقته بقلب متوتر ونظرة متفحصة، لعله يشبه الرجل الذي صار قردًا في قطار الأمس. لم أجد أي شبه بينهما، فهدأت روحي. اصطف الجميع حول الوزير والسيد المندوب، وقرأوا الفاتحة على روح.. لا أدري؟ ما هذه الهواجس؟ إنني أكاد أنهار من فرط التفكير والحزن.. اعذرني يا أبتِ.. لم أستطع الانسلاخ عن هذه الهواجس، التي اصطخبت في ذهني. انصرفت المواكب الرسمية، وكثير من المشيعين، حيث لم يبقَ في المقابر سوى أصدقاء أبي الحميمين، وبعض أقاربنا من بعيد، وعماد عزوز الذي لم يستطع أن يقاوم شهيته، فانتحى جانبًا ليتناول سندوتش فول، لا أعرف من أين حصل عليه في هذه المقابر الموحشة، والدكتور مصطفى غيث زوج أختي، الذي وصل من الإسكندرية منفردًا؛ ليلحق بالجنازة قبل أن تلفظ أحزانها الأخيرة.

اعتبرت الهدوء الذي أعقب طقوس الدفن ومغادرة الرسميين فرصة مواتية لأستفسر من عم خليل تحديدًا: كيف رأى جثمان أبي، عندما قبّله في منزلنا، قبل أن يحملوه إلى مثواه الأخير؟ لكن الدكتور مصطفى غيث لم يتح لي أية فرصة لأسأل وأستريح؛ إذ ضمني إلى صدره بقوة تاركًا دموعه تنهمر بغير حساب.. وهكذا تبادلنا المواقع، فشرعت في مواساته لأهدّئ خاطره، الأمر الذي كان يوقد أحزانه أكثر، فتنساب دموعه أكثر وأكثر!

- أبوك يا معتز كان نعم الإنسان.. دعك من خلافاتنا السياسية.

بصعوبة فهمت كلام الدكتور مصطفى، لأن حروفه انطلقت مرتعشة ومبللة بدموعه.. سألته عن حالة أختي رسمية الآن، فأجاب:

- الحمد لله.. تتحسن، لكننا لم نخبرها بوفاة المرحوم؛ حتى لا يؤثر ذلك على قلبها المعطوب.

(المرحوم.. أبي صار المرحوم) .. هنا بالضبط بكيت بحرقة لأول مرة، منذ انتقل والدي من دنيا الإنس إلى عالم الحيوانات مساء أمس، حتى وفاته فجر اليوم. تجمّع الحاضرون حولي وطيّبوا خاطري، وبادر كل من عم خليل والدكتور مصطفى باحتضاني، والطبطبة على كتفي بعطف وحنو ظاهرين:

- تماسك يا معتز.. احمد الله على أن أباك صنع منك رجلًا.. تماسك من أجل والدتك.

بحثتُ عن أمي وأنا أتلفت في مكاني، في الوقت الذي أعطاني فيه عماد عزوز منديلًا ورقيًا لأجفف دموعي. كان هو الوحيد من أصدقائي الذي حضر طقوس الدفن. لمحت أمي جالسة هناك مع رفيقاتها وقد تجمع حولهن عدد من قارئي القرآن في المقابر، أحدهم يبدو عليه أن طائر الموت سيخطف روحه بعد ساعة. كانت أمي تمنحهم قدرًا من المال، نظير أن يتلو كل واحد منهم ما تيسر من القرآن الكريم على روح أبي. أمي التي كانت تجلس على مقعد - لا أعرف من جاءها به - لم تكن تبكي، بل كانت تطرق بنظرها نحو المقبرة التي سرقت منها رجل عمرها، بينما افترش الأرض حولها بعض النساء، اللائي اتشحن بسواد قاتم، أما الأخريات الأصغر عمرًا، فنشدن بعضًا من الراحة بالاستناد إلى جدران المقابر.

ذهبتُ إليها لأصطحبها إلى المنزل، بعد أن حشروا أبي الأسد في مكان موحش ومعتم. استقبلتني بدمعتين ساخنتين، وعبارة تكررها منذ الصباح:

- إياك أن تخبر أخاك جمال أو أختك رسمية!

أطلقت هذا التحذير بصوت واهن، ولكن بنبرة قاطعة، وهي توزع بصرها بيني وبين الدكتور مصطفى غيث الذي هزّ رأسه تأييدًا لكلامها.. أكدت لها أنني لم ولن أخبرهما الآن، بعد أن ترددت لحظة: هل أبلغها أن

جمال وزوجته في اليابان حاليًا أم لا؟ ولكن أخبريني أنت بالله عليك يا أمي - هكذا قلت لنفسي - كيف رأيتِ أبي عند الفجر؟ ولماذا لم تفصحي عن التحول الرهيب الذي اعترى جسده الطيب، فصار أسدًا؟ أنتِ فقط من تعرفين الحقيقة يا أمي؛ لأنك الوحيدة التي رأيتِـه رأي العين، بعد اضمحلال الليل وهو ميت.. قولي لي يا أمي من فضلك: هل كان رجلًا أم ضرغامًا؟ هل غاب أبي عن دنيانا في جسد إنسان، أم في جلد غضنفر؟

ظلت هذه الهواجس تصطخب في صدري دون أن أبوح أو أسأل؛ فالنسوة يحطن بأمي من كل جانب، ولا يسمحن لأحد بالانفراد بها، حتى لو كان ابنها الحائر. وأشجار الحزن التي انبثقت في وجهها فجأة هذا النهار تمنع أي متطفل أن يوجه لها أسئلة بهذه الغرابة، حتى لو كنت أنا المسكين!

معذرة أبي.. سأؤجل معرفة هل قضيت ساعاتك الأخيرة، وأنت تنعم بالحياة في روح وجسد إنسان، أم أن هناك من غدر بآدميتك، وقذف بك من مملكة البشر إلى عالم الحيوان؟

آه.. تذكرت الآن.. هل يمكن أن تكون الأدوية التي يتناولها أبي، وهي كثيرة ومتنوعة، قد تفاعلت داخل جسده النحيل، فأطاحت به من جنة الإنسان إلى مملكة الحيوان؟ لم لا؟ فلأسأل الدكتور مصطفى غيث عن أخطر الآثار الجانبية، التي يمكن أن يتعرض لها رجل مثل أبي، يتناول أكثر من عشرين حبة برشام في اليوم الواحد منذ أحالوه إلى المعاش، بعد أن كان شعلة نشاط في وزارة الصناعة.

أذكر الآن حالته النفسية حين عدنا إلى البيت، بعد انتهاء الحفل الذي أقامته الوزارة؛ تكريمًا له عند خروجه إلى المعاش.. لقد كان سعيدًا بكلمات الإطراء التي قيلت في مناقبه، كما كان فرحًا لأنه تلقى وعدًا بتعيينه مستشارًا

في الوزارة بعد شهر واحد فقط عندما تنقضي السنة المالية. كنت في الصف الثالث الإعدادي آنذاك.. ولم أكُ مهتمًّا بما يدور من حوار بين أبي وأمي، ونحن عائدون بعد الحفل.. لكنني أذكر جيدًا سؤال والدتي بلهفة:

- هل الوزير نفسه من وعدك بذلك؟

أوقف أبي السيارة النصر التي يقودها بنفسه قبل أن يجيب، تلك السيارة التي باعها قبل سبع بعد أن اهترأت تمامًا، ما جعلني أنتبه إلى الحوار الدائر بينهما؛ إذ كنت شاردًا في خيالاتي باعتباري مراهقًا حديثًا. كنا في شارع الخليفة المأمون، الذي أعشق أشجاره العتيقة وكثافة أوراقها، حيث أراقب الطيور التي تبني أوكارها فوق أغصان هذه الأشجار، كلما تصادف مروري في هذا الشارع الجميل. كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل، وكان أبي بكامل أناقته: بدلة سوداء فوق قميص أزرق فاتح ورابطة عنق كحلية اللون، مزدانة بخطوط دقيقة مائلة، ذات لون أحمر ساخن. هذه الأناقة تجلت مع طوله الفارع ووسامته اللافتة، وهيبته التاريخية، التي لم تستطع سنواته الستون أن تمحوها على الإطلاق.

أما أمي التي قدمت استقالتها مؤخرًا من وزارة التربية والتعليم، قبل أن تكمل عامها الثاني والخمسين، فكانت نموذجًا باهرًا للسيدة المثقفة، التي درست التاريخ في كلية الآداب، حيث استطاعت أن تصعد في مناصب الوزارة إلى درجة رئيسة قسم التاريخ للتعليم الثانوي.. قال لها أبي بصوت يملؤه الفخر:

- نعم يا سعاد هانم.. الوزير شخصيًّا من وعدني بذلك.

كان أبي يدلل أمي كثيرًا ويمنحها هذا اللقب التركي (هانم)؛ لأن جدها لأبيها كان تاجرًا تركيًّا، استقر في القاهرة وتزوج إحدى بنات العائلات

الراقية، كما تذكر والدتي دومًا باعتزاز تاريخ أسرتها وعراقته. أما جدتي مآثر، فقد رحلت قبل أن تسرد لي حكايات ونفوذ العرق التركي في عائلة والدتي.

لم يفِ الوزير بوعده، ولم يتصل أحد من الوزارة بأبي لمدة خمسة أشهر متواصلة، الأمر الذي جعل عقبان الغم تنهش صدره، بعد أن ساءت حالته النفسية كثيرًا، حتى انقضّت علينا ضباع ليلة مشئومة من ليالي مارس الحزينة، لتغرز في قلب أبي عطبًا دائمًا.

(جلطة في القلب) عطلت ثلاثة شرايين عن العمل تمامًا.. الصدفة السعيدة وحدها أنقذت حياة أبي في هذه الليلة الحزينة من موت محقق، فقد كانت أختي رسمية وزوجها الدكتور مصطفى غيث وابناهما في زيارتنا في تلك اللحظة البغيضة. على الفور أدرك الدكتور مصطفى خطورة ما يحدث لأبي بصفته طبيب أمراض قلب، ونقله في التو واللحظة إلى مستشفى هوليوبوليس القريب، حيث أدخله غرفة العمليات في أقل من أربعين دقيقة!

صحيح أن والدي تمكن من الإفلات من مخالب الموت التي انغرزت في قلبه آنذاك، إلا أن الأمراض لم ترحمه، وظلت تدق جسده باستمرار، فمن ضغط إلى سكر، إلى كلى.. حتى أصبح غير قادر على الخروج من المنزل على الإطلاق في عامه الأخير، ولولا رحمة ربي لاضطر أن يستعين بأحد عند دخوله الحمام.. لكنه حافظ باستماتة على قدرته على التبول والتغوط، دون مساعدة أي مخلوق، حتى لو كانت أمي. لكنه كان يسمح لها بمعاونته في الاستحمام يوميًّا، لكنه مع مرور الوقت تفاقم الوهن الشديد الذي يعتريه حتى بات لا يقدم على الاستحمام إلا مرتين فقط في الأسبوع.

هكذا قضى أبي عامه الأخير قعيد البيت، يتسلى بمشاهدة التليفزيون، خاصة القنوات الإخبارية والأفلام العربية والأجنبية القديمة، علاوة على

القنوات المتخصصة في العلم. يزوره مساء كل خميس عم خليل؛ فتنتعش روحه بأحاديث الذكريات التي تمجّد الزعيم وتعدد مناقبه، ثم تتحسر على أيامه. بهذه الطريقة فقط، كان أبي يجدد نشاطه بالضحك من القلب كل أسبوع؛ لذا كانت أمي تتفنن في إعداد الطعام في ذلك اليوم، فتصنع الكثير من الأصناف التي يقبل عليها عم خليل وزوجته بشهية، فضلًا عن الأطعمة التي يفضلها والدي، ابتهاجًا بزيارة الأحباب كما تقول لأم السيد، التي تعاونها منذ مطلع النهار في تجهيز هذه الوليمة الأسبوعية. المدهش أن أمي كانت تعلم تمامًا مواعيد الصيام لدى الأقباط، فتراعي عند إعداد وليمتها الأسبوعية هذه المسألة، فلا تقدم لهما سوى السمك المشوي، على الرغم من اعتراض عم خليل، الذي يؤكد لها ضاحكًا (لا يحق لقبطي مثلي تجاوز الستين أن يصوم.. فلا تحرمينا الليلة من اللحم).

أما تل الأدوية والعقاقير الذي يحتل سطح الكوميدينو بجوار سريره، فهو وحده القادر على معرفة متى يتناول ماذا؟ وكم حبة في المرة الواحدة؟ ذلك أن عدد علب الأدوية يتجاوز أحيانًا العشرين علبة ذات أشكال وأحجام وألوان مختلفة. حتى أمي كانت تعجز عن معرفة ما يجب أن يتعاطاه في الصباح أو المساء، أو قبل الأكل أم بعده. وإذا حاولت معاونته رفض بشدة، طالبًا منها أن تهتم بصحتها، بعد أن اضطرت إلى فقد ثديها الأيسر؛ بسبب السرطان قبل عامين.

الأدوية.. نعم السر في الأدوية.. هي التي حاكت هذه الألاعيب السخيفة التي تعبث بجينات الكائنات الحية؛ وتحولها من بشر إلى حيوانات.. يجب أن أفاتح الدكتور مصطفى غيث عند عودتنا إلى المنزل بما حدث لأبي مساء أمس، وأجعله يطلع على علب الأدوية كلها؛ حتى يكتشف السر وراء تحول أبي المريض إلى ليث هريم.

في أثناء خروجنا من المقابر إلى الطريق العام، حيث اصطحبنا عم خليل بسيارته، لمحت رجلين يحفران الأرض بجوار المدفن، الذي يطل على الشارع الرئيسي، فنبتت في عقلي فكرة جهنمية، وهي أن أعود ليلًا مع بعض الأصدقاء وننبش قبر أبي، لنعرف الحقيقة: هل كان رجلًا أم أسدًا؟

* * *

4| في كافيتريا الحرية

أقنعني أدهم الشاذلي أننا لا يمكن أن ننبش قبر أبي؛ لأن ذلك يعد من المحرّمات، كما أنه يعرضنا للمساءلة القانونية بتهمة انتهاك حرمة الموتى! ولما حاولت أن أقنعه أن الجثة التي في القبر ليست لإنسان، وإنما لحيوان، أصر على موقفه قائلًا:

- نبش القبور جريمة.. بغض النظر عن الكائنات المدفونة داخلها!

ثم أضاف بأداء حاسم، وهو يقدم لي واجب العزاء في المنزل، بعد عودته من رحلة عمل إلى الأقصر مع وفد بريطاني:

- معتز.. إياك أن تخبر أحدًا، أيًّا كان، بموضوع والدك، أو بما تظن عن والدك.

- ولكن أنا ابنه!

- ولو!

- نذهب إلى القبر ونخبر التربي أننا نسينا شيئًا، أو أننا نرغب في وضع مصحف بجوار المرحوم، والإكرامية السخية للتربي ستفتح لنا المقابر المغلقة!

- لا.. يا معتز.. لا.. أرجوك، وأكرر.. من فضلك: لا تخبر أحدًا بهذا الأمر قط!

- ولا حتى الدكتور مصطفى زوج أختي؟

- ولا أي مخلوق.. رحم الله والدك عم مختار.. لقد رحل رجلًا وقُضي الأمر.. انسَ الموضوع.

وقفت حائرًا في غرفتي، لا أعرف ماذا أفعل أمام إصرار أدهم على موقفه. كان ينظر إليّ بعينين تملؤهما شفقة غريبة مخلوطة بعجب كبير، تشبه تمامًا تلك التي رمقني بها، وهو ممدد فوق سرير مستشفى السلام الدولي يتمتع بإعجاب وتشجيع نشوى فوزي، على الرغم من سطوة الحزن المقيم آنذاك. وكان قميصه الأزرق الخفيف وبنطاله الجينز يؤكدان أنه قد وصل توًّا من الأقصر؛ لأنه كان يحمل حقيبة جلدية صغيرة وضعها فوق كتفه. فجأة تذكرت شيئًا مهمًّا، فاقتربت منه وانحنيت فوقه تقريبًا، وأنا أقول بصوت مرتعش وخفيض؛ حتى لا تسمعني أمي أو ضيوفها من النساء المواسيات في الخارج:

- وما حدث في القطار؟

- تقصد الرجل الذي صار قردًا؟ مع الإجهاد الشديد يا معتز نتخيل أحيانًا أمورًا كهذه.. لا تشغل بالك كثيرًا.

لم يمكث أدهم كثيرًا معي، فقد استأذن في الانصراف مبكرًا؛ لأنه لم يذهب إلى بيته بعد عودته من رحلة الأقصر، وقد جاءني فور علمه بالخبر، عن طريق زياد أبو سريع وفادي نجيب، وهو في طريق عودته.

يعجبني في أدهم الشاذلي إيقاع صوته الهادئ أثناء الحديث، فمهما كان الخلاف محتدمًا وأصوات أصدقائي حادة وعالية، فإنه الوحيد بيننا الذي يظل محتفظًا بنبرة صوته الرصينة، والتي تتكئ على حكمة عميقة في النظر إلى

الحياة، لا نعرف من أين استمدها بالضبط. لكن صوته ارتفع أمامي بغضب شديد مرتين، الأولى: عندما سخرنا من انضمامه إلى الجمعية الوطنية للتغيير التي أسسها الدكتور محمد البرادعي، والثانية: حين رأيتهم يقبضون عليه في تريانون، حيث لم أنفّذ نصيحة الحمامتين بالسرعة الواجبة، على الرغم من تحذيرات جدتي « مآثر »!

في يوم ارتباطه بجمعية البرادعي، التقينا في كافيتريا الحرية التي تحتل إحدى نواصي ميدان الحجاز.. كنا نفضل هذا المكان لأنه واسع بصورة لافتة، ومشروباته أفضل خاصة الشيشة التفاح، التي يقبل عليها أدهم وزياد وفادي نجيب وأنا بشراهة. الحقيقة أن زياد أبو سريع، هو الذي بادر بالسخرية من الخطوة التي أقدم عليها أدهم الشاذلي، وأيّده فيها فادي نجيب، حين هتف قائلًا:

- هل تظن أن البرادعي سيصنع شيئًا؟ إن هذا البلد قد مات قبل أن نولد، والأفضل أن تلتحق بالجمعية الوطنية للموتى!

فور عاصفة الضحك التي انتابتنا، عقّب محمود أبو ماضي، الوحيد فينا الذي يفضل السجائر على الشيشة، وأكثرنا ثراءً، بعبارة أطلقت عصافير الضحك إلى آخر مدى، قال محمود بصوته الناعم، وهو يشير بسبابته نحو صالون الأناقة، الذي يقع بجوار الكافيتريا:

- هناك.. بجوار الحلاق يوجد مقر الجمعية الوطنية للموتى!

ارتفع معدل ضحكنا، لأن الحاج أحمد صاحب الصالون تجاوز الثمانين، وما زال مصرًّا على أن يمارس مهنته بنفسه؛ الأمر الذي يعرضه لمشكلات كثيرة مع الزبائن، نظرًا للجروح التي يتركها الموسى على وجوههم؛ بسبب

ارتعاش يديه. وقد نال أدهم شخصيًّا نصيبه من هذه الجروح قبل أسبوعين، ولكنه تمالك أعصابه ورفض الاشتباك مع رجل كهل، بينه والقبر مسافة يومين كما يقول.. كنت أقل الحاضرين استجابة للسخرية من خطوة أدهم السياسية، حين شعرت أن أكوام الغضب تتراكم في عينيه، حيث انتظر حتى انطفأ آخر قنديل ضحك، أشعله زياد أبو سريع، وتأملنا جميعًا بحنق، ثم وقف محتدًّا وصارخًا:

– أليس هذا بلدكم أيضًا، فكيف تركتموه يموت؟

– وهل نحن الذين تركناه يا أدهم؟ هل نملك أي سلطة لنصحح الأخطاء ونضبط الأوضاع؟ ألم تنضم حضرتك إلى جماعة (كفاية) قبل سنوات، فماذا فعلتم.. لا شيء.. مجرد مظاهرات شكلية، ثم تنصرفون إلى بيوتكم!

انبرى زياد في الدفاع عن رأيه بحماس، بينما تابع كل من فادي نجيب ومحمود أبو ماضي المباراة السياسية بينهما باهتمام بالغ؛ ذلك أن أدهم الشاذلي شاب واسع الحيلة، كثير القراءة، شغوف دومًا بعشق المعرفة. ويبدو أن خاله عادل صالح، الصحفي اللامع، له تأثير كبير عليه، فهو يشجعه على الاطلاع منذ الصغر، فكان يوفر له الكتب والمجلات التي تلائم سنه، حتى شبّ أدهم مفتونًا بالقراءة. مقبلًا عليها بحماس، خاصة السياسة والتاريخ والشعر والرواية، فكنت أشعر أنه يحاول جرجرتنا لمناقشة قضايا سياسية أو تاريخية لم نفطن إليها، أو قل لا تشغل بالنا، فقد كان يعتب علينا جميعًا أننا لم نقرأ تاريخ مصر الحديث بما يليق به؛ موضحًا أن الاطلاع على التاريخ هو الذي يفسر لنا تعقيدات الحاضر ومشكلاته، ويقترح حلولًا ناجعة للمستقبل وآفاقه. وكم من مرة ردد أمامنا ضرورة دراسة موسوعة جمال حمدان (شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان)، مؤكدًا أن هذه الموسوعة تجعلنا نفهم أنفسنا بصورة

صحيحة. أما الشعر فكان عشقه الساحر كما يقول، فكان لا ينفك يلقي علينا بعضًا من القصائد، التي يحفظها عن ظهر قلب للشعراء القدامى، أمثال: المتنبي وأبي فراس الحمداني.. لكنه يكن مودة خاصة لأحمد شوقي ونزار قباني ومحمود درويش، الذين يحفظ كثيرًا من قصائدهم، ويرددها علينا في أوقات متباينة.

لم نكن نشعر أنه يستعرض علينا عضلاته الشعرية، فقد كنا نحسّ وندرك أنه يريد أن ينقل إلينا المتعة، التي هزته عندما قرأ قصيدة معينة فحفظها. كما أن أدهم الشاذلي استفاد كثيرًا من دراسته للأدب الإنجليزي في الجامعة؛ فعرف الطريق إلى قراءة نصوص إنجليزية لمبدعين أجانب، الأمر الذي منحه ثقافة أدبية رفيعة ومتنوعة، وقد أهلته مواهبه هذه على شغل وظيفة مهمة في المعهد البريطاني بحي العجوزة.

كان أدهم أطول مني بسنتيمترات قليلة، وكانت بشرته الخمرية ناعمة بصورة لافتة، مثل جسد ثعلب الماء، فهي تنم عن عز ونعمة أسبغا عليه طفولة رخيّة، على الرغم من أنه فقد والدته وهو طفل. أما حاجباه الكثيفان وعيناه العسليتان الواسعتان، فقد اختبأت كلها خلف نظارة رقيقة، ذات إطار بني، تهشمت وهو يقاوم البلطجية في موقعة الجمل، كما أخبرتني حنان المرشدي وهي غارقة في السواد.. بشكل عام يوحي وجه أدهم الشاذلي بالثقة، وأنك تقف أمام شاب ناجح ووقور وطموح.

لذا حين راح يهدّ بمنطقه السديد جبل الإحباطات، الذي بناه كل من زياد أبو سريع وفادي نجيب في رده على حال البلد البائس.. أخذنا بردوده، وتعجبنا من إصراره على إقناعنا بأن البرادعي وجمعيته سيلعبان دورًا مهمًّا في تغيير النظام السياسي المتبلد في مصر. كان يتحدث بحماس كبير تعززه فطرة

عميقة تنفر من الظلم والفقر. أنصتنا إليه باهتمام.. لكن، وبمرور الوقت، لاحظت أن زياد أبو سريع بدأ يراجع موقفه الحاد من أوضاعنا المتكلسة التي لن تتغير، بيد أنّ همته لم تفتر في وصف المصريين بالخنوع والجبن، مؤكدًا أن أنوار الأمل في نهضتهم مرة أخرى قريبًا قد خبت وانطفأت. أما فادي نجيب، فكان يؤكد أنه لا أمل لجيلنا في هذا البلد، والحل الوحيد يكمن في الهجرة، وأنه يخطط بجدية لتنفيذ هذا الحل، ثم يعود ويشير إلينا بسبابته فردًا فردًا، وهو يقهقه قائلًا:

- لكنني أحبكم يا أولاد الأفاعي، فكيف أترككم وأهاجر؟

كان أشرف الشقيق الأكبر لفادي قد هاجر إلى كندا قبل ثلاثة أعوام، مستغلًّا إمكاناته وظروفه باعتباره طبيبًا قبطيًّا في تسيير إجراءات الهجرة. بينما آثر فادي البقاء في القاهرة؛ ليساعد أباه في إدارة الصيدلية، التي يملكها في ميدان تريمف فور أن تخرج في كلية الصيدلة. وكان يؤكد دومًا على أننا صرنا جبناء، وأن مصر في حاجة إلى المستبد العادل، كما يقول أبوه باستمرار.

- وليكن يا زياد.. وليكن يا فادي.. معكما حق.. لذا سيظل الانكباب على العمل السياسي هو المفتاح السحري، الذي سيحرر المصريين من أسر الجبن، لا السخرية من أي بادرة طيبة تستهدف تغيير البلد نحو الأفضل.

بهذه العبارة التي ألقاها أدهم الشاذلي بثقة زائدة وأداء قاطع، توقفنا عن مناقشته في قراره بالالتحاق بجمعية البرادعي، وراح كل منا ينظر إلى الآخر، أو يعاين الجالسين في الكافيتريا صمتًا بلا كلام.. لكن لم يطلب أحد من أدهم معرفة الوسيلة، التي يمكن بها الانضمام إلى الجمعية؛ إذ إننا على الرغم من احترامنا لآراء أدهم وقراره، لم نكن مستعدين بالمرة إلى دخول نار السياسة والاحتراق بلهيبها؛ خاصة أنا الذي كنت قد أصبت منذ مدة بالقرف من

أحاديث الساسة والسياسيين، نظرًا لأن التواجد الدائم في جريدة سياسية، كالتي أعمل بها تدفع المرء لأن يبغض أولئك الذين احترفوا العمل السياسي، سواء كانوا ينعمون بالسلطة والجاه، أو كانوا يتطلعون إلى الفوز بنصيب من كعكة هذه السلطة وذاك الجاه!

كنت أقل الحاضرين حديثًا كالعادة، وهذه إحدى أبرز خصالي، التي ينتقدني فيها كثير من أصدقائي إلا نشوى فوزي فاتنة الفراشات.. أتابع ما يجري أمامي بانتباه شديد، ولكنني لا أتدخل إلا نادرًا وإن طُلب مني ذلك، بل لا أحاول أن أفنّد الآراء الخاطئة أو الصائبة التي تحوم في المكان، إلا إذا بادر أحدهم، وسألني: هل أوافق على ما يقال أم لا؟ هذه الصفة، أعني الاتكاء على حائط الصمت أغلب الوقت، لم تزعج أصدقائي المقربين، فنحن التقينا في المرحلة الإعدادية، واختار كل منا ألوان الآخر وارتاح إليها عن طيب خاطر.. صحيح أن عددًا كبيرًا من مجموعتنا قد غادر البلد في السنوات القليلة الفائتة، إما للعمل في الخليج، أو للهجرة نهائيًا إلى كندا وإيطاليا. كل هذا صحيح، إلا أن مَنْ آثروا البقاء في القاهرة ما زالوا يشكلون مجموعة متماسكة من الأصدقاء.

انطلق رنين موبايل زياد أبو سريع فجأة كالإنذار، فهبّ واقفًا بحركة مسرحية كوميدية صارخًا:

- إنها زوجتي.. لها رنين بوليس النجدة!

ضحكنا جميعًا بصوت عالٍ، لفت انتباه الجالسين بقربنا من رواد الكافيتريا، فنظروا إلينا مبتسمين، بينما وضع زياد لاي الشيشة جانبًا، وابتعد قليلًا ليتحدث بحرية مع زوجته؛ حيث كان الوحيد بيننا الذي نفذ نصيحة عادل صالح، فسارع إلى عقد قرانه وإتمام مشروع الزواج منذ أكثر من عام.

(أريد امرأة.. فأنا غير قادر على احتمال جسدي الهائج)، هكذا كان يصرخ دومًا، قبل أن يهنأ بعروسه التي ستهبه طفلًا يتيمًا. وبعد زواجه ظل زياد يردد بفرح على الدوام أنه (لا توجد لذة تضاهي لذة لمس النساء).. تابعته وهو يخرج من باب الكافيتريا، فلاحظت أنه امتلأ بصورة لافتة، كما أن ملامحه السمراء زادت استقرارًا بعد الزواج، وإن كان قد فقد نسبة لا بأس بها من شعره الأسود الخشن، حيث هلّت بشائر الصلع جلية فوق رأسه بوضوح.

عند عودتي وحيدًا هذه الليلة سيرًا على الأقدام، تذكرت أن معظم أصدقائي مرتبطون بعلاقات غرامية، بعضها رسمية، إلا أدهم الشاذلي، الذي فسخ خِطبته قبل شهرين؛ لأن من ارتبط بها لم تكن تعير عالم الآداب والفنون أي اهتمام، كما قال لنا بأسى يوم افترقا. بينما حرمتني المقادير من أن ألتقي الفتاة التي تحرّك مياه العشق الراكدة في قلبي.. صحيح أنني فتنت عامًا كاملًا بنهلة إسماعيل، التي كانت تكبرني، أثناء الدراسة في معهد الكومبيوتر بالمقطم، إلا أن هذا الافتتان بدأ يذوب ويتلاشى، عندما طارت في سماء القناطر الخيرية!

كنت أعلم تمامًا أن نهلة تهب شهد أنوثتها بانتظام إلى زميل لها تصغره بسنة. وكنت أعي تمامًا أن المرات القليلة، التي تبادلنا فيها الكلام لأسباب دراسية لم تمثل لها شيئًا يذكر، وأنني - للأسف - لم أتمكن من طبع صورة إيجابية لي على مُحيّا قلبها، أو شاشة خيالها. ومع ذلك كنت أجد متعة لا حدود لها في تأملها عن بعد، حيث تبدو لي كعصفورة رقيقة، أو مثل فراشة ملوّنة.

كانت نهلة من البنات القليلات في المعهد اللاتي لا يرتدين الحجاب، فاعتقدت أنها مسيحية، لكن عندما علمت اسم والدها، تيقنت أنها مسلمة.. قامتها الرشيقة تختال باستمرار في ملابس أنيقة وبسيطة ومحتشمة، ولعل ذلك

قد ساعدها على الطيران. أما ما كان يسحرني في ملامحها الآسرة، فهي نظرة عينيها الجريئة والمسالمة في آنٍ. حقًّا.. إن نهلة إسماعيل مكسوّة بشعر أسود ناعم يخطف الألباب، إلا أنني كنت أحب كثيرًا طريقة تأملها، وهي تتلفت هنا وهناك، أو تشير بإيماءة خلابة إلى شيء ما، أو تتطلع فجأة نحو السماء دون أن أعرف لماذا؟

لم أجرؤ على الاقتراب منها، والمرة الوحيدة التي فكرت فيها أن أبوح لها بأن قلبي يرفرف كلما رآها، خطرت عندما جمعتنا رحلة نظمها اتحاد الطلاب بالمعهد إلى القناطر الخيرية. آنذاك.. كنت أجلس وحيدًا كعادتي تحت شجرة جازورينا ضخمة، تفرش ظلها الكبير على مساحة لا بأس بها من الحديقة التي اتخذناها مستقرًّا ومقامًا لأعضاء رحلتنا. كانت أشعة الصيف قد فرضت حضورها القاسي مبكرًا في هذا الوقت من شهر أبريل.. بعد أن وصلنا إلى القناطر تناول كل الذين شاركوا في الرحلة الإفطار معًا في مناخ مرح وحيوي، ثم انطلق الشباب في لعب كرة القدم، بينما استمتعت الفتيات بنعمة التجوال في هدوء بين هذه الحدائق الشاسعة، أو الجلوس في أحضان ظلال الأشجار.. قلة فقط من المرتبطين عاطفيًّا انسلوا بعيدًا عن أعيننا.

لم أكن أحب كرة القدم على الإطلاق؛ لأنها تستحوذ على اهتمام الملايين، على الرغم من أنها لعبة تافهة، فلما انصرف الطلاب لمطاردتها بين الأشجار، لم أجد ما أفعله، فندمتُ لأنني لم أصطحب معي اللاب توب؛ لأتسلى بمشاهدة الطيور والحيوانات والاطلاع على طرائفها كعادتي. وقفتُ في مكاني حائرًا أتابع زملائي، وهم يفتشون عن مساحة واسعة ومستوية تستوعب نشاطهم الكروي حتى اختفوا.. اقترح عليّ أحد الزملاء مشاركتهم في اللعب، لكنني اعتذرت. جلست تحت الشجرة اتقاء للشمس، التي راحت تمد أذرعها

الحارقة نحو وجوهنا بقسوة غير منطقية.. لمحت ثلاثة حمامات، تهبط على الأرض بجواري لتلتقط الحبوب بمناقير رقيقة ودقيقة، فابتهجت بها. كان ضوء الشمس يتسلل بين أغصان الشجر؛ لينعكس على ريشها البني في مشهد أخّاذ. رنّت في أذني موسيقى العصافير، وهي تعزف سيمفونية صاخبة وممتعة فوق الشجرة التي أستظل بها. نظرت إلى أعلى لأتبين ملامحها، فلم أستطع أن أحدد موقعها بين غابة الأغصان والأيك المتشابكة.

فجأة رأيت نهلة إسماعيل قادمة في اتجاهي.. كانت كمن تبحث عن أحد.. هممت بالوقوف، لكنني تراجعت خجلًا. وبالفعل سألتني، وهي تبطئ من سيرها، عن مادلين صموئيل، أعز صديقاتها، فتلعثمت ونسيت أين ومتى رأيتها بالضبط، على الرغم من أنني لاحظت أن مادلين كانت تتجه نحو نهر النيل قبل دقائق بصحبة فتاة لا أعرفها.. واصلت نهلة سيرها، عندما أومأت بكتفي معتذرًا؛ لأنني لا أعرف أين هي!

لم أتحرك من مكاني، حيث ظللت أرصد تحركات نهلة إسماعيل الحائرة، وسط دغل من الأشجار الضخمة، حتى اختارت إحداها لترتاح في ظلها.. كانت هذه آخر مرة أراها فيها واقفة على الأرض بكامل جسدها الممشوق قبل أن تطير! المكان الذي انتقته لتجلس فيه جلستها الأخيرة يبعد عن شجرتي بنحو خمسين مترًا.. كانت ترتدي بلوزة حمراء فوق بنطال جينز أسود وتنتعل حذاءً رياضيًا أحمر رائعًا.. جلست نهلة في وضع لا أرى منه إلا نصف جسدها الأيسر، وقد مدّت ساقيها الرشيقتين أمامها باسترخاء، بعدما أسندت ظهرها إلى جذع شجرة مورقة لا أعرف نوعها.

هنا بالضبط فكرت جديًا في أن أتوجه نحوها، وأصبّ في أذنيها مياه غرامي، منذ لفحني عبير أنوثتها لأول مرة، في نهار خريفي من شهر نوفمبر..

كان ذلك في العام الماضي بعد التحاقي بالمعهد بشهرين تقريبًا. بعد وقت غير قليل من تقصي المعلومات عنها، علمت أنها مرتبطة عاطفيًّا بطالب تخرّج في العام الفائت، وقد كان من سوء طالعي أن أراهما أكثر من مرة فرحين بألوان الألفة التي تتألق في عينيها. لم أكترث ولم أهتم، وقررت أن مآل هذه الفتاة لي بعد ما تيقنت أنها مسلمة، حيث ظللت فترة أعتقد أنها من أتباع السيد المسيح، خاصة أن لها صديقة قبطية حميمة، يقال لها مادلين صموئيل. كنت أشعر أن محبوبها هذا شخص عابث وغير جاد، عندما رأيته، أكثر من مرة، يتسكع في أروقة المعهد مع طالبات أخريات.

عقدتُ العزم على أن أنهض من تحت شجرتي، لأتوجه نحو شجرة نهلة، وأبوح لها بما أحمله من خير في قلبي.. فجأة التفتت نهلة نحوي فملأ التوتر معدتي، فملتُ بوجهي يسارًا هربًا من سطوة عينيها، ورحت أعاين الحمام الجائع. ثم بهدوء شديد، بدأت أحرك بؤبؤي عينيّ في اتجاهها، فوجدتها قد أعادت وجهها إلى وضعه الأول، بينما تركت عينيها تنظر إلى لا شيء فيما يبدو.. وددتُ لو كان معي كاميرا؛ لألتقط لها صورة من هذه الزاوية الأنثوية الرقيقة.

صرخ في أذني أحد زملائنا سائلًا: هل أعرف أين توجد الحمّامات؟ لعنته في سريرتي وتساءلت من أين ظهر هذا البائس؟ أجبته بحركة من رأسي تفيد جهلي بما يريد.. كان يتصبب عرقًا وآثار المعركة الكروية تلوث بنطاله الجينز بالطين. تركني وهو يركض في اتجاه نهلة إسماعيل، لكن قبل أن يصل إليها بعشرة أمتار انحرف فجأة نحو اليسار، حتى تلاشى ما بين الأشجار وظلالها.

(لا بد من الإفصاح يا نهلة.. وليكن ما يكون).. هكذا قلت لنفسي، وأنا أتابع سكونها الغريب على بعد خمسين مترًا.. لاحظت أن عدد الحمام قد ارتفع إلى سبعة، لا أعرف متى وكيف! انهمكت جميعها في التقاط الحبوب بجواري. ثعالب الحيرة تعبث في صدري.. ماذا أفعل؟ فنهلة أمامي تأتنس بوحدتها، وأنا هنا أبتئس بوحدتي، فلماذا لا أغامر؟ ترى هل ستقبل تطفلي وصراحتي؟ ألا يمكن أن توبخني؛ لأنني تجاوزت حدودي، وخدشت مرمر أنوثتها، وهي المرتبطة بحبيب آخر؟ هل أخبرها حينئذ بأن معشوقها هذا شاب عابث ومخادع، يطارد الفتيات، ولا يليق بك أن تمنحيه سُكّر غرامك؟ أليس من الوارد أن تشكرني على هذه النصيحة؛ لأنها ستنقذها من ورطة كبرى، لو كانت قد اقترنت رسميًا بشاب، لا يتردد في مغازلة البنات في المكان نفسه، الذي تتلقى محبوبته العلم في قاعاته؟ ألا يمكن أن تستجيب لهمساتي وتستريح لشخصي؟

ماذا أفعل؟ إنها مغامرة لا ريب.. فلأتوكل على الله وليكن ما يكون.. هممتُ بالنهوض من تحت الشجرة، ولكنني تسمّرتُ في مكاني من هول ما رأيت. ما هذا.. ماذا يحدث؟ إنها كارثة.. مصيبة.. نهلة تنهض.. تقف.. ترتفع.. تعلو.. تتحول.. تتغير.. تمد ذراعيها.. لا.. أجنحتها.. ساقيها.. لا.. ذيلها.. نهلة تطفو فوق هامات الأشجار البعيدة.. نهلة تخترق الفضاء، وترفرف بفرح.. نهلة فوق رأسي الآن، ولكن على بعد مائتي متر تقريبًا.. نهلة تطلق هديلًا رقيقًا وناعمًا أسمعه بسرور عبر الفضاء.. ياه.. يا إلهي.. نهلة صارت حمامة!

* * *

5 | في الجريـــدة

- لماذا تأخرت؟

هكذا سألني عماد عزوز فور دخولي حجرة التنفيذ والإخراج. لم يكن أحد في الغرفة غيره. كان منهمكًا في التدخين كعادته، وأمامه بقايا طعام الإفطار الذي يتناوله مرتين في اليوم الواحد، وهو عبارة عن طبق فول وطعمية وباذنجان وطرشي، مبررًا هذا الإفراط في تناول الطعام بأنه في حاجة إلى طاقة كبيرة أول النهار؛ ليتمكن من مواصلة العمل في هذه المؤسسة الصحفية الموبوءة.

لم يكن عماد يتجرأ على هذا الوصف لمؤسستنا إلا أمامي فقط، ولما هلّت علينا نشوى فوزي بفراشاتها الساحرة توقف عن إطلاق هذا الوصف تمامًا، حيث أصبح كل هم صديقي المسكين هو اكتساب ودّها قبل أن تحترق أعصابها، فتسبّهم أمام تريانون! لقد التحقتُ بالعمل في هذه الجريدة قبل أربع سنوات، وفور تخرجي في المعهد، أما عماد فقد سبقني إليها بعامين.. بعد أن توطدت أواصر الصداقة بيننا إثر سفر زميلنا الثالث عمر عبد الفتاح للعمل بدبي، أصبحت لا أتحرج من أن أنصحه بضرورة ضبط علاقته بالطعام؛ لأن بدانته لا تليق بشاب لم يكمل الثلاثين بعد. لكنه كان يستقبل نصائحي بأسئلة لا أجد إجابة عنها مثل: (أنا أحب الطعام جدًّا.. فماذا أفعل؟)، أو (أنا أعشق الفول والطعمية، فكيف لا ألتهم منها طبقين كاملين

مع مطلع شمس كل نهار؟).. أو يردد: (لا أستطيع مقاومة إغراء المكرونة والمحشي والطواجن، التي تعدّها والدتي بمهارة، فكيف تطلب مني أن أنتبه إلى وزني المتزايد؟).

كنت أنظر إليه بإشفاق وأسكت، وأحيانًا تغريني سطوة المقارنة بين بدانته الكوميدية كفيل شَره ونحافتي المأساوية التي تلفت الأنظار أو تكاد؛ فأنا لست من أصحاب الشهية المفتوحة. طعامي قليل على الدوام، ولا أشعر أغلب الوقت أن أنياب الجوع تعضّني، ولا أعرف عدد المرات التي سببتُ فيها إزعاجًا شديدًا لوالدتي؛ لعدم إقبالي على الطعام بطريقة، ترضي قناعتها كأم مشغولة دومًا بصحة ابنها الصغير.

- أبدًا.. ظللتُ ساهرًا حتى الرابعة فجرًا.

بهذه العبارة بررتُ لعماد سبب تأخري عن العمل هذا الصباح، فانطلق يهوّن عليّ مصيبة موت والدي قبل أسبوعين، اعتقادًا منه أن الحزن على رحيل أبي وراء هذا السهر، مؤكدًا أن الزمن خير علاج لجراح القدر، وأنني يجب أن أحترس حتى لا تتدهور صحتي؛ فالحزن على الراحلين ينبغي ألا يضر أجسادنا.. ثم قال لي بأداء لا يخلو من حكمة، قد تتواءم مع وزنه المذهل:

- أنت صرت ضعيفًا في الآونة الأخيرة بأكثر مما يجب.. انتبه إلى صحتك يا معتز!

أول مرة رأيت فيها عماد أزعجتني طريقته في الكلام؛ لأنني لا أستطيع أن أفسر ما يقول، فحروفه تندفع بسرعة مدهشة على لسانه، الأمر الذي يجعل كثيرًا منها يسقط في الهواء قبل أن تصل إلى المستمع، فضلًا عن أن إيقاع تنفسه يزداد مع انطلاقه في الحديث، لدرجة يبدو فيها أنك قادر على رؤية قلبه وهو

يخفق بشدة؛ خاصة إذا كان الموضوع الذي يتناوله يثير حماسه، وهو ما حدث بالفعل حين أمسك يدي بقوة شديدة ليمنعني من الهروب، ونحن نقف أمام فيللا الدكتور باهر الليثي.. كنت أشفق عليه كثيرًا آنذاك، وأحاول أن أوقفه بأية وسيلة حتى يسترد أنفاسه اللاهثة، ولكن مع الوقت تعوّدت طريقته هذه في التعبير عن نفسه، وتلاشى خوفي على صحته وتنفسه المضطرب رويدًا.. رويدًا مع مرور الأيام.

الخلاف الوحيد والجوهري بيننا هو هوسه اللا معقول بكرة القدم، ونفوري الشديد منها، ولما فشلت كل محاولاته في جرجرتي لمشاركته الافتتان بالكرة، توقف عن هذه المحاولات يائسًا محزونًا.

- أنا بخير يا عماد.. لا تقلق.

قلت له ذلك، وأنا أتصفح العدد الذي صدر اليوم من جريدتنا.. كنت أشعر أنه مثل العدد الذي أصدرناه الأسبوع الماضي والأسبوع قبل الماضي. لم أجد فيه شيئًا مثيرًا أو مختلفًا، على الرغم من أن رئيس تحريرنا كريم المرشدي ما طفق يذكرنا كل اجتماع بأننا جريدة معارضة، وأننا يجب أن نهتم بقضايا الناس البسطاء، وأننا نقف بالمرصاد ضد كل فاسد ومعطوب في حياتنا.. يقول ذلك بحماس لا حدود له، ثم نفاجأ بمقاله الافتتاحي في كل مرة يكيل فيها المديح للسيد الرئيس، وللسيد رئيس الوزراء والوزراء. وفي نهاية المقال البائس نقرأ عتابًا رقيقًا لوكيل وزارة، أو لمدير عام، أو لرئيس مجلس محلي! باختصار.. لا معارضة هناك.. ولا يحزنون!

لم يكن عماد عزوز ولا أنا نحب رئيس التحرير؛ إذ كنا نشعر بقرف شديد منه بعد كل اجتماع، وبعد كل مقال. وكنا نغبط زملاءنا من المخرجين الصحفيين الذين اقتنصوا فرصة للعمل بدبي أو قطر أو السعودية. وكان

عماد تحديدًا يترقب فرصة كهذه بفارغ الصبر، فقد مسّه الضجر من جريدتنا وشوارعنا ورؤسائنا كما يقول. كان المسكين يقطع ساعتين يوميًّا؛ حتى يصل إلى مقر جريدتنا في شارع الجمهورية، حيث يسكن مع أسرته في (أبو الغيط). وهي قرية تتبع محافظة القليوبية، قابعة بين مدينتي قليوب وشبرا الخيمة، وتقع على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريبًا من المدينة الأخيرة.

المرة الوحيدة التي قمتُ فيها بزيارته، أقسمت أنني لن أفعلها مرة أخرى مهما تكن الأسباب؛ فقد تنقلت بين كل المواصلات المتاحة: الأوتوبيس والمترو والميكروباص والتُّك تُك، حتى بلغت في نهاية هذه الرحلة الشاقة منزله الكائن وسط غابة من الأسمنت تحيط بها حقول خضراء شاسعة.

المزاج المرح لعماد لم يكن يحول دون أن تغشاه نوبات حزن، أو لحظات اكتئاب أحيانًا؛ نظرًا للأوضاع المعيشية البائسة، التي تحرمه من تحقيق رغبته في الاستقلال والزواج وتأسيس بيته الخاص.. لكن إيمانه الشديد وطيبته الزائدة تعيدانه سريعًا إلى أرض المرح؛ فتختفي تقطيبة الوجه وتتسع عيناه السوداوان، فترسم مع حاجبيه الكثيفين ملامح شاب مقبل على الحياة بحماس؛ خاصة حين تبرق أسنانه البيضاء، وهو يضحك فاتحًا فمه على أقصى اتساع ممكن، وكأنه يرغب في ازدراد الضحكات التي يطلقها.

- هل تعلم يا معتز أنني نذرت نذرًا: أن أذبح عجلًا وألتهم نصفه بمفردي يوم زفافي؟

يقول لي ذلك وهو غارق في بحر الضحك، وإن كانت ألوان الحسرة تعتري ملامح وجهه؛ لأنه غير قادر على تحقيق أحلامه المتواضعة هذه، ثم ينظر إليّ متسائلًا بحزن:

- هل يمكن أن يأتي يوم وأتزوج يا معتز؟

- طبعًا يا صديقي.. ما المشكلة؟

يدور عماد حول نفسه، وهو يتأمل جسده المهول، قبل أن يغمغم:

- لا أظن أنني سأجد فتاة تقبل الزواج بشاب مثلي، يزن ١٥٠ كيلو جرامًا.

وقبل أن أحاول التخفيف عنه، يكمل أحزانه بهذه العبارة الموجعة:

- حتى لو وجدتها، فمن أين لي بتكاليف الزواج أيها الصديق؟

مرات كثيرة، وجدتني أفكر فيها في عماد عزوز ومشكلاته الجسمانية والمالية، وأنا جالس منفردًا أمام اللاب توب في غرفتي أو في تريانون، دون أن أجد لها حلًّا؛ لدرجة أنني رجوتُ عمر عبد الفتاح وهو يغادر القاهرة إلى دبي أن يجتهد في توفير فرصة عمل هناك لعماد. كانت ألوان النقمة المعتمة تسطو على وجه عمر باستمرار، وكان كثير الشكوى بسبب أوضاعه المالية البائسة، فأبوه يعمل كمساري في هيئة النقل العام، وله من الأشقاء خمسة، مكوَّمون جميعهم في شقة من غرفتين في الشرابية. عبوسه الدائم، على الرغم من مهاراته في الإخراج الصحفي، لم يكن يمنعه من الاقتراض مني، أو من عماد مبالغ بسيطة ليسدّ بها رمقه، قبل أن يعود إلينا من دبي متسربلًا بمباهج النعمة والحبور.

- وأنت.. ألا تريد السفر؟

أذكر يومها أنني أخبرت عمر بأنني لا أستطيع أن أترك والديّ ولا أريد.. وكل ما أطلبه هو أن يسعى جاهدًا؛ لمساعدة عماد عزوز في الحصول على وظيفة بدبي.

- أرأيت ما كتبه اليوم الباشا كريم المرشدي؟ ألا يستحي هذا الرجل؟

سألني عماد بغيظ وهو يقوم بتنظيف مكتبه من بقايا إفطاره، بينما يشير بيده إلى مقال رئيس التحرير في الصفحة الأولى.. لم أكن أنا من قام بتوضيب هذه الصفحة وإخراجها، حيث تولى عماد القيام بإخراج هذا العدد كله من الجريدة تقريبًا، بسبب غيابي معظم الوقت؛ نظرًا لحالة الحداد التي أعيشها.

(نحتاج إلى حكمتك يا سيادة الرئيس) هذا هو عنوان المقال الذي أغاظ عماد عزوز، فقرأتُ السطور الأولى منه، ثم تركته جانبًا باستخفاف واستياء، موجهًا كلامي لعماد:

- لا تزعج نفسك كثيرًا.. هكذا هو دومًا.. منافق كبير كالعادة.

شعرتُ أنني قلت هذه العبارة بفتور؛ ذلك أن عماد نظر إليّ برهة بتعجب، قبل أن يستأذن في الذهاب إلى الحمّام ليغسل يديه.. لم أكن متحمسًا كثيرًا لمناقشة تاريخ رئيس التحرير مع النفاق، حيث اكتشفنا قدرته الخارقة على مداهنة أولي الأمر وتملقهم بعد أسبوع واحد فقط عقب توليه منصبه، فور أن أقدم قادة الحزب على إقالة رئيس تحريرنا السابق الأستاذ عبد الخالق حمادة؛ بسبب جرأته وشجاعته اللتين تجلتا بصورة مدهشة، فيما بعد، فوق كوبري قصر النيل. وقد برّر هؤلاء القادة سبب إزاحته بأنه (كاتب سليط اللسان)، وأنه سيتسبب في إغلاق الجريدة بتهوره.

حزننا على إبعاد الأستاذ عبد الخالق حمادة قبل عامين كان كبيرًا بصورة لافتة أول الأمر، ثم بدأ هذا الحزن في التلاشي تدريجيًا، في الوقت الذي تفاقم فيه قرفنا من كريم المرشدي. صحيح أنه رفع رواتبنا جميعًا بنسبة لا بأس بها، إلا أن ذلك كان نتيجة منطقية لزيادة حجم الإعلانات التي انهمرت علينا بعد تغيير سياسة التحرير؛ حيث كان معروفًا أن جريدة (البلاغ) الناطقة

بلسان حزب الحق هي أجرأ الصحف المعارضة، وأكثرها مصداقية، في عهد الأستاذ عبد الخالق حمادة الذي كان يستمد قوته من أفكاره الثورية، ومن الدعم المباشر لمؤسس الحزب وأبيه الروحي المرحوم عامر الشندويلي، أحد الذين أسهموا بنصيب وافر في دعم تنظيم الضباط الأحرار؛ الأمر الذي جعل الحكومة تهدد المعلنين إذا أقدموا على نشر إعلانات في جريدتنا المشاغبة. فلما مات الأستاذ عامر، انقلب قادة الحزب الجدد على خطه السياسي الشريف والشجاع، وقاموا بإبعاد رئيس التحرير؛ لتصبح جريدة (البلاغ) ملكية أكثر من الملك. وهكذا رأينا رئيس التحرير الجديد كريم المرشدي يعزف، كل أسبوع، سيمفونية غرام في حكمة السيد الرئيس، وقدراته الخارقة على قيادة بلدنا في هذه السن الطاعنة.

عندما عاد عماد عزوز من الحمّام رآني شاردًا، فظن خطأ أني مازلت أسيرًا للحزن، فهرع على الفور إلى تجهيز بعض مواد العدد الجديد، وناولها لي لأتولى القيام بإخراجها، معتقدًا أن ذلك سيخرجني من أحزاني، ولكنه فوجئ بسؤالي:

– متى تحين ذكرى رحيل الأستاذ عامر الشندويلي؟

خيوط العجب كلها تكدست في وجهه، لدرجة أنه ظل ممسكًا بالمواد الصحفية في يده حائرًا لا يعرف أين يضعها، ثم سألني، وهو يلقي بجسد الفيل على مقعده:

– لماذا؟

قبل أن أجيب، فتح ملك الجواسيس في الجريدة باب الغرفة دون استئذان كعادته.. لم يكن سوى حسنين الفكهاني عامل البوفيه، الذي تحتل عيناه

الجاحظتان، تلك التي تشبه عيني ضفدع مضطرب، نصف وجهه المشفوط. وقد قام كريم المرشدي بتعيينه عندنا، بعد يوم واحد فقط من استلامه مهام رئيس التحرير.. لم يعرف أحد أبدًا أين كان يعمل هذا الضفدع من قبل؟ وقد انتشرت شائعات قوية بين جدران الجريدة، تؤكد أن هناك علاقة قرابة بين رئيس التحرير وعامل البوفيه.. ربما يكون حسنين الفكهاني أكثر رجل كرهته في حياتي، بسبب وقاحته وخبثه؛ فهو ينقل أخبار كل العاملين في المؤسسة إلى كريم المرشدي بانتظام. صحيح أن هناك عددًا غير قليل من زملائنا الصحفيين والإداريين، الذين يوسوسون لرئيس التحرير تقربًا وزلفى، إلا أن حسنين الفكهاني صاحب أسوأ سمعة في هؤلاء الجواسيس والمنافقين، كما أنني لا أذكر عدد المرات التي منعت فيه عمر عبد الفتاح، قبل أن يغادرنا إلى دبي، من أن يعتدي عليه بالضرب.

ووبّخه عماد عزوز بقرف دون أن ينظر إليه؛ لأنه لم يطرق الباب قبل أن يدخل.. لم تتحرك شعرة في جسد حسنين الفكهاني جرّاء هذا التوبيخ؛ لأنه من أصحاب الجلد الغليظ، كما وصفه بحق أدهم الشاذلي، عندما قصصت عليه بعضًا من سلوكيات هذا الرجل الضفدع.

- الأستاذ كريم يريد استقبالكما فورًا بمكتبه.

لا أنا ولا عماد قمنا بالرد عليه، فوقف في منتصف الغرفة، حائرًا لا يدري ماذا يفعل، سوى أن يتسول بعينيه المرعبتين ردًّا من أي واحد فينا؛ فلما طال انتظاره وهمّ بالاستفسار عن سبب سكوتنا، كنا على وشك الخروج من الغرفة في اتجاه مكتب رئيس التحرير، دون أن ننظر إليه!

استقبلنا رئيس التحرير من غير أن يصافحنا، وشرع على الفور يطلب منا التفكير جديًّا في تصميم ماكيت جديد، يناسب الطفرة التحريرية التي

ينوي إحداثها في الجريدة.. لم أكن متحمسًا للإنصات إليه بكامل حواسي؛ فبدأت أتأمله كمنافق محترف، ذلك أن هذه ثاني أو ثالث مرة نتواجد معه في غرفته منفردين.. كان يجلس في حجرة واسعة ذات أثاث غال، لكنه يفتقد إلى الذوق؛ فألوان خشب المكتب وتصميمه الكلاسيكي لا تتناسب مع الألوان الساخنة للصالون ذي التصميم الحديث.. كذلك كانت السجادة الفخمة التي مُدت على الأرض توحي بأنها مستاءة من وضعها في هذا المكان، أما على الجدار فقد علقت لوحة متوسطة الحجم بإطار ذهبي مبتذل، كتب داخلها: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).

- اتفقنا.. معكما ثلاثة أسابيع من الآن.. أريد إبداعًا مختلفًا.. هيّا.. دعونا نصافح الشباب.

أفقت من تأمل اللوحة المكتوبة بخط الثلث على هذه العبارة، التي قالها رئيس التحرير بصوت جهوري، وهو يستعد للقيام.. وجهه الأسمر لا يوحي بأية ثقة، وعيناه لهما نظرة ثعلب متربص بفريسة غافلة، أما شعره الخشن فلا تعود درجة سواده الفاحم إلى كرم الطبيعة ورأفتها به، بل إلى الصبغة، حيث بدأت تظهر شعيرات بيضاء في قفاه.

عندما وقف، ودار حول مكتبه ليصافحنا، انتبهت إلى أنه أقصر مما كنت أظن، وأن كرشه المكور أمامه أكبر مما كنت أعتقد. فجأة هتف قائلًا:

- غدًا ستنضم إليكما فتاة جديدة قمت بتعيينها اليوم.. ساعداها من فضلكما.

المرة الأولى التي أرى فيها النار تندلع من اليد اليمنى لرئيس التحرير، كانت في نهاية هذا اللقاء المفاجئ، عندما مدّها لمصافحة عماد عزوز، الذي

لم ينتبه للحريق الذي اشتعل في كف كريم المرشدي، فاقترب منه غير مبال بالمصيبة التي تنتظره. هممتُ أن أصرخ في أذنه: لا يا عماد.. لا تصافحه، لكني تراجعت حين وضع عماد كفه كله في كف الرجل، بلا أدنى خوف من السعير المندلع في أصابعه، وانصرف شاكرًا يتأملني باستغراب!

مازال الحريق يشبّ في يد رئيس التحرير الممدودة نحوي الآن. ماذا أفعل؟ عماد لم يتألم ولم يتبرم ولم يصرخ.. ترددتُ وأعدتُ يدي إلى الخلف قليلًا بحركة لا إرادية طلبًا للأمان، متذكرًا نصيحة جدتي « مآثر » (لا تأمن لثعلب.. ولا تصافحه)، لكن كريم المرشدي اقترب مني حتى كاد كرشه الضخم يلمسني.. نظرتُ للخلف بحثًا عن عماد، فوجدته قد وصل إلى باب الغرفة. جفلتُ حين وجدت يدي قابعة في كف رئيس التحرير المشتعلة؛ إذ خطفها من جانبي، وضغط بقوة على يدي ليغمرني بناره دفعة واحدة.. كظمت ألمي وأنا أشم رائحة جلدي وهو يحترق. سحبتُ يدي بسرعة، متأملًا النيران التي تتصاعد من كف كريم المرشدي، ثم هرولتُ مسرعًا نحو الباب.. لكنني حين التفتُ خلفي؛ لأتابع مصير النار التي أضرمت فجأة في كفه، وجدتُ رئيس التحرير مازال واقفًا في مكانه يبتسم بعينيه الثعلبية، وأنفه المدبب الطويل، بينما النيران تندلع في كف يده اليمنى وتتأجج!

* * *

6| في غرفة الإخراج

نشوى فوزي، الفتاة التي قام رئيس التحرير بتعيينها قبل يومين، أنستني الحريق الذي شوّه كف يدي اليمنى، عندما اضطرني كريم المرشدي إلى مصافحته. قالت لي بجرأة لا حدود لها، بينما الفراشات البرتقالية تتأملها بإعجاب، وأنا أحضّها على الصلاة مع زميلاتنا بمصلّى السيدات، حين استعجلني عماد لنلحق بزملائنا لأداء صلاة الظهر، قالت لي:

– أنا ملحدة!

لم أستوعب عبارتها أول الأمر؛ إذ كنت مشغولًا بالفراشات، فندّت عني غمغمة تشي بعدم السمع أو الاستيعاب، فكررت العبارة بثقة وهدوء:

– نعم.. أنا ملحدة!

الصدمة الإيمانية التي تلقيتها في تلك اللحظة، ليست لأنني أول مرة أواجه فيها إنسانًا ملحدًا، بل لأن هذه أول فتاة أتعامل معها لا تخشى الله، وتعلن ذلك بصراحة. أعرف جيدًا أن أدهم الشاذلي ملحد بالفطرة، أو كما يقول هو عن نفسه بانتظام (أنا شكّاك بطبعي)؛ فكان يشكّ في وجود الله، وفي إمكانية حدوث يوم القيامة، وما يتبع ذلك من حساب ومساءلة، وثواب وعقاب وجنة ونار إلى آخر مقدساتنا الدينية.. لكن أن تعلن فتاة بكل هذه الجرأة أن الله بالنسبة لها مجرد وهم اخترعته البشرية في طفولتها الأولى؛ كي تفسر من

خلاله المظاهر التي تعجز عن تفسيرها.. هذا ما لم أره مطلقًا، أو حتى أسمع به قبل ذلك أبدًا.

لكن الغريب أن نشوى فوزي تتمتع برقة لا نهائية، تخاصم تمامًا نفورها من فكرة الإيمان بالله التي لا تعتنقها.. هذه الرقة التي تجعل ثلاث فراشات برتقالية اللون ترافقها أينما حلّت، تحوم حولها وترفرف بأجنحتها أمام جبينها الوضّاء، حتى وهي محشورة بين الملايين، ولم تتوقف هذه الفراشات عن ممارسة طقوس الرقص الفاتن بأجنحتها إلا مرة واحدة فقط، حين استكانت على الوسادة بجوار رأس أدهم ودموعنا تنساب بغير حساب. وهكذا ما إن تفتح نشوى باب غرفة التنفيذ والإخراج حتى تسبقها فراشاتها الثلاثة ببهجة وفرح، وتظل ترقب نشوى باهتمام بالغ، فإذا غادرت المكان لقضاء أمر ما أو للانصراف من العمل، أطلقت هذه الفراشات أجنحتها الرائعة لتستبق نشوى وتتبعها حيثما ذهبت، وفي أي وقت من الليل أو النهار.

لم أجد تفسيرًا لهذا الموكب البديع الذي تنظمه الفراشات يوميًّا تكريمًا لنشوى فوزي وإيمانًا بأنوثتها. خطر لي أن يكون الله قد وهبها نعمة تعلم لغة الفراشات والتحدث معها، نظرًا لرقتها الشديدة؛ وفقًا لما كانت تقوله جدتي مأثر: (إن الله وهب البنات الجميلات فقط نعمة الحديث مع الفراشات). لكن هذا الخاطر لم يقنعني بما يكفي؛ لأن نشوى فوزي لا تؤمن بالله ولا بنعمه. كما أنني لم ألحظ أية إشارة توضح أنها تقيم علاقات لغوية مع فراشاتها، فلم أرها مثلًا تتحاور معها أو تناجيها، والأدهى أنني أشعر دائمًا أن نشوى فوزي تتعمد تجاهل الفراشات، فلا تلتفت إليها أو تنتبه لوجودها الحيوي والممتع.. حتى في عز الاحتشاد الجماهيري بالقرب من الميدان، عندما ارتعبت الفراشات ورفرفت بعصبية، لم تنشغل نشوى بتهدئة

صديقاتها والتخفيف من آلامها النفسية.. حاولت أن ألفت نظر عماد عزوز إلى أن الفراشات الملوّنة تتدله في حب زميلتنا الجديدة، ولكنني تراجعت عندما وجدته يسقط تدريجيًا في بحر غرامها، حيث لم يذكر لي ولو لمرة واحدة أي شيء عن اللوحات الملونة، التي ترفرف في فضاء غرفتنا كلما حضرت نشوى، على الرغم من أنه لا يتوقف عن الحديث معي عن تلك التي خطفت قلبه، كما يقول، ممتدحًا رقتها وجمالها النادرين.

لم يستطع عماد عزوز أن يمنع فؤاده من الخفقان فور أن هلّت علينا نشوى فوزي، لأول مرة، مصحوبة بغمامة ناعمة من فراشاتها الملونة؛ إذ أسرّ لي عن هيامه بها، بعد ثلاثة أيام فقط من التحاقها بالعمل معنا في القسم!

- معتز.. هل تعتقد أن نشوى يمكن أن تقبل بي زوجًا؟

المفاجأة لم تكن في نسيم العاطفة الجياشة الذي لفح قلب عماد بهذه السرعة، وجعله يهيم بنشوى، فضلًا عن حلمه بالزواج بها، وإنما تمثلت في أنني شعرت بأن النار تندلع في جوفي غيرة وغضبًا من عماد؛ إذ وجدتني أنا أيضًا مفتونًا بنشوى ورقتها وفراشاتها، لدرجة أنستني معها حكاية نهلة إسماعيل وطيرانها في سماء القناطر.

- تمهل قليلًا يا عماد، فنحن لا نعرف هذه الفتاة بعد؟

لا أدري هل قلت له ذلك كي يصرف نظرًا عنها باعتباره غريبًا محتملًا؟ أم أنني كنت أحاول أن أقنع فؤادي بأن يتريث قليلًا، قبل أن يذوب في هوى فتاة لم تمكث معنا إلا أيامًا معدودات.. لكن المؤكد أن نشوى فوزي تصب شهد أنوثتها في قلبي كل نهار دون أن تعلم ، منذ أن أشارت فور دخولها غرفتنا لأول مرة، إلى الجدران سائلة بإعجاب:

- مَنْ صاحب هذه الصور الجميلة؟

لم يكن أحد في الغرفة سواي، فالوقت كان التاسعة صباحًا، وعماد عزوز لا يأتي قبل التاسعة والنصف نظرًا لمشواره البعيد.. تلفّتُ حولي، حيث لا أحد قبل أن أهتف:

- أنا..

قلتها بفخر، لأنني رأيت شعاع الانبهار يتلألأ في عينيها.. كنتُ قد علقت على جدار غرفتنا أكثر من ثلاثين صورة فوتوغرافية ملونة، لحيوانات وطيور بزوايا وأوضاع مختلفة. وهكذا بامتداد أربع سنوات رصّعتُ الحائط بأسود ونمور ودببة وتماسيح وطواويس ونعام وخيول وقرود وقطط وحمام وبلابل وعصافير، علاوة على صورة ضخمة لهدهد ذي تاج جميل؛ لأنه أحب الكائنات إلى قلبي؛ ذلك أن جدتي « مآثر » كانت تردد: (محظوظ من يرى الهدهد كل صباح).. الضبع هو الحيوان الوحيد الذي لم أعلقه على جدران غرفتنا، لأنني لا أطيق ملامحه. أول الأمر تعجّب كل من عماد عزوز وعمر عبد الفتاح من إصراري على تزيين الغرفة بصور الحيوانات والطيور، ولكنهما تعوّداها فيما بعد؛ حيث أصبحت هذه الكائنات جزءًا من ديكور المكان، الذي يألفنا ونأتنس به.

هذا الافتتان بالحيوانات والطيور وأشكالها المتباينة.. نقلته من غرفتي بالمنزل إلى حجرة العمل في الجريدة؛ حيث أجد متعة لا حدود لها، وأنا أتأمل أشكالها وألوانها ونظراتها، التي تتراوح بين القسوة والرقة والدهاء والسذاجة واللامبالاة.

- أشعر أن هذا الدب متعالٍ.. أليس كذلك؟

بهذا الرأي اقتحمت نشوى فوزي فؤادي دفعة واحدة، وإلى الأبد، قبل أن تحلّق بعيدًا. كانت تتفحص بجدية صورة دب قطبي يقف، على قدميه

الخلفيتين، متأملًا المساحات الشاسعة من بساط الجليد الممتد إلى ما لا نهاية.. تقترب منها وتبتعد، وهي تهز رأسها إعجابًا، وكنت مشدودًا لهذا الاهتمام، فحاولتُ مجاراتها، فهمست، وأنا أشير إلى صورة في الجانب المقابل فوق كومبيوتر عماد:

- هل لاحظت أن هذا الطاووس متغطرس؟

نظرتْ إليّ بابتسامة مشرقة، وهي تحرك رأسها بإشارة تدل على الموافقة، ثم همستْ بصوت خفيض، قبل أن تجلس على المقعد الثالث في الغرفة:

- حقًّا.. فكرة رائعة.

ثم نهضت مرة أخرى بسرعة وتوجهت نحو الصورة الضخمة للهدهد.. وقفت تتأمله كثيرًا، قبل أن تسألني:

- لماذا اخترت الهدهد من بين جميع الحيوانات والطيور لتضعه في أكبر صورة؟

أجبت بسرعة متهللًا:

- لأنني أحب ملامحه جدًّا، خاصة تاجه المدهش.

رمقتني نشوى فوزي بنظرة خطفت بها قلبي إلى الأبد، وهي تتمتم:

- وأنا أيضًا مفتونة بالهدهد، خاصة رقته الشديدة.

قبل أن تعود إلى مقعدها، ألقت نظرة متفحصة على صورة الهدهد مرة أخرى، وكادت أن تقول شيئًا، إلا أن باب الغرفة فتح فجأة، فملأ فراغه عماد عزوز بحجمه المهول.. كان يلهث كالعادة، وكأنه قطع المسافة من بيته إلى هنا جريًا على الأقدام.. صافحته نشوى بحرارة؛ إذ كانت هذه أول مرة

تراه. أمطار الهوس بالفتاة هطلت كلها دفعة واحدة في عيني عماد عزوز، فلم ينطق بحرف؛ حيث هوى بجسده على مكتبه، وهو يرنو إليها ساكنًا.

أدارت نشوى بصرها بين عماد وبيني، ثم عادت لتقف أمام صورة الهدهد فترة، قبل أن تمرر عينيها بسرعة على بقية الصور، فانتبهت إلى بيت الشعر الذي وضعته تحت صورة أسد متجبر. قرأته بصوت عالٍ :

إذا رأيتَ نيوبَ الليثِ بارزةً فلا تظننّ أن الليثَ يبتسمُ

ثم ضحكت بلطف شديد وهي تردد:

- هذا أفضل بيت شعري يناسب هذه الغابة الورقية العجيبة.. أظن أنه للمتنبي.

منذ أن طارت نهلة إسماعيل، لترفرف فوق رأسي في القناطر، لم يخفق قلبي هكذا من أجل فتاة.. حاولت أن أدرك السر في افتتاني بنشوى فوزي، فلم أفلح؛ ذلك أن ملامحها الرقيقة والدقيقة لا تقل جمالًا عن لفتاتها وإيماءاتها الساحرة. كما أنه من الصعب أن ينفلت أحد من أسر روحها المتدفقة وحيويتها الطاغية.. أما أناقتها، فهي تتجلى في كل ما ترتدي من ملابس، حتى لو كانت ثيابًا سوداء، مثلما حدث حين رأيتها في مستشفى السلام الدولي، حيث تبدو دومًا فتاة عصرية محتشمة في ملابسها وطريقة مشيتها، على الرغم من أنها لا ترتدي حجابًا، ولا تخجل من أن يظهر جزء من ساقيها عاريًا.. كنت أشعر أنها قادمة من عصر آخر، وزمن مغاير غير الزمن الذي نعيش فيه، زمن لم يتوقف والدي الأسد عن تذكره بكل حفاوة وتحسّر.. كانت كمن هبطت علينا من سنوات خمسينيات وستينيات القرن الماضي، التي تظهر بوضوح في أفلام الأبيض والأسود، وقد لاح لي ذلك من خلال اعتدادها بنفسها وبساطتها في الحديث، والأزياء التي ترتديها، فضلًا عن أفكارها الجريئة،

التي جعلتها ضمن المجموعة الأولى من الشباب، الذين نزعوا ثياب الخوف، فصاروا مدججين بجسارة مذهلة.

في اليوم الأول الذي انضمت فيه إلينا نشوى فوزي، كانت ترتدي فستانًا أبيض بنصف كم مزدانًا بورود صغيرة حمراء، يشبه فساتين فاتن حمامة في أفلامها القديمة؛ حيث بدا الفستان ملائمًا تمامًا لبشرتها البيضاء وعينيها البنيتين الداكنتين، خاصة أنها تركت شعرها الأسود الناعم ينساب على كتفيها بحرية.. لكن في اليوم التالي، ارتدت بلوزة برتقالية، يقترب لونها كثيرًا من ألوان الفراشات التي تسير في معيتها، وبنطالًا جينزًا أزرق، وحذاءً بنيًا غالي الثمن، في حين كومت شعرها الجميل على هيئة ذيل حصان.. لاحت لي نشوى فوزي في اليوم التالي كأنها فتاة أخرى غير التي رأيناها أمس؛ حيث لم تمكث معنا أكثر من خمسين دقيقة. أما اليوم، فقد انهمرت علينا بأسئلتها حول طبيعة العمل ومواعيده، وكيفية تنظيم الإجازات بيننا.. كنا ننصت إليها، عماد وأنا، بكافة جوارحنا، وكان عماد ملهوفًا على الرد على كل أسئلتها، وكان أحيانًا يعيد ويزيد في الكلام في محاولة منه لجذب انتباهها نحوه.. لكنها كانت توزع اهتمامها بالتساوي بيننا؛ حتى أنها كانت كثيرًا ما تجيب عن أسئلة عماد، وهي تنظر نحوي.

لا أعرف لماذا بدر مني هذا السؤال، حين قلت لها فجأة:

- أين ولدتِ؟

- ولدتُ في الكويت.

بهذه الجملة سردت لنا نشوى فوزي بإيجاز تاريخ حياتها، حين سألها عماد عن المكان الذي كانت تعمل فيه قبل أن تنضم إلينا.. حكت لنا في عبارات قصيرة كيف نالت الثانوية العامة من الكويت، ثم التحقت بكلية الإعلام في

القاهرة قسم الصحافة، وأنها تخرجت في السنة الفائتة؛ إذ اعتذرت عن عدم دخول الامتحان العام قبل الماضي نظرًا لوفاة والدها.. كانت نشوى فوزي تتحدث بتلقائية محببة، وكأنها تعرفنا منذ زمن، ونحن أيضًا نعرفها منذ وقت طويل.

ولما سألها عماد عن أسرتها، أخبرتنا أن أباها كان مهندسًا معماريًّا ناجحًا ومشهورًا في دولة الكويت، التي ذهب إليها هربًا من بطش السادات، حيث كان من زعماء اليسار في الجامعة. كما أن لها شقيقين أكبر منها، وأختًا أصغر التحقت بكلية الهندسة هذا العام. وقد عادت الأسرة كلها، بعد وفاة الأب، إلى القاهرة بشكل نهائي؛ لتقيم في ڤيللا صغيرة، شيّدها والدها بمدينة نصر قبل وفاته.

- البقية في حياتك.. ولو أنها متأخرة.

هكذا قال عماد عزوز بابتسامة مكتومة، فاكتفت نشوى بحركة لا إرادية من رأسها تفيد الاستسلام لمطرقة القدر، ولكن سحابة من الحزن مرّت سريعًا على جفنيها. أما أنا فلم أجد كلامًا يقال في هذه الأجواء، التي انقلبت حزينة فجأة، فأعدتُ سؤال عماد من باب تغيير دفة الحديث:

- لكنك لم تخبرينا عن المكان، الذي كنت تعملين فيه من قبل؟

ابتسمت بأريحية، وهي تهتف بثقة:

- هذه أول مرة أعمل فيها في مؤسسة صحفية.

ثم أضافت بنظرة لا تخلو من توتر، وقالت بشفتين رقيقتين ترتعشان قليلًا:

- ألا تعرفان؟ إن كريم المرشدي خالي!

ألقى عماد بصره في أرض الغرفة، بعد أن خرجت منه صرخة انزعاج لم يستطع كتمانها، أما أنا فوجدتني أحدق في صور الحيوانات المعلقة على الجدران، حتى تسمرت عيناي على كلب منبوذ، ينظر إلينا بوقاحة!

* * *

7 | في كوستا

ظللت أراقب بفرح كبير الأسطى عبد العظيم النجار ساعتين كاملتين، وهو يعدّ الإطار الفخم الذي سيضع فيه صورة كبيرة للهدهد، قمتُ بتكبيرها مؤخرًا. معرفتي السابقة به وتعاملي الدائم معه جعلاه يترك كل ما بيده؛ لينفذ طلبي في التو، عندما أخبرته أنني أريد أن يصنع لي الآن وفورًا إطارًا أنيقًا يحتضن صورة طائري المفضل.. لم أتمكن من البقاء على المقعد الذي أحضره لي ووضعه أمام باب المحل؛ حتى ينتهي من عمله، فكنتُ أقوم كل دقيقة تقريبًا لأتابع ما يفعل. أول مرة ذهبت فيها إلى محل الأسطى عبد العظيم، كانت منذ أكثر من سبع سنوات.. كنت قد طبعتُ صورة جميلة للهدهد، وأردت أن أضعها في إطار جميل؛ لأعلقها على جدار غرفتي، بعد أن كتبت تحتها بخط صغير جدًّا لا يكاد يقرأ (إلى روح جدتي « مآثر »).. فادي نجيب هو الذي دلّني على مكانه في شارع جسر السويس، بالقرب من كوبري التجنيد.

آنذاك.. استقبلني الرجل بترحاب، وأحضر لي شايًا بالحليب من المقهى المجاور، على الرغم من أنني لم أطلب شيئًا. كان الهواء باردًا في ذاك المساء من شهر يناير، وكانت روح جدتي « مآثر » تخايلني منذ أسبوع.. لا أعرف لماذا، فتفتق ذهني عن فكرة رأيتها وجيهة، وهي تكبير صورة للهدهد ووضعها في إطار فاخر وإهدائها إلى روحها. وهكذ أسرعت إلى اللاب توب وانتقيت

أجمل صورة للهدهد، ووضعتها على الفلاش، وقمتُ بطباعتها في أستوديو بجوار سينما روكسي، ثم أعقب ذلك زيارات كثيرة إلى محل الأسطى عبد العظيم لعمل إطارات مناسبة لصور الحيوانات والطيور، التي أعلقها في غرفتي، وفي كل مرة كان يطلب لي شايًا بالحليب دون أن أطلب، فأرتشفه بفرح وأبتسم.

أما الآن، فافتتاني بنشوى فوزي، هو الذي دفعني لأن أهديها صورة للهدهد، بعد أن لاحظت أنها تتأمل بإعجاب صورته المعلقة في غرفة الإخراج والتنفيذ.. الأسطى عبد العظيم الذي لم أكن أختلف معه في السعر، الذي يطلبه لعمل أي إطار، كان يرمقني في هذا المساء بنظرات متسائلة، أثناء انهماكه في العمل، وكأنه يحثني على أن أشرح له لماذا أنا متعجل هكذا لعمل الإطار تحديدًا؟ ولماذا كانت صورة الهدهد هذه المرة أكبر من كل صور الحيوانات والطيور، التي صنع لها إطارات فيما سبق؟ كنتُ أبتسم في داخلي على هذه النظرات الملهوفة على معرفة السر، وأنا أتناول الشاي بالحليب، الذي طلبه لي فور أن رآني.. لكنني كنت أتأمل ملامحه بمودة خالصة، فالأسطى عبد العظيم له وجه قمحي ممتلئ قليلًا ومسالم، تساقط شعره بشكل سريع في غضون عدة أعوام، أما قامته فقصيرة نسبيًا. تابعت باهتمام خط العرق، الذي يسيل من جبينه مارًا بخده الأيسر؛ حتى يتلاشى في شعر صدره الأبيض والكثيف. كان منهمكًا في عمله كعادته بتفانٍ وإخلاص.. ما من مرة رأيته فيها، سواء صيفًا أو شتاءً، إلا وكان يرتدي قميصًا مفتوح الأزار، حيث تظهر فانلته الداخلية ناصعة البياض، وكأنه يتباهى بملابسه الداخلية النظيفة!

المثير أن الأسطى عبد العظيم زارني في الحلم مرتين، على فترات متباعدة، في الأولى كان يجلس هادئًا بين مجموعة من الحيوانات الأليفة، وهو عارٍ تمامًا إلا ما يستر عورته، أما المرة الثانية، فكانت وهو يحاول تثبيت ظهر سلحفاة فوق جسدها، بعد أن نزعه عنها كلب بري وانصرف.. كان يستخدم الشاكوش والمسامير الدقيقة، وكانت السلحفاة تتألم، ولكنها تتعجله أن ينجز مهمته؛ لأنها لا تستطيع مواصلة الحياة دون ظهرها المعدني كما كانت تقول له. حاول أن يبعث فيها روح الطمأنينة، وهو يردد عبارات عجيبة: (لا تقلقي يا حبيبتي.. حالًا سيستعيد ظهرك وضعه الطبيعي.. أنا أنصحك ألا تسيري في هذا الاتجاه فيما بعد يا روح قلبي؛ لأنه يضج بكلاب شرسة).

عندما ابتسم خجلًا وأنا أناوله ثمن الإطار في هذا المساء، اكتشفت لحظتها سر ارتياحي إلى الأسطى عبد العظيم؛ فابتسامة الرجل تشبه ابتسامة طاووس مختال بجماله، ولكنه غير متغطرس. أما رائحته فمثل رائحة ديك هائج مهووس بالدجاجات! لكن قبل أن أنصرف سألني بفضول لم يستطع كتمانه (لماذا العجلة هذا اليوم يا أستاذ معتز؟).. لم أجب واكتفيت بابتسامة شكر، وهرولتُ نحو المنزل، حاملًا صورة الهدهد، يملأ وجداني سرور كبير.

في تلك الليلة لم أستطع أن أقهر الأرق وأنام، فموعدي غدًا الجمعة مع نشوى فوزي.. وهكذا ما إن زمجر ميكروفون المسجد الكائن خلف منزلنا معلنًا رفع آذان الفجر، حتى انتفضتُ من سريري.. توضأتُ وأدّيتُ صلاة الفجر بروح صافية وقلب خاشع. ولقد فوجئتُ بأمي متيقظة في هذا الوقت المبكر؛ حيث كانت تجلس على الكنبة نفسها، التي صارت عرين أبي في اليوم، الذي تحول فيه إلى أسد هَرِم قبل أن يغادرنا إلى الأبد.

في الثامنة صباحًا، كنتُ أقف أمام كافيتريا كوستا المواجهة لنادي هوليوبوليس بروكسي، مرتديًا قميصًا أبيض أرتاح إلى ملمس قماشه اللّيّن تحت جاكت رمادي، وبنطالا جينزًا أزرق.. كانت هذه أول مرة سأدخل فيها هذه الكافيتريا، لكنني كذبت على نشوى فوزي حين سألتني هل تعرفها؟ فقلت بعد تردد قليل: حسنًا.. فلنلتق هناك في العاشرة صباح الجمعة المقبل كما تشاءين.. ولما استفسرت عن السبب في اختيارها هذا المكان تحديدًا، أخبرتني بروح عادية أنها تلعب التنس في نادي هوليوبوليس من الثامنة صباحًا لمدة ساعة على الأقل كل يوم جمعة، وفور انتهائها ستقابلني.

لم تكن الكافيتريا قد فتحت أبوابها لاستقبال الزبائن بعد، وكنتُ أقبض بيدي على صورة الهدهد بإطارها الأنيق، محاولًا الحفاظ عليها سليمة؛ حتى أهديها إليها ناصعة من غير سوء. وقفتُ حائرًا لبضع دقائق لا أعرف ماذا أفعل، ثم قررتُ أن أبدد الوقت الباقي على موعدي مع نشوى فوزي في التسكع في شوارع مصر الجديدة.. توجهتُ نحو شارع إبراهيم اللقاني.. تأملتُ واجهات المباني ذات الطراز المميز.. تذكرتُ كلام أدهم الشاذلي بحماسه المعهود عن مصر الجديدة وخصائصها المعمارية ذات الصبغة الأوروبية.. ابتسمتُ لإصراره أن يلقننا درسًا في كل لقاء عن مصر وتاريخها الباذخ كما يصفه بشغف (يا أصدقائي.. معرفة تاريخ مصر هي التي ستجعلنا نفهم معضلات الحاضر، ونتوقع أحداث المستقبل).. هذا ما يردده أدهم على أسماعنا باستمرار، حتى ونحن غرقى في بحر الحشيش اللذيذ.. لقد بلغ به الهوس بمصر وتاريخها وأسرارها أن يظل يفتش عن معاني مفردات، نستخدمها في حياتنا اليومية بكثافة، لكنها ليست عربية ولا نعرفها. أذكر جيدًا كيف تهلل وجهه بالبشر والفخار حين توصل إلى سر تسمية منطقة

(الكوربة) بمصر الجديدة بهذا الاسم الغريب. (وجدتها.. وجدتها.. الكوربة ليست كلمة عربية يا جماعة، بل فرنسية من courbea كوربيه.. أي الكوع أو المنحنى). هكذا صرخ أدهم الشاذلي مرة، فور أن هلّ علينا، ونحن نتسامر في كافيتريا الحرية.

كذلك ابتهج كثيرًا حين توصل إلى معرفة معنى كلمة (طُز) الموفورة الصيت؛ إذ قال لنا أدهم آنذاك إنها تعني (الملح) باللغة التركية، ثم شرح لنا باستفاضة كيف تحول مدلول الكلمة مع الزمن إلى الاستخفاف والاستهانة! حيث كان رجال الجمارك أيام المماليك يفرضون ضرائب باهظة على كل السلع التي ترد إلى مصر، باستثناء الملح الذي تم إعفاؤه من الضرائب؛ الأمر الذي دفع التجار المصريين إلى التحايل على جبروت المماليك وتعسفهم، بزعم أن الأجولة المستوردة ليس بها سوى الملح أي (طز)، فيسمح لها بالمرور دون ضرائب! ضحكنا كثيرًا حينئذ، وأفاض زياد أبو سريع في كيل المديح لذكاء المصريين وألاعيبهم وحنكتهم في مواجهة الظلم والطغيان.

أوصلتني قدماي إلى الكوربة، فوقفتُ أمام شانتيه لبضع دقائق. كدتُ أهمُّ بالدخول لتناول الشاي بالحليب، ولكنني خشيتُ من أن أتأخر على موعدي مع نشوى فوزي.. تذكرتُ اضطرابي أول أمس، وأنا أطلب منها أن نلتقي خارج الجريدة، فأربكتني بموافقتها السريعة، بل أيضًا تحديد الزمان والمكان.

كان عماد عزوز قد توجّه نحو مكتب سكرتير التحرير، حاملًا معه الصفحات، التي تم إخراجها لأخذ الموافقة عليها أو تعديل ما يراه غير مناسب.. تأملتُ نشوى فوزي وهي تحدّق في صورة الهدهد. انتهزتها فرصة وقررتُ أن أطلب لقاءها خارج جريدتنا، وأنا أبيّت النية لإهدائها صورة

كبيرة للهدهد.. أذهلتني بموافقتها السريعة.. لم تعترض ولم تعتذر، على الرغم من أنني كدتُ أفقد صوتي، من فرط الخجل، وأنا أرجوها أن نلتقي بعيدًا عن مقر الجريدة.

في العاشرة إلا الربع، كنت غير قادر على البقاء خارج كافيتريا كوستا أكثر من ذلك.. دخلتُ وانتقيتُ مكانًا قصيًّا يسمح لي برؤية الداخلين من الباب.. كان عمّال النظافة مازالوا يمارسون مهامهم بكسل نسبي. اقترب مني نادل شاب نحيف جدًّا، له أنف صقر جارح، راجيًا بصوت خفيض ومهذّب أن أنتظر قليلًا حتى ينتهوا من التنظيف، فيلبّي رغباتي ويأتيني بما أريد من مشرب أو مأكل. لم يكن يوجد أحد من الزبائن، سوى رجل كهل بشعر أبيض، يضع فوق عينيه نظارة من عصر مضى يطالع جريدة المصري اليوم، بينما كومة من الجرائد الأخرى تستريح بجوار المقعد الذي يجلس عليه.

حقًّا.. ما أجملك يا نشوى.. كيف استطعت أن تستحوذي على قلبي بكل هذه البساطة، وفي هذا الوقت القصير؟ وكيف كنتُ سأواصل طريقي في الحياة، محرومًا من استنشاق عطر رقتك كل صباح؟ لكن مَنْ يا تُرى غرس في عقلك تلك الأفكار المغلوطة عن الدين، فجعلك تخاصمين الطريق إلى الله؟ أنت يا نشوى تتمتعين بحصافة شديدة وذكاء كبير، فكيف خانك عقلك وخطفك من سكة الإيمان بالواحد الأحد، والرضوخ لمشيئته سبحانه؟ وكيف تجرؤين على الإفصاح بأنك ملحدة، دون أن يرتجف قلبك، وترتج روحك رعبًا وخجلًا؟ خسارة يا نشوى.. لكن أقسم أنني سأبذل كل جهدي لأصحح الخطأ المريع الذي تغرقين في وحله، وأجعلك تستردين عافيتك العقلية، فتستعيدين إيمانك وتعبدين الرحمن.. أنت فتاة طيبة ورقيقة

يا نشوى، فحاولي ألا تأخذك العزة بالإثم، وتحرري من أسر هذه الأفكار المشبوهة التي يروج لها أعداء أمتنا العربية والإسلامية.

ترى.. هل ستتأخر؟ هل ستأتي في موعدها؟ إنها فتاة ملتزمة، فالأيام القليلة التي لازمتنا فيها منذ تعيينها تؤكد أنها جادة ومنضبطة، وتنحاز للحق، بعكس خالها رئيس التحرير المنافق، الذي يكيل المديح إلى حسني مبارك في كل عدد بلا أدنى خجل!

نظرتُ إلى ساعة يدي فأشار الوقت إلى العاشرة إلا خمس دقائق.. تململتُ في مقعدي، وأنا أعاين شابًا طويلًا أسمر البشرة، يصطحب فتاة بيضاء قصيرة القامة بصورة لافتة يدلفان من باب الكافيتريا. كانا يضحكان بصوت مرتفع، وكانت قهقهة الشاب لها رنين معدني مختلف، تمكنت من تمييزها بعد ذلك وسط هتافات الملايين وضحكاتهم على مشارف الميدان.. فجأة وجدته أمامي.. النادل النحيف صاحب الأنف الحاد مثل صقر جارح. طلبتُ شايًا بالحليب، وأنا أتعجب من قدرة الله على صنع أنف إنسان على صورة أنف صقر جارح، فلا يلحظ أحد هذا التشابه المذهل!

مع رنين الموبايل معلنًا تمام العاشرة صباحًا كما ضبطته أمس مساءً، أضاء كافيتريا كوستا الوجه البشوش لنشوى فوزي، حين دفعت الباب برفق ودخلت برقتها اللانهائية بصحبة فراشاتها الثلاث. وقفتْ لحظات تفتش عني، بينما التوتر كله يصطخب في معدتي، وحين نهضتُ لاستقبالها، كانت قد عثرت على مكاني، صافحتني بقوة، وهي تقول بنبرة احتجاج مهذّبة:

– لماذا اخترت هذا المكان البعيد؟

ثم عاينت ببصرها أرجاء الكافيتريا، وأشارت إلى منضدة تتوسط الصالة الرئيسة، وهتفت:

- أظن هنا أفضل.

لم أعترض، ورضختُ لقرارها لا أعرف لماذا، على الرغم من أنني أتوتر كثيرًا، إذا لم أسند ظهري إلى الحائط في مكتبي أو منزلي أو مقعدي، أيًّا كان؟ وهكذا جلسنا في المنضدة التي فضلتها، بينما تولى النادل نقل الشاي بالحليب إليها. بدت نشوى فوزي في غاية الحيوية والنشاط، وهي تطلب قطعة (تارت) بالبلح مع شاي أخضر، ثم قالت ضاحكة:

- أنا التي سأدفع الحساب.

وقبل أن أبدي احتجاجي، أردفت بصوت يقطر عذوبة:

- هذا مكاني المفضل، وأنت ضيفي اليوم.

تأملتها بقلب يفيض بالحب، وروح ملهوفة.. أعطيتها الصورة، وأنا أهمس:

- هذه هدية متواضعة.. أرجو أن تحوز رضاكِ.

شلال الحبور الذي تدفق في عيني نشوى فوزي جعلني ألمس السماء، فقد بُهرتْ بصورة الهدهد، وصاحت بصوت مرتفع، وهي تحدّق في أرق الطيور:

- إنها أكثر من رائعة.

ثم نظرت إليّ بعينين بنيتين داكنتين يملؤهما عرفان كبير، وقالت بنبرة هامسة:

- أشكرك جدًّا على هذه الهدية البديعة.

امتلأ صدري بالتيه والفخار، وأعجبتني نفسي لأنني تمكنت من أن أغمر صديقة الفراشات بالسرور، وقد حمدتُ الله لكونه ألهمني هذه الفكرة

الصائبة؛ فالهدهد طائر محبوب، ومادمنا أنا ونشوى نشترك في التدله به، إذًا فنوافذ الغرام بيننا قد فُتحت تقريبًا أو كادت، وسوف تنتعش روحي بنسيمك يا فتاتي الساحرة في القريب العاجل.. وقديمًا قالت جدتي «مآثر»: (إذا اشترك اثنان في حُب الهدهد، فإنهما سيعشقان بعضهما بعد أذان المغرب)!

- أظن أن ملامح هذا الهدهد تختلف عن الهدهد المعلّق في غرفتنا بالجريدة؟

سألتني نشوى شاخصة ببصرها في الصورة، فأدهشتني قوة الملاحظة التي تتمتع بها، فأجبتها على الفور:

- معكِ حق تمامًا، لكنه اختلاف بسيط يتمثل في شكل تاج الهدهد.

غمغمت نشوى بالموافقة، وهي تحرك رأسها بالإيجاب، بعد أن وضعت الصورة على المقعد المجاور، وهي تكرر شكرها لي، ثم شرعت في تناول (التارت) بشهية ملحوظة.

فجأة ساد بيننا صمت غريب، فوجدتني أتابع أسلوبها الرشيق في تناول الطعام، ومهاراتها في استخدام أدوات المائدة.. ثم بدأتُ أمرّ بعينيّ على استدارة ياقة البلوزة الزرقاء التي ترتديها. وأخذتُ أتأمل الدبّ الذهبي الصغير الذي يتدلى من السلسلة الذهبية الرقيقة التي تضعها على صدرها. هممتُ بأن أعبّر عن إعجابي بأناقتها، لكنني خشيت أن تعد ذلك من باب الغزل الرخيص.. لاحت منها التفاتة نحو الصورة، فصاحت بفرح طفولي:

- الإطار أنيق جدًّا.. هل أنتَ مَنْ قمت باختياره؟

انتفخت من فرط الغرور، ورأيتني قاب قوسين أو أدنى من قلب حبيبتي، على الرغم من أن الوقت ما زال مبكرًا حتى يحين أذان المغرب، فقلت لها بتواضع كاذب:

- نعم.. أنا مَنْ انتقيت هذا الإطار من بين ٥٢ شكلًا وتصميمًا لإطارات مختلفة؟

كنت أكذب، إذ لم يكن الأسطى عبد العظيم يعرض سوى سبعة أشكال وتصاميم مختلفة من الإطارات. وكنت راغبًا في اختلاق القصص والحكايات، التي توضح لها مدى اهتمامي بها وبالهدية التي أعددتها من أجلها، فربما كنت سأخبرها كذبًا بأنني أجهدت نفسي في البحث عن الإطار المناسب عند أكثر من خمس محلات، لكن صوت فايزة أحمد انطلق فجأة وهي تنادي بحنان (ست الحبايب ياحبيبة)، فكان هذا المطلع من الأغنية المشهورة هو النغمة المميزة لرنين هاتفها المحمول، فعطّل خططي وأكاذيبي، حيث تحدثت مع والدتها، مؤكدة أنها ستعود بعد نصف ساعة.. اضطربتُ وانزعجتُ لأنها ستتركني وتنصرف، فسألتها بصوت مرتعش:

- إلى أين ستذهبين؟

- أمي ما زالت تنتظرني في النادي، حتى نعود إلى البيت معًا.

قُضيَ الأمر، وضاعت الفرصة. ولكن.. أية فرصة؟ هل كنتَ تنوي أن تبوح لها بغرامك هذا الصباح يا معتز؟ هل كنت تعتقد أنها جاءت لتنصت إلى تأوهاتك وافتتانك بها وبفراشاتها الملوّنة؟ هل كنت تتوقع أن تبقى بصحبتك إلى آخر اليوم، تتحدثان وتتناجيان حتى يأتي موعد آذان المغرب؟ هل تملك اليقين الكامل على أنها كانت ستستقبل رسائل البوح، التي كنت سترشقها في قلبها بكل محبة وتقدير؟

- أين أنت؟

أفقت من هواجسي على سؤالها وهي تضع الشوكة والسكين جانبًا، معلنة بذلك أنها فرغت من تناول الطعام.. كانت الفراشات ما زالت ترفرف حول

جبينها بشغف لا ينفد، فمكثتُ أرنو إليها وقتًا لا أعلم مُدته، ولكن يبدو أنه كان طويلًا؛ لأنها أطلقت سبابتها في وجهي، وهي تصيح بصوت مرتفع:

– معتز.. أين أنت؟

بارتباك واضح وصوت متوتر، قلت:

– أنا هنا.

ثم سمعتني أسألها:

– هل ستعودين إلى النادي لمواصلة التدريب؟

ابتسمت، فانشقت الأرض عن أجمل فتاة رأيتها في حياتي، وراحت تفتش في حقيبتها عن شيء لا أعرفه، ثم قالت لي:

– لقد تجاوزت مرحلة التدريب من سنوات، فأنا لاعبة تنس محترفة، وقد حصلت على مراكز متقدمة في بطولات مهمة داخل الكويت، والحمد لله.

استثمرت الفرصة، وكأنني ضبطتها متلبسة، فسألتها باستنكار:

– تحمدين الله، وأنت تزعمين أنك ملحدة لا تؤمنين بوجوده.. كيف؟

قهقهت بصوت عال، ربما لأول مرة منذ أن انضمت إلى فريق العمل معنا، ثم اعتدلت في مقعدها، بعد أن ألقت نظرة عامة على روّاد الكافيتريا الذين بدأوا يتزايدون، ثم قالت بصوت خفيض:

– معتز.. نحن نستخدم في حياتنا اليومية مفردات وعبارات روتينية، تغلغلت في ثقافتنا ولغتنا منذ الصغر، مثل (الحمد لله)، و(إن شاء الله)، و(الله يرحمه) وخلافه. ولكن هذا لا يعني الإيمان بما نقول، أو على الأقل بالنسبة لي؛ ذلك أن الإيمان بوجود الله مجرّد فرضية فلسفية، وكذلك القناعة بعدم وجوده، كلها مجرّد فروض؛ لأنه ما من إنسان استطاع أن يرى الله

أو يتحدث إليه؛ لذا فالذين يؤمنون بوجوده يتبعون حدسهم ومشاعرهم وعاداتهم وثقافاتهم، التي نشأوا عليها، أما الذين هم غير مقتنعين بوجوده، فيستخدمون المنطق والعقل المجرّد لإثبات ما يعتقدون أنه صواب. أليس كذلك؟

اخترق كلامها عقلي كرصاصة، فاندفعت معلقًا على أفكارها، وأنا مدجج بيقين كبير:

- ولكن الأنبياء صنعوا لنا معجزات تؤكد وجوده، لدرجة أن سيدنا موسى تحدث إلى الله سبحانه ورآه، فما قولك في هذا؟

ابتسمت، فأسرتني إلى الأبد، وأردفت:

- معتز.. هل ستطيق معي صبرًا، إذا تحدثت معك بصراحة أكثر في مسائل الدين؟

وقبل أن أجيب، استطردت قائلة:

- علمًا بأنني أحترم الأديان كلها، سماوية وأرضية، وأحترم أيضًا جميع المؤمنين على وجه الأرض، ولا يشغلني على الإطلاق بماذا يؤمن الناس؟ وماذا ينتظرهم في السماء؟ ما يهمني فقط هو سلوكهم ومعاملاتهم في الأرض!

قلتُ بتحفز، معتقدًا أنني سأدحض أفكارها بسهولة:

- هاتِ ما عندك، فلن يزعجني شيء.

اعتدلت في مقعدها، وهي تنقل صحنها الفارغ إلى حافة المنضدة، ثم قالت بصوت هامس:

- يا عزيزي معتز.. إن الأنبياء بشر مثلنا مزودون بمواهب مختلفة، فكانوا يعتقدون أنهم أصحاب معجزات، وأن السماء تدعمهم؛ الأمر الذي دفع الناس إلى تصديقهم في الأزمنة السحيقة، لأن البشرية آنذاك كانت في مرحلة الطفولة الفكرية والروحية، ولم تكن قد بلغت ما بلغته من علم وفكر، يرصد الظواهر الطبيعية الغريبة، ويفسرها كما يحدث الآن.

إنها تقول يا عزيزي.. حقًّا ما أجملك يا نشوى، فهذه أول مرة تخاطبني فيها فتاة هكذا، ولكن أفكارك الغريبة هذه من أين تحصلت عليها؟ ومَنْ من شياطين الإنس أقنعك بها؟

- ولكن يا نشوى..

قاطعتني، قبل أن أكمل، واستطردت تشرح أفكارها بإيقاع حاسم وأداء رصين:

- يا معتز.. هل قرأت كتاب (فجر الضمير) لهنري بريستد؟

- للأسف.. لا!

اقتربت بجذعها نحوي بشكل مفاجئ، فزلزلتني أنفاسها، ودوّخني عطرها الفوّاح، حيث صارت المسافة بين وجهينا لا تزيد عن خمسة عشر سنتيمتر، وهتفت:

- لن ينقذك من أسر الأساطير والأفكار الدينية المتخلفة التي تخاصم العصر سوى القراءة.. عليك يا معتز أن تدرك أن الدين اختراع مصري في المقام الأول؛ فقدماء المصريين هم الذين ابتكروا فكرة الله؛ ليفسروا لأنفسهم ما غَمُضَ عليهم من ظواهر في كافة المجالات. فإذا أتيحت لك فرصة مطالعة كتاب (فجر الضمير) على سبيل المثال، ستكتشف كيف كان

المصريون القدماء مشغولين جدًّا بإيجاد الحلول للمشكلات، التي تواجههم في الحياة، وكيف يتعاملون مع الموت، وفكرة البعث والحياة الأخرى والثواب والعقاب.. كل ذلك كان قبل ظهور ما يسمى بالدين السماوي.. أي قبل ظهور موسى وعيسى ومحمد.

قلت في نفسي (عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأنقى السلام).. كانت نشوى فوزي تتحدث بسرعة وبهمس، ولكن بثقة تامة، وكنت أنصت إليها مذهولًا من قدرتها على بسط أفكارها هكذا بسهولة، حيث أكملت:

- مشكلتنا يا معتز أننا لا نقرأ، ونميل إلى الاسترخاء فوق وسادة الكسل العقلي؛ لأنها تريح أعصابنا وعقولنا، ولا تجعلنا نجاهد أنفسنا للبحث عن حلول للمشكلات التي تعترض طريقنا. علينا أن نقرأ في التاريخ والفلسفة والأديان واللغة العربية وتطورها، حتى نفهم كيف ظهرت الأديان، ولماذا لم تنبثق إلا في منطقتنا العربية فقط، فلم نسمع عن دين ظهر في المكسيك أو أوروبا أو البرازيل أو سنغافورة، كذلك كيف يمكن تفسير مسألة الوحي، التي يقول بها الأنبياء، وطبيعة القرآن نفسه ولغته المغلقة، التي أتحدى أن يفهمها أحد، دون الاستعانة بالمعاجم والقواميس.

- وما العيب في ذلك؟

استطردت بعد أن استردت أنفاسها، حيث كانت تلهث، وهي تشرح أفكارها:

- معنى ذلك أنه لا يصلح لكل زمان ومكان كما يزعم المؤمنون به؛ لأن لغته لا تناسب عصرنا، ما دمنا نستعين بالمعاجم والقواميس لنفهمه ونفك طلاسمه!

تذكرت كلام أدهم الشاذلي (القرآن يفقد نصف بلاغته عند ترجمته إلى لغة أخرى، ويصبح مجرد تعاليم وعظات وحكايات عادية لا حلاوة فيها ولا يحزنون، فكيف يكون مقدسًا؟).

وجدتني أستغفر الله بصوت مسموع، فتوقفت نشوى عن الكلام، فخيّم صمت ثقيل على الجلسة، فاصطدمت أذني بطرقات سكاكين وملاعق الروّاد والزبائن في الصحون. وبينما كنت أجول ببصري في المكان؛ خشية أن يكون قد سمع رأيها الشاذ أحد، كانت نشوى فوزي قد أخرجت من حقيبتها ورقة بمائة جنيه لتدفع الحساب، ثم ابتسمت في وجهي قائلة:

- أنت الذي طرحتَ عليّ السؤال في البداية، فتحمل الإجابة وقسوتها، ولكن بعد أن تنصت بتركيز إلى قول الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي:

لـما جهلتَ من الطبيعة أمرهـا   وأقمـتَ نفسك في مقـام مُعللِ

أوجـدتَ ربًّـا تبتغـي حـلًّا بـه   للمشكلات فكان أكبر مشكلِ

نطقت نشوى فوزي هذين البيتين بأداء ناصع، وهي تضغط على حروف الكلمات لتأكيد المعنى، ثم نهضت فجأة، لتستأذن بالانصراف وتلحق بوالدتها.. وقفت معها تأدبًا ومجاملة. حاولت أن أحمل عنها الصورة لأوصلها إلى النادي، فرفضت بشدة، وأصرت على أن تحملها بنفسها، بعد أن عطّرت قلبي بعبارات الشكر والامتنان مرة أخرى. تابعتُ من مكاني، وأنا أقف مشدوهًا، كيف انسلّت نشوى فوزي بيسر عجيب بين المقاعد والمناضد في اتجاه باب الخروج، بينما فراشاتها الثلاث ترفرف بسعادة، وكأنها تحررت من الأسر.

عدتُ إلى الجلوس في مقعدي مشمولًا بأريجها الأخّاذ وآرائها الغريبة، ولكن النادل صاحب الأنف الحاد مثل صقر جارح، لم يجعلني أستمتع باستعادة ما حدث بيننا؛ إذ اقترب مني وانحنى أمامي سائلًا:

- هل ترغب في تناول شيء آخر يا سيدي؟

في تلك اللحظة كانت آراء نشوى فوزي وأبياتها الشعرية يشعلان نيران الأسئلة الساخنة في عقلي بكل جنون.. تأملت النادل وأنفه الحاد، فتذكرت مشهدًا لصقر جارح، يحاول الإفلات من ابن آوى الذي انقض عليه خلسة دون جدوى، فضحكتُ بشدة من ارتباك الصقر وارتجافه، ووجدتني أطلب لأول مرة في حياتي (تارت) بالبلح مع شاي أخضر!

* * *

8| في الساحل الشمالي

حسنًا فعل أصدقائي حين أصروا على اصطحابي معهم لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في الساحل الشمالي، فقد كنتُ في غاية الإنهاك النفسي بعد رحيل أبي بالكيفية التي تعرفونها، كما كنت أطمع في الانفصال عن كل شيء اعتدت عليه، ولو مؤقتًا.

في أول الأمر اعتذرت عن عدم الذهاب معهم، عندما اقترح زياد أبو سريع أن نتخفف من ضغوط القاهرة، ونقهر رتابة أيامنا بالسباحة في البحر الأزرق؛ لأنني كنت جائعًا إلى الوحدة، لا أريد أن أرى أحدًا إلا نشوى فوزي، التي كنت أرغب في أن أظل بالقرب منها دائمًا.. لا أعرف لماذا تخيلت أنها من الممكن أن تتصل بي، بعد لقائنا الساخن والقصير في كوستا؛ حيث من الجائز أن تطلب مني أن نكرر لقاء يوم الجمعة الماضي في هذه الجمعة، بعد أن انقضى أسبوع العمل، دون أن يدور بيننا أي حوار خاص، فعماد عزوز يقف لنا بالمرصاد ولا يترك الغرفة، بينما انصرفت نشوى فوزي مبكرًا يومين متتاليين لإجراء مشاوير خاصة كما قالت لنا.. علاوة على أنني لم أكن متحمسًا لأن أترك أمي وحيدة بعد ثلاثة أسابيع فقط على وفاة أبي المسكين، ولكن أدهم الشاذلي استطاع أن ينتزع موافقتي على الذهاب معهم، بعد زيارة قصيرة إلى منزلي.

- يجب أن تغتسل من تراب هذه الأحزان يا معتز.

كان أدهم ينطق بهذه الجملة بصدق حقيقي، قبل أن تطرق أمي باب غرفتي برفق، لتخبرني أن أم السيد قد أعدت لنا الشاي.. صافحها أدهم بحرارة كعادته، منذ كانت قروح شقاوة الصبيان ترتسم على ركبتينا، واستأذنها في أن يصطحبوني معهم إلى الساحل الشمالي.

- خذوه معكم يا بنيّ.. إنه حبيس غرفته طوال الوقت.

هَرمت أمي كثيرًا في وقت قليل. هكذا قلت لنفسي، وأنا أتأمل عناكب الشيخوخة تحفر أخاديدها بسرعة مذهلة في بشرتها البيضاء. حقًّا.. لقد انهارت صحيًّا بعد رحيل أبي بصورة غير متوقعة؛ لدرجة أن أم السيد التي كانت تأتي كل صباح لتزاول مهامها في تنظيف المنزل وشراء احتياجاتنا من السوق، فضلًا عن المساعدة في إعداد الطعام، ثم تغادرنا إلى بيتها مع حلول المغرب، صارت تبيت معنا منذ اليوم الأول لوفاة أبي، ومع الوقت أصبحت أم السيد لا تذهب إلى بيتها إلا مساء الخميس لتعود في صباح اليوم التالي.

في الطريق إلى الساحل الشمالي أحببت شرودي؛ حيث توزعت مشاعري بين الحزن على موت أبي والرغبة في العودة إلى القاهرة؛ لألتقي نشوى فوزي بأية وسيلة. وقد ساعدتني الجلسة المريحة في السيارة المرسيدس الخاصة بمحمود أبو ماضي على أن أستسلم للذة الشرود.. كنت أجلس بين أدهم الشاذلي وفادي نجيب في المقعد الخلفي، بينما استقر زياد أبو سريع بجوار محمود أبو ماضي، الذي كان كلما قاد السيارة بسرعة فائقة، حذره أدهم ورجاه أن يخفف سرعته، وهو ما كان يحدث في كل مرة يضغط فيها محمود على البنزين بكل قوته.

لم تكن هذه أول مرة نخطف فيها بعض المسرّات من أنياب الزمن في الفيللا الخاصة بأسرة محمود أبو ماضي، ولكنها كانت الأخيرة، قبل أن

يغمرنا الحدث الجلل بعبقريته.. كانت الفيللا مكونة من دورين وذات تصميم فريد يختلف عن كوكبة الفيللات، التي تجاورها من اليمين ومن الشمال. وقد أعطاها لونها البرتقالي الساخن مذاقًا متباينًا عن بقية الفيللات، التي تم طلاؤها بألوان البيج الشائعة. أما الأشجار الرقيقة والزهور الملونة التي تنمو في الحديقة الواسعة للفيللا، فقد اختارتها والدة محمود بعناية فائقة، باعتبارها مهندسة زراعية مغرمة بالورود والنباتات. أجمل ما في هذه الفيللا أنها قريبة جدًّا جدًّا من البحر، حيث لا تزيد المسافة بين مدخلها والشاطئ عن عشرين مترًا.

استقبلنا خميس حارس الفيللا بحفاوته المعهودة، وسؤاله الدائم عن صحة والد محمود ووالدته.. كان طويلًا ونحيفًا بصورة لافتة، بشرته الداكنة لا تتواءم مع عينيه الواسعتين الملونتين كقط بري، فكلما جئنا إلى هنا لا أمل من تفحص ملامحه الغريبة وأنفه الطويل وشاربه الكثيف؛ خاصة عندما يمشي؛ حيث لا تكاد تمس قدماه الأرض، فيبدو لي كما لو كان يسير فوق زجاج كثيف مهشم لتوه، ويخشى أن يصاب منه بمكروه. لكنته الصعيدية القُحّة تثير فينا الضحك؛ خاصة إذا ارتفعت نبرة صوته مدافعًا عن نفسه، لو وجّه له محمود أي اتهام بالإهمال، أو عدم الاهتمام بنظافة الفيللا وحديقتها كما يجب.

حسنية زوجته، كانت تتولى مهام تنظيف الفيللا قبل مجيئنا وبعد انصرافنا. بسمتها الرائقة تفتن كل من يراها.. كنت أشعر أنها تتلصص علينا من حجرتها الصغيرة القابعة في حديقة الفيللا. كما كنت أتعجب كيف لامرأة فاتنة مثل حسنية أن تقترن برجل يكاد يكون دميمًا مثل زوجها؟ حتى لكنتها الصعيدية كانت تقطر رقة وعذوبة وفقًا لوصف أدهم الشاذلي.. لم ير أحد منا شعرها

قط؛ حيث كانت تختبئ في ملابس فضفاضة لونها أسود غالبًا، لكن عينيها السوداوين وبشرتها النحاسية، علاوة على وجنتيها البارزتين وأنفها الدقيق، وفمها الصغير.. كل ذلك جعلها تبدو امرأة رائعة، حتى لو اعتراها شحوب طبيعي من فرط الإنهاك وسوء التغذية الصحية.

في شرفة الفيللا الأنيقة، تولّى كل من زياد أبو سريع وفادي نجيب تجهيز سجائر اللذة والمزاج، بعد أن أخرج زياد قطعة الحشيش الصغيرة من حقيبة الإسعافات الأولية الموجودة في حقيبة السيارة الخلفية.. هكذا دومًا يتفنن زياد أبو سريع في ابتكار مكان داخل السيارة، يدسّ فيه قطعة الحشيش، قبل أن تنطلق رحلتنا من القاهرة إلى الساحل. بينما قام أدهم الشاذلي بطلب وجبات الكنتاكي من المحل القريب.

بعد أقل من نصف ساعة من وصولنا، أعلن حسين بإطلاق بوق عصبي عن حضوره. كان محمود قد اتصل به، ونحن على مشارف الساحل، يخبره بأننا أوشكنا على الوصول ليأتينا بالمعلوم. في كل مرة أرى فيها وجه حسين، أشعر أنني أمام حمامة بنية اللون لا أدري لماذا؟.. هذه المرة استقل حسين سيارة جيب صفراء، بعكس المرة الماضية، حيث كانت معه سيارة لاند كروزر سوداء. (هذه العائلة تمتلك أسطولًا من السيارات الضخمة) أطلق فادي هذه العبارة باندهاش، وبصوت خفيض، وهو يقف بجانبي متأملًا سيارة حسين. شاركته فضيلة التأمل، فرأيت المدفع الكلاشينكوف يستقر على المقعد الأمامي بجواره كالعادة. شكل المدفع كان يخيفني ويشعرني أنه قد يتحرك تلقائيًا كحيوان خرافي.. كان حسين يبيع لنا أفخر أنواع الحشيش، ووفقًا لكلامه، فإنهم يبذلون جهودًا جبارة حاليًا للحصول عليه، بعد أن اشتدت قبضة الشرطة.

في أغلب الأوقات، كان حسين يرتدي قميصًا وبنطالًا، ولكن في هذه المرة كان قابعًا في جلباب ناصع البياض. لا أظن أنه تجاوز الثلاثين، لكن ملامحه الناعمة تغري بمصادقته كإنسان خلوق وطيب! بعد أن أعطاه محمود ثمن (قرش) الحشيش، شكرنا بصوت هادئ، ثم استقل سيارته ولوح لنا بيده مودّعًا. ابتسمت في وجهه، دون أن أرفع يدي مثل أصدقائي، الذين انهالوا عليه بعبارات الشكر والإطراء وهم يودعونه بالأيادي المرفوعة.

بعد أن جذبت أول نفسين، شعرت بجوع شديد، فأكلت بشهية مفتوحة لأول مرة، منذ أن تحول والدي إلى أسد كهل.. لاحظت أن أدهم الشاذلي أعطى خميس الحارس نصيبه من الطعام، عندما أتى لنا بصينية الشاي الذي قامت زوجته حسنية بإعداده. اللذة التي شعرت بها، وأنا أجذب أول نفس حشيش بعد الأكل كانت أكثر من ساحرة، خاصة مع رشفات الشاي الساخنة ورائحة البحر التي أملأ بها صدري.. لم يسمح لنا زياد أبو سريع بأن نستسلم للخمول الذي أصابنا بعد تناول الطعام، وراح يحرضنا على النزول في البحر. بادله أدهم الشاذلي حماسًا بحماس، وسرعان ما أقنعا محمود أبو ماضي وفادي نجيب بمرافقتهما.. تركوني كلهم وشأني، عندما لاحظوا أنني في حاجة إلى أخذ قسط من الراحة، وربما النوم.

حين غادروا وهرولوا نحو البحر ليستمتعوا بمياهه الآسرة، لمحت من بعيد رجلًا يقف على الشاطئ، كان يرتدي ملابسه كاملة: بدلة سوداء فوق قميص أبيض ورابطة عنق زرقاء اللون بخطوط كحلية مائلة.. لم أفهم أبدًا لماذا يقف إنسان بكامل أناقته على شاطئ بحر، لا يرحب سوى بالعرايا؟ كان وجه الرجل له علاقة ما بملامح ذئب قطبي متحفز، ينظر إلى الأمواج بشراسة غير مفهومة.. تأملته كثيرًا.. لم يكن يتحرك أو يكاد، وكانت شمس

الأصيل ترصّع وجهه الذئبي بإضاءات خلابة.. حاولت أن أحدد عمره فلم أفلح. فجأة.. رفع يده اليمنى إلى أعلى، فانتابتني رجفة هلع؛ إذ إن طول ذراعه يقترب من مترين! ثم أقبلت عليه فجأة مجموعة من الأقزام بملابس فضية لامعة، تشبه تلك التي يرتديها رجال الفضاء في أفلام الخيال العلمي. لا أعرف من أين ظهروا هكذا ومن كافة الاتجاهات.. كانت وجوههم أقرب إلى السلاحف البحرية منها إلى البشر، بينما أياديهم أطول مما ينبغي بالنسبة لقزم. كذلك بدت أجسادهم مكتنزة مثل ذكور الفقمات.. وقفوا بنظام صارم في صفين أمام الرجل الذئبي، الذي أشار بيده الطويلة يمينًا ويسارًا كمن يلقي عليهم أوامره. تفرق الأقزام بسرعة مذهلة في كل اتجاه، باستثناء واحد قذف بجسده الممتلئ في البحر، تمامًا مثل فقمة جائعة. في لحظة اختفوا جميعًا وكأن الأرض انشقت وابتلعتهم. عاد الرجل الذئبي إلى سكونه. اعتراني الذهول لأن أيًّا من المصطافين على الشاطئ لم يحاول أن يفهم ما يجري.. هممت بالنداء على أصدقائي ليروا هذا الرجل الغريب وذراعه وأقزامه، ولكنني تراجعت حين رأيته يتحرك في اتجاه المياه بخطى بطيئة جدًّا، حتى اختفى تحت غلالة من الدخان الأبيض، انطلقت من أذنه اليسرى!

وقفت متعجبًا أتابع دوائر الدخان الأبيض، وهي تنمو وتتضخم فور خروجها من الأذن اليسرى للرجل الأنيق ذي الملامح الذئبية حتى تصير هباءً منثورًا في الفضاء. اقتربت من سور الشرفة، وملتُ بجذعي نحو الأمام، مسددًا سهام بصري نحو الدخان الأبيض الذي حجب عني الرجل وأناقته تمامًا. لكنه لم يمنع رائحة اليود من حضورها الطاغي.. توجهت يمينًا ويسارًا بسرعة أكبر داخل الشرفة، أحاول أن أعثر على الرجل أو أي واحد من أقزامه بلا جدوى. عدت إلى مقعدي يائسًا. لمحت زياد يشاكس أدهم

ومحمود وفادي في المياه، فيطاردونه، بينما الضحك والصراخ يلونان سماء الساحل الشمالي.. أرجعت بصري نحو الدخان الأبيض الذي لا يتوقف عن الخروج بكثافة من نقطة غير واضحة، ولكنني أعلم بكل تأكيد أنها الأذن اليسرى للرجل الذئبي.

لم أستطع مواصلة الجلوس، فانتفضت، وأشعلت سيجارة أخرى محشوّة بالحشيش، وأنا متكئ برسغي على سور الشرفة. بدأت أنفث دخانًا أزرق كثيفًا، يشوّش على كثافة الدخان الأبيض القادم من اتجاه البحر.. رأيت طائرًا لم أتبين ملامحه يمرق كالسهم من أمامي في اتجاه شجرة غزيرة الأوراق رابضة في فناء الڤيللا المجاورة، أغصانها الطويلة تتدلى خارج سور الڤيللا وتداعب رءوس المارة الذين يتصادف سيرهم بجواره.. أطلق الطائر صوتًا رفيعًا أظن أنني آنست له من قبل.. رنّ الموبايل، فكانت أمي تطمئن على وصولنا بسلامة الله، وقبل أن تنهي المكالمة، أوصتني ألا أنسى أداء الصلاة في مواعيدها. كنت أنصت إليها بنصف تركيز، فالدخان الأبيض يزداد كثافة وحضورًا، والذين تمددوا على الشاطئ الرملي، لم يعبأوا بالرجل ولا بالأقزام، ولم يشغلهم وجود رجل بكامل ملابسه الرسمية وحذائه الأسود اللامع، يشاطرهم الرمل والمياه والأمواج، في تحدٍّ صارخ لتقاليد التعامل مع البحر في آخر شهور الصيف!

(الحشيش جبان) هكذا يقول دومًا زياد أبو سريع، وهكذا أشعر به الآن، لكنني سأغامر وأذهب إلى أصدقائي؛ لألفت انتباههم إلى الرجل الذئبي، الذي يقف الآن على الحافة بين الماء والرمل. نعم أنا لا أراه، لكن الدخان يتكثف في هذه المنطقة حاليًا راسمًا هالات بيضاء كالثلج بحجم الرجل بالضبط، وكأنها عمود زرع في الرمل فجأة. صرخة خميس الحارس في ابنه

الصغير، أجفلتني وأنا أحدّق في الشبح الذي كان.. كدت ألعنه وألعن ابنه، ولكنني كظمت غيظي واستغفرت الله.. فجأة ظهرت حسنية لتنادي ابنها الذي لم يتجاوز السادسة، قبل أن يتعرض لأذى من أبيه. المشهد كله كان لافتًا بالنسبة لي.. خميس يقف أمام باب الڤيللا حافي القدمين، بينما ابنه محمد يركض مثل أرنب أبيض في اتجاهات شتى حول المكان، وهو يضحك قابضًا بيده على ورقة فئة الخمسين جنيهًا. لاحظتْ حسنية وقوفي في الشرفة، فرمتني بنظرة خجلى وارتفع صوتها مهددًا ابنها إذا لم يعد، ثم حاولت أن تقتنص زاوية تقف فيها بجوار الباب لا تسمح لي برؤيتها.

خجلها أخجلني، فأشحت ببصري عن المشهد كله؛ لأتابع مصير الرجل الذئبي ودخانه الأبيض الذي أخفاه عن عينيّ.. رنّ هاتفي مرة أخرى، فارتجف قلبي، فقد تكون نشوى فوزي، ولكن لذة الرجفة لم تستمر لثوان، إذ كان عماد عزوز يسأل عن أحوالي مع السفر. طيب القلب عماد .. قلت ذلك لنفسي، وأنا أنهي المكالمة معه. كدت أسأله عن نشوى فوزي، وهل اتصلت به، أو هاتفها؟ لكنني تراجعت؛ حتى لا أثير اهتمامه بالفتاة التي خطفت قلبي، قبل أن تطير مع صديقي يومًا ما على مشارف الميدان!

أدهم الشاذلي كان أول الخارجين من البحر.. رأيته يتعثر في الرمل، وهو يبحث تحت الشمسية عن فوطة يجفف بها جسمه. تبدو المسافة بينه وبين عمود الدخان الأبيض لا تزيد عن عشرة أمتار.. قفزت من النافذة، بعد تردد؛ لأخبره بالرجل الذئبي وذراعه وأقزامه وأذنه اليسرى ودخانه الأبيض.. انكفأت على وجهي، فغاص معي الموبايل في بحر الرمل، الذي أزعجني التصاق حبيباته بملابسي وجسدي، فأنا مكوّم داخل تيشيرت رمادي وشورت كحلي وساقاي عاريتان. لكن ما إن استعدت توازني

وانتصبت واقفًا، حتى خرج زياد أبو سريع ومحمود أبو ماضي وفادي نجيب من بين الأمواج، ولحقوا بأدهم تحت الشمسية.

وقفت للحظة مرتبكًا ومترددًا، أزيل حبيبات الرمل من فوق الموبايل بأصابعي.. كانت المسافة متساوية تقريبًا ما بيني وبينهم، وما بيني وبين عمود الدخان الأبيض، الذي يخفي رجلًا أنيقًا بملامح ذئبية. شعرت أن رائحة اليود تزداد كثافة عن ذي قبل. لا أعرف كيف تجرأت وتساءلت بصوت مسموع موجهًا حديثي نحو الدخان: (أين أنت؟). كان أصدقائي الأربعة مشغولين بتجفيف أنفسهم وتغيير ملابسهم، فلم يشعروا باقترابي، ولم يسمعوا ندائي على الرجل الأبيض. خطوت نحو عمود الدخان خطوة واحدة برفق، فامتلأت خياشيمي كلها برائحة اليود النفاذة. وقبل أن أنادي أصدقائي ليروا ما أرى، ويندهشوا كما أندهش منذ نحو عشرين دقيقة؛ إذا بعمود الدخان يتبخر في لحظة، مخلفًا وراءه فراغًا مخيفًا. فلا رجل، ولا ملامح ذئب قطبي شرس، ولا أناقة، ولا أقزام بأذرع طويلة أو قصيرة.. إنه الفراغ المطلق الذي يقف الآن على حافة الشاطئ.

هذا الرجل نفسه بملامحه الذئبية وذراعه الطويلة وأذنه اليسرى وأناقته المستفزة ودخانه الأبيض وأقزامه وفراغه المطلق.. كل ذلك المشهد الغريب، بتفاصيله المخيفة، رأيته يتجسد أمامي مرة أخرى بعد أشهر قليلة فقط، حين كان الرجل نفسه يقف بعنجهية مقززة، خلف دبابة حائرة، تدور أمام أسد كوبري قصر النيل من جهة ميدان التحرير!

* * *

9| في شارع الجمهورية

الهدهد الذي كان ينتظرني كل صباح أمام مدخل الجريدة اختفى لليوم الثاني على التوالي.. كانت حفاوته البالغة بحضوري تزرع في فؤادي حدائق سعادة لا نهائية، كما كانت تشعرني أن القمر أقرب، وأن مستقبلي مع نشوى فوزي أخضر ومطمئن.. ما من مرة طوال أكثر من شهرين، إلا وبادرني الهدهد بإلقاء تحية الصباح من فوق الشجرة، كلما رآني قادمًا نحو مدخل مبنى الجريدة.

أول مرة سمعت فيها تحيته العذبة، كانت بعد انضمام نشوى فوزي إلينا بثلاثة أيام فقط. آنذاك.. هرولت نحو مقر الجريدة، الذي يشغل شقة واسعة في الدور الثالث، في عمارة عتيقة، تحتل مساحة كبيرة في شارع الجمهورية، قريبًا من ميدان رمسيس.. اللهفة على رؤية نشوى فوزي والتحدث إليها منفردين، قبل أن يصل عماد عزوز هي التي كانت تحرضني على الوصول بسرعة إلى الجريدة. في ذلك اليوم استيقظت مع آذان الفجر.. توضأت وصليت، وشكرت الله على نعمائه الكثيرة، وطلبت منه أن يغفر لأبي ويرحمه، مهما تكن الحالة التي سيئول إليها يوم القيامة، فإذا ما بعثه الله إنسانًا كما أدعو في صلاتي، فكلي أمل أن يأخذ أبي كتابه بيمينه، فيترفق به المولى الكريم عند حسابه وهو الغفور الرحيم. أما إذا كان مقدرًا له أن يُبعث أسدًا هَرِمًا، فلا تثريب عليه، فيما جرى له من تحول بيولوجي غريب ونادر، قبل وفاته بسويعات قليلة.

من ميدان المحكمة، حشرت نفسي بصعوبة في الميكروباس المتجه نحو ميدان رمسيس، كما أفعل كل صباح.. كان الوقت مبكرًا فالساعة لم تتجاوز السادسة والنصف، ووالدتي فوجئت بخروجي في ذلك الوقت.. لكنني تعللت بأن هناك أعمالًا كثيرة متراكمة عليّ إنجازها، دعت لي بالنجاح والتوفيق بصوت أوهنه التعب، بعد أن كررت عتابها اليومي؛ بسبب عدم تناولي إفطارًا مناسبًا.. فقط أكتفي بكوب من الشاي بالحليب مع قطعة بقسماط واحدة.

في هذا الصباح الرائع، لم أنزعج ولم أتبرم من فوضى ميدان رمسيس كما هي الحال يوميًّا، بل كنت متصالحًا مع الصخب، أو قل منشغلًا عنه وعن الضجيج الذي استعمر أذنيّ، وأنا أعبر شوارع الميدان بخفة ورشاقة، حتى أصل إلى مقر الجريدة.. نسمات سبتمبر الصباحية تشرح لي صدري وتنعش مني الروح، وتهبني طاقة حب لا محدودة.. تأملت وجوه الباعة الجائلين الذين بدأوا يعرضون بضاعتهم على الأرصفة دون اكتراث لأول مرة، فأنا شغوف برصد ملامح هؤلاء الباعة، واكتشاف أوجه الشبه بينهم وبين الكائنات الأخرى من طيور وحيوانات وأسماك.

اللهفة على لقاء نشوى فوزي هي التي تسطو على قلبي وروحي الآن، لا باعة ولا حيوانات ولا ميدان ولا حتى الرجل الذئبي بدخانه الأبيض الذي كدت أنساه، ولا أي شيء آخر. قبل أن أصل إلى العمارة، التي يقع فيها مقر الجريدة، بنحو عشرين مترًا، حام حول رأسي هدهد بديع الألوان.. كانت هذه أول مرة أرى فيها هدهدًا يتسكع في شارع الجمهورية. لا أعرف من أين ظهر؟ ولا إلى أين سيذهب؟ فالفوضى العارمة التي تغرق فيها القاهرة؛ خاصة وسط البلد، طردت كل الطيور الرقيقة من فضاء المدينة؛

فأنا لا أذكر أنني لمحت أي طائر يرفرف مغتبطًا في هذا التلوث المخيف، منذ أن تم تعييني في جريدة البلاغ قبل أربع سنوات.

على مدى العشرين مترًا، لم يتوقف الهدهد الجميل عن اصطحابي برفق نحو مدخل العمارة. محلقًا بمحاذاة رأسي تقريبًا، فاردًا جناحيه بحنان وسكون؛ حتى لا أتوتر من حركتهما أثناء التحليق.. نظرت له بمحبة وابتسمت.. استقبل ابتسامتي بأحسن منها، ثم فاجأني بأن هتف بصوت بالغ الرقة والعذوبة:

- صباح الخير يا معتز!

توقفت عن السير لحظة مذهولًا، وأنا أحدق في جناحيه وعينيه ومنقاره الطويل والمدبب ورأسه الصغير وتاجه الفاتن.. وجدتني أبتسم مرة أخرى، وأنا في غاية الحبور، ثم قلت له بصوت، حاولت أن يكون رقيقًا مثل صوته:

- صباح الخير أيها الهدهد الرائع.

حرَّك رأسه يمينًا وشمالًا لا أعرف لماذا؟ تملكتني رغبة قوية في أن ألمسه، فتجرأت ومددت يدي نحوه، فانطلق في لمح البصر نحو الشجرة العجوز الكائنة أمام مدخل العمارة؛ حيث وقف على فرع صغير، وهو يتابع خطواتي بلطف حتى دلفت من هذا المدخل.

أما اليوم، فقد حرمني صديقي الهدهد من رؤيته وتحيته لليوم التالي، دون أن أعرف السبب. لقد بحثت عنه كثيرًا أمس، وطفقت أفتش في المسافة الواقعة من ميدان رمسيس، حتى مدخل العمارة، لدرجة أنني لم أتورع عن العودة إلى الميدان مرة أخرى؛ حيث لم أجد له أثرًا لا في شارع الجمهورية، ولا على الشجرة العجوز المنزرعة أمام مدخل العمارة.

ترى.. هل يعود اختفاؤه إلى مرض ألمّ به؟ أم أنه تعرض لمؤامرة خسيسة، أودت بحياته من قبل صقر جائع أو نسر غدّار؟ أم أنه قرر الابتعاد عني ومخاصمتي؛ احتجاجًا على ما حدث أمس في غرفة الإخراج والتنفيذ؟ ثم هل كان بإمكاني أن أصد رياح الإعجاب المتبادل بينهما منذ النظرة الأولى؟

لم تكن زيارة أدهم الشاذلي لي في الجريدة أمس هي الأولى؛ فقد كان يمرّ على مكتبي كلما ساقته قدماه قريبًا من المكان.. كما أنه كان حريصًا على نشر بعض مقالاته في التاريخ والأدب في صحيفتنا بين حين وآخر، وقد استطاع بلباقته المعهودة أن يوطد علاقته برئيس القسم الثقافي عندنا، مستثمرًا في ذلك صلة القربى التي تربطه بخاله المعروف في الوسط الإعلامي.

نشوى فوزي التي لا تحبذ الدخول في حوارات جانبية مع أي منا، عماد أو أنا، قبل أن تنتهي من العمل الموكول إليها، حطمت هذه العادة فور أن قمت بتعريف أدهم الشاذلي إليها؛ حيث صافحته باهتمام، ثم أدارت مقعدها لتصبح وجهًا لوجه أمامه، بعد أن أنصتت لحديثه معي عن جمعية البرادعي.. حتى فراشاتها الملونة استجابت لأدهم الشاذلي، وأعلنت ارتياحها له، من خلال انتقالها بينهما برشاقة لترفرف حول وجهه الرصين مرة، ووجهها الملائكي مرات.

قبل أن يظهر أدهم ليجرح قلبي، كانت نشوى فوزي غارقة في شاشة الكومبيوتر التي أمامها، تصمم وتضبط وتعدّل المواد التحريرية المكلفة بإخراجها صحفيًا.. بدت جميلة وبسيطة كعادتها؛ حيث ارتدت بلوزة زيتية اللون بكم طويل وبنطالًا جينزًا أسود. أما أدهم فكان يرتدي قميصًا أزرق مزدانًا بخطوط حمراء رقيقة وبنطالًا جينزًا أزرق.. بعد أقل من دقيقتين سألته نشوى:

- هل من الممكن أن أنضم إليكم في الجمعية الوطنية للتغيير؟

بحماس شديد، أجاب أدهم الشاذلي:

- بكل تأكيد.

ثم جذب ورقة بيضاء من فوق مكتبها؛ ليكتب لها موقع الجمعية على الإنترنت.

طوال نصف ساعة، هي المدة التي مكثها أدهم في مكتبنا، لم يتوقفا عن الكلام حول دور الجمعية بقيادة البرادعي لإحداث التغيير الديمقراطي المأمول في مصر، ولم تتوقف الفراشات كذلك عن الرقص لهما.. عماد عزوز تابع الحوار الحميم بين أدهم ونشوى بقلب موجوع وذهول حزين، والمرة الوحيدة التي تدخل فيها بعبارة عن مستقبل مصر السياسي لم يلتفت لها أحد؛ حيث تحدث عن أن التوريث قادم لا ريب فيه، وأن جمال مبارك سيحكم مصر العام المقبل. كأنه لم يقل شيئًا؛ إذ حدجه كل من أدهم ونشوى بنظرة احتجاج، ولم يعلقا على عبارته، وواصلا حديثهما بروح متوثبة وحالمة.

بالنسبة لي، وجدتني أخضع لمشاعر لم تعبث بفؤادي من قبل، وأنا أتابع ألوان الانسجام تكسو وجهي أدهم ونشوى. نعم.. لقد شعرت بذئب الكراهية، يعبث بأوردتي بكل حرية، حتى صار أدهم الشاذلي في أقل من نصف ساعة عدوًّا بغيضًا، لا أطيق أن أرى ملامحه. عاينت طريقته في التعبير عن آرائه السياسية، كأنني أول مرة أراه أو أسمعه.. صوّبت سهام بصري نحو وجهه، الذي بدأ يتغير ويتحول ليصبح شبيهًا بابن آوى، هذا الحيوان المتطفل سارق الوجبات الجاهزة! للحظات شعرت أنه يهم بالانقضاض على نشوى فوزي، فكدت أقف متحفزًا لأمنعه من ارتكاب هذا العمل الوحشي، ثم رأيت ملامحه تصفو وتهدأ، وهو يوجه كلامه لي، قبل أن ينصرف سائلًا

عن أخبار والدتي وصحتها.. عادت الملامح الطيبة إلى وجهه، أو عاد هو إلى ملامحه الطيبة. شعرت بصداع تزداد حدته مع مرور الوقت.. توترت في مقعدي وأصابني اختناق مفاجئ، فلم يلحظ أحد.. رأيت نشوى فوزي تقفز في الغرفة برشاقة بجعة مبتهجة، بينما يطاردها ابن آوى من مكتب لآخر، دون أن يفلح في اصطيادها.

فجأة نهض أدهم الشاذلي مودّعًا، ولكنه لم ينس أن يرشق في صدري سكين الغدر، حين قال موجهًا كلامه إلى نشوى:

- ما رقم موبايلك لأطلبك فتسجليه عندك؛ لأدعوك إلى حضور اجتماعات الجمعية المقبلة؟

ما الذي حدث بالضبط؟ وكيف تمكن أدهم من أن يخطف اهتمام نشوى فوزي به من أول لقاء؟ ولماذا لم أنتبه أنا إلى أن شخصية أدهم الجسورة قد تفتن فتاة بحيوية نشوى وجرأتها؟ ترى.. هل كنت واهمًا، حين ظننت أن الحوارات التي تنطلق بيني وبينها في المكتب، قبل أن يصل عماد عزوز، تعد تعبيرًا أوليًا من جانبها عن بداية اهتمام بي، أو حتى إعجاب؟ هل تبسّط نشوى فوزي في الحديث إليّ، بل قبولها دعوتي أكثر من مرة؛ لأن نتناول إفطارنا معًا، هو الذي أغراني بأن أتخيل أنه من الممكن أن تبادلني هذه الفتاة الجذابة غرامًا بغرام؟

حتى عماد عزوز لاحظ أن صديقة الفراشات الملونة تهتم بي، وتؤثر الحديث معي بصورة لافتة حتى تكسب ودّي، لدرجة أنه قال لي مرة في لحظة تنوير مشحونة بغضب مكتوم:

- أخشى أن أكرهك، ولا أريد.. إنها حقًا مشغولة بك.

آنذاك انتشيت، وملأني غرور، وأنا أستمتع بأمطار الذكورة والشباب التي تسربلت بها، لكنني حزنت من أجل صديقي البدين، أو هكذا بدوتُ، حيث لم أجد ما أقوله له، سوى أن هذه المسائل قدر ونصيب، فأضاف هو بصوت يكسر الخاطر:

- وحكمة إلهية أيضًا!

دار هذا الحوار قبل أكثر من شهر، وبعد أن استأذنت نشوى فوزي في الانصراف مبكرًا؛ لتلتقي والدتها عند طبيب الأسنان في باب اللوق. وعلى الرغم من الحبور الذي تمرغت في بساتينه، إلا أن هناك شيئًا ما يحول دون اكتمال فرحتي؛ كأن هذا الشيء يتمثل في أنني لم أصارح نشوى فوزي بطبيعة مشاعري الجارفة نحوها، لا من قريب ولا من بعيد حتى هذه اللحظة. كما أنني غير متيقن بالمرة من أن ورود أنوثتها ستزدهر لي وحدي.. صحيح أن الحفاوة التي يستقبلني بها الهدهد كل صباح كانت إشارة قوية إلى أن الطريق إلى قلب نشوى فوزي بات ميسّرًا، إلا أن معلوماتي تؤكد أن طائرًا وحيدًا، حتى لو كان بعظمة هدهد رقيق، لا يكفي لتعبيد الطريق إلى فؤاد فتاة متفردة، مثل نشوى فوزي، كما تقول جدتي « مآثر ».

وقفت أمام مدخل العمارة لا أريد الصعود إلى الجريدة؛ فغياب الهدهد يومين متتاليين نذير شؤم. ولو فرضنا أنه قد اختفى أمس، احتجاجًا على ما حدث بين أدهم ونشوى؛ فليس معنى ذلك أن يعاقبني أنا بإصراره على الاختفاء؟ فلا ذنب لي ولا سلطان لي على القلوب، كما أنه اختفى في الصباح، قبل أن يلتقي أدهم ونشوى في الظهيرة لأول مرة. نعم.. يجب ألا أربط اختفاءه بشئون الأفئدة، كما ينبغي أن أبحث عنه هنا في شارع الجمهورية، لعل وعسى اختار شجرة أخرى ليقيم بين أغصانها، أو ربما وجد أليفة تبدد وحدته.

تحركت في اتجاه ميدان رمسيس بخطوات وئيدة، وأنا أتأمل الأرض والسماء في آنٍ معًا؛ بحثًا عن صديقي المفقود. الأشجار القليلة الباقية في الشارع لم تعد تفهم ماذا جرى لشاب مثلي، يقف تحت كل واحدة منها بضع دقائق ليهمس: (صباح الخير أيها الهدهد الرائع)، على الرغم من أن هذه الأشجار لا تحتضن سوى عصافير صغيرة، يهددها الموت جوعًا.

أكثر من عشرين مرة ذرعت فيها المسافة بين ميدان رمسيس ومدخل العمارة جيئةً وذهابًا؛ من أجل العثور على رفيق الصباح، ولكن بلا فائدة. اتكأت بظهري محزونًا على جذع الشجرة التي كان يقف صديقي الغائب على غصنها الصغير، وهو يحييني.. رمقني شاب يخطو مسرعًا نحو الميدان بنظرة عدائية، فأزحت وجهي للجانب الآخر تفاديًا وانزعاجًا. لمحت حمامة صغيرة تهبط على الأرض بجواري، لتلتقط شيئًا ما، ثم تطير فوق الشجرة، التي أستند إلى جذعها.. أظن أن وقفتي اليائسة طالت كثيرًا، فجلست القرفصاء من فرط الإجهاد. أأكون قد غفوت قليلًا؟ لا أدري! لأنني أفقت مرتبكًا على صوت عم سعيد البوّاب، وهو يناديني:

- ما بك يا أستاذ معتز؟

في تلك اللحظة بالضبط، كانت الفراشات الثلاث الجميلات تزف نشوى فوزي، وهي تدخل باب العمارة بخطوات سريعة كعادتها، دون أن تنتبه للشاب الذي فقد صديقه الهدهد، وجلس على الأرض في شارع الجمهورية يتحسر عليه.. وعليها!

* * *

10 | مع شقيقتي رسمية

الدموع الساخنة التي ذرفتها هذا المساء، كانت بسبب الحزن الذي رأيت ملامحه تتشكل على وجه صورة الهدهد. لقد قمت بتكبير هذه الصورة لتحتل أكبر مساحة من جدار غرفتي، عندما لاحظت أن نشوى فوزي تهتم بالهدهد، من خلال تحديقها الدائم في صورته الكبيرة المعلقة فوق جدار مكتبي في الجريدة.. لقد فقد طائري المسكين ابتسامته بالتدريج منذ أسبوع تقريبًا، وتحديدًا في اليوم الذي اختفى فيه صديقي الهدهد الحقيقي؛ حيث بدأت الدموع تنهمر على وجنتيه الرقيقتين فجأة؛ الأمر الذي كان يمزق قلبي تمزيقًا كلما تحسست هذه الدموع في الصورة.. كنت أبكي سرًّا حتى لا تشعر أمي وشقيقتي رسمية بحالتي النفسية، فدموع الهدهد تحديدًا تعد الإنذار الأخير لي لأفعل أي شيء، قبل أن يرسو قارب نشوى فوزي على شاطئ قلب شاب آخر، فأتحطم وأنهار، حتى لو كان شاطئ قلب أعز أصدقائي! حقًّا.. لقد صدقت جدتي «مآثر» حين كانت تقول لي: (إذا سمح لك الهدهد برؤية دموعه، فاعلم أنك ستخسر أشياء عزيزة عليك)!

وأمس رأيت نشوى تقف على حافة نافذة غرفتي وتبتسم، بينما فراشاتها الثلاث يطرن حول وجهها بفرح. كنت مسترخيًا على سريري أتأمل أشكال الحيوانات في موقع خاص على الإنترنت في اللاب توب مرّة، ثم أشرد في ملامح ولفتات نشوى فوزي مرّات.. أسعدتني زيارتها المفاجئة، فقلت

لها اقتربي من فضلك والمسي قلبي، فقالت: إنها متعجلة، وأنها جاءت فقط لتطمئن على حالتي، حين علمت من عماد عزوز أنني تغيبت اليوم نظرًا لتعبي الشديد.. ومثلما وقفت نشوى على النافذة فجأة اختفت هي وفراشاتها فجأة، وهي تشير لي بكفها الأبيض مودّعة إياي، بينما فراشاتها لم تمنحني حتى نظرة إشفاق قبل أن تلحق بها. سقط مني اللاب توب على الأرض، عندما قمت من سريري مهرولًا نحو النافذة بحثًا عنها، فلم أجد لها أثرًا سوى رائحتها الباذخة، التي انتشرت في فضاء غرفتي. وقفت في منتصف الحجرة، أعبّ من رائحتها ما استطعت بأنفي، حتى امتلأ صدري بعطرها الأخّاذ. نعم.. بكيت حين تخلقت نشوى فوزي أمامي كالملاك، وبكيت حين رحلت، وبكيت حين استنشقتها كلها، فسمعت أمي نشيجي، وقرعت باب غرفتي مذعورة.

لا أعرف هل جاءت أختي رسمية من الإسكندرية بالصدفة؟ أم أن أمي استدعتها عندما تحسست دموعي فور اختفاء نشوى فوزي وفراشاتها من نافذتي، تاركة لي رائحتها الساحرة تمتعني وتشقيني؟ لكن احتضان رسمية لي بقوة وهي تسألني عن صحتي يشير، ربما، إلى أن والدتي هي مَنْ أخبرتها أن حالتي لا تسرّ، وأن صحتي ليست على ما يرام، وأنني متغيب عن عملي منذ يومين.. لم تكن هذه أول مرة أرى فيها رسمية بعد وفاة أبي، بل كانت المرة الثانية، حيث اصطحبها زوجها الدكتور مصطفى غيث ووصلا إلى القاهرة، أثناء وجودي في الساحل الشمالي مع أصدقائي، عندما رأيت الرجل الذئبي وأقزامه ودخانه الأبيض. وحين عدتّ، كانت أختي تلم أشياءها لتغادر إلى بيتها بالإسكندرية. بكت بحرقة حين رأتني، وهي تضمني بقوة في صدرها، فبكيت معها وبكت والدتي كذلك، وهي تحاول أن تخفف عنا مصيبة وفاة

أبي. فكرت لحظة أن أخبر رسمية بالتحولات البيولوجية الرهيبة، التي تعرض لها والدنا قبل أن يهجر دنيانا إلى الأبد، ولكن إلحاح الدكتور مصطفى على زوجته كي يذهبا أربكني، وحال دون أن أفتح فمي بكلمة عن الأسد المتهالك، الذي أنجبنا وتركني حائرًا!

للأسف لم أنتبه إلى أن رسمية فقدت كثيرًا من وزنها في زيارتها الأولى؛ إذ أعماني التشويش والحزن اللذان أكابدهما عن تأمل جسدها. أما في هذه المرة، فقد اكتشفت أن العطب الذي أصاب قلب شقيقتي الحبيبة أطلق سهامه القاسية على جسدها أيضًا. فرسمية التي امتلأت وزاد وزنها بصورة لافتة بعد أن وضعت طفلها الأول، ثم تضخمت بشكل غير مريح مع طفلها الثاني، صارت الآن أشبه بهيكل عظمي، يئن تحت مطارق الأمراض. لم تكن هذه أختي التي أعرفها. ولم تكن هذه رسمية التي تتفنن في إعداد مائدة عامرة بأشهى أنواع الطعام وأطايبه، وتأكل منها حتى التخمة؛ لدرجة أن زوجها الدكتور مصطفى كثيرًا ما وبّخها على كل هذا الإفراط في تناول النشويات والحلويات، التي تجيد طبخها وإعدادها بمهارة تحسد عليها.

- كيف أحوالك يا معتز؟

سألتني رسمية وهي تجلس على حافة السرير الذي أرقد عليه شاخصًا بصري نحو النافذة، عسى أن تأتي نشوى فوزي بفراشاتها مرة أخرى. نظرت إليها بإمعان كأنني أراها لأول مرة، كان نور بشرتها قد خبا بوضوح، فبدت أكثر قتامة.. كما أن أنفها الدقيق، الذي أحب استقامته قد تضخم واحتل مساحة لا بأس بها من وجهها المتقلص. قلت لها وأنا أرنو في عينيها السوداوين، اللتين احتفظتا ببعض بريقهما، على الرغم من سطوة المرض:

- لا تقلقي.. أنا بخير.. أنت تعلمين رهافة قلب أمنا، وشدة جزعها علينا لأقل شيء.

لم تقتنع رسمية بما أقول، هذا ما أكدته نظراتها الحيرى نحوي. ومع ذلك فقد فاجأتني بسؤال لم يخطر لي قط على بال، أن يأتي يوم، وأتحدث فيه مع شقيقتي الكبرى حول هذا الموضوع. هتفت رسمية:

- هل تحب يا معتز؟ هل تريد الزواج؟

في تلك اللحظة، تجلّت نشوى فوزي بفراشاتها أمام باب الغرفة لثوان معدودات، ثم اختفت. هممت بالقيام نحوها، فأوقفتني رسمية بإشارة من يدها وهي تردد:

- من فضلك.. لا تُخفِ عني شيئًا.. ولا تهرب.. أنا شقيقتك الكبرى.. وأنت ابني البكر الذي لم أنجبه.

نفيت بشدة، لا أعرف لماذا؟ ربما لأن طبيعة علاقتي بها لا تسمح لي بأن أتحدث معها في شئون الغرام بصورة طبيعية، كما أنني أخجل من أن أبدو أمامها ملهوفًا ومنبوذًا، علاوة على أنني لا أملك أي دليل، يشير إلى أن قلب نشوى فوزي ينبض بقوة كلما رآني!

- عندي لك عروس رائعة.. ابنة شقيقة زوجي الدكتور مصطفى!

يبدو أن مفاجآت رسمية لن تنتهي هذا المساء.. لم أعرف بماذا أرد عليها، وهي مُصرّة على أن تنتزع مني إجابة، فاكتفيت بالقول لها:

- هذه الأمور قسمة ونصيب.. كما أنني لا أفكر في الزواج الآن.

كأنني فتحت على نفسي أبواب القلق، فرسمية منذ استقالت من وظيفتها في إدارة الشئون المالية في فرع وزارة الصحة بالإسكندرية، قبل ثلاث سنوات، وهي لا تكف عن ممارسة هواياتها المفضلة في تزويج بنات فلانة إلى

أبناء علانة! وهي مهمة نجحت في إنجازها مرات، ولكنها أخفقت أيضًا في تحقيقها غير مرة؛ الأمر الذي أزعج زوجها كثيرًا، وقام بتوبيخها؛ لأن هذه الإخفاقات طالت عددًا من بنات وأبناء أصدقائه، وجرحت مشاعرهن أو مشاعرهم. وفي النهاية أمرها أن تكف عن ممارسة هذه الهواية الاجتماعية الموجعة للأعصاب. ولقد استمعت بأذنيّ قبل رحيل أبي بعام تقريبًا، وقبل أن ينتكس قلب رسمية، إلى وصلات التقريع التي صبتها أمي على رأسها؛ بسبب قيامها بدور (الخاطبة) الذي انتهى زمنه منذ وقت طويل وفقًا لتعبير والدتي؛ ذلك أن رسمية زارتنا مرة فجأة دون سابق إنذار، إثر غضب زوجها الشديد من إصرارها على التدخل في مسائل زواج الأقارب والمعارف. آنذاك شكت لأمي استبداد زوجها وأوامره الصارمة بأن تمتنع تمامًا عن لعب دور (الخاطبة).

رسمية المعتدة بنفسها كثيرًا اعتبرت وصف (الخاطبة) إهانة لا يمكن احتمالها، حتى لو كان من أطلقه هو زوجها، الذي تحبه بجنون، ورجل حياتها الذي أنقذها من السقوط في بئر الغم الأبدي، وتولى مداواة قلبها النازف دون أن يعلم. وهكذا تركت ابنيها مع والدهما في ليلة ممطرة بالإسكندرية وجاءت إلينا فجأة غاضبة وحزينة.. استقبلتها أمي بذعر، وبعد أن عرفت سر حضورها المفاجئ، أدانتها برفق وهي تعلن انحيازها إلى موقف زوجها، قائلة لها بحسم بعد مناقشة طويلة: (مصطفى معه حق يا بنيتي).

المفارقة المذهلة أن أبي طالما ردد دومًا أن جيل والدتي من النساء المتعلمات كان أكثر حرية وتنورًا من جيل بناتهن، اللواتي نلن نصيبًا من التعليم قد يفوق نصيب أمهاتهن، ومع ذلك أصبحن أكثر تخلفًا وجهلًا في هذا المناخ الخانق، كما يؤكد والدي بحزن كبير.. كنت أنصت أحيانًا إلى حواراته مع عم خليل، التي تستعرض أوضاعنا الاجتماعية المؤسفة وفقًا لتعبيره.. كان

يقول إن فتاة الخمسينيات والستينيات امتازت بالحيوية، وتملكتها رغبة قوية وأصيلة في تحقيق ذاتها وخدمة مجتمعها الخارج توًّا من كهوف الاحتلال والفقر والجهل. وكان هذا المجتمع يحترمها ويقدر لها عمق إخلاصها، كما أن الرجل تعامل مع المرأة باعتبارها أختًا وشقيقة سواء في الجامعة أو العمل، ثم يتمتم بحسرة: (لم نسمع قط عن حوادث الاغتصاب أو التحرش، التي تصدمنا كل يوم الآن في الصحف).

لم تكن قناعة عم خليل بالمزايا الكبيرة لعهد عبد الناصر تقل عن قناعة أبي، حيث يظلان يتذكران ذلك العهد بفخر يختلط بحسرة دائمة. كما أن كلًا منهما كان يتابع أحاديث هيكل في قناة الجزيرة بشغف حقيقي؛ حيث لا يكتفيان بمشاهدة الحلقة مرة واحدة، بل يواظبان على مشاهدتها مرة ثانية وثالثة، عندما يعاد بثها في الأيام التالية. ثم تدور بينهما حوارات لا تنتهي حول ما كشفه هيكل من أسرار ووثائق، أو وقائع وأحداث عن زمن عبد الناصر وصراعاته. حتى أمي كانت تؤكد- حين تسنح لها فرصة المشاركة في الحوار- أننا كنا سنبقى قوة إقليمية كبرى، إذا تركنا الغرب في حالنا، فيضيف عم خليل مبتسمًا: (يكفي أننا لم نسمع في عهده أي كلمة عما يسمى الفتنة الطائفية)، وهكذا تنتهي وصلة مديح عبد الناصر وزمانه بمصمصة الشفاه وتقطيب الجبين ولعنة الزمن الحالي.

بالنسبة إليّ، لم أكن أهتم كثيرًا بمتابعة ما يقوله هيكل في برنامجه على الجزيرة، ولولا الخجل من أبي، الذي يدعوني بإلحاح، ما جلست معه لمشاهدة الرجل الشهير، وهو يصول ويجول في سراديب الزمن، وبين أرفف الوثائق. لم أكن وحدي الذي لا يهتم بهيكل وكلامه عن التاريخ والسياسة وعبد الناصر، بل كان كل أصدقائي يشاركونني هذا الشعور، باستثناء أدهم الشاذلي الذي كان حريصًا على متابعة أحاديث أشهر وأهم إعلامي مصري وعربي، في القرن

العشرين كما يصفه، فضلًا عن أن أدهم لا يمل أبدًا من إبداء إعجابه الشديد بعبقرية هيكل وفرادته، وزعامة عبد الناصر ووطنيته.

ومع ذلك يجب أن أقول إنني كنت كلما رأيت صورة أو لقطة لجمال عبد الناصر، في موقع أو جريدة أو قناة فضائية، أشعر أنه لا ينتمي لنا نحن البشر، بل هو طائر أسطوري رفرف حول سماواتنا لحظة، ثم اختفى في الفضاء الشاسع.. وأذكر أنني حلمت به مرة، وأنا طالب في الصف الثالث الثانوي.. كان الزعيم في زيارة إلى أبي في بيتنا، وكانا يتحدثان عن مستقبل السد العالي في ظل الهجوم الضاري، الذي يشنه عليه عدد كبير من السياسيين والإعلاميين. كدت أقول له كيف وصلت إلينا بينما أنت ميت منذ سنين طويلة.. كان يتحدث بانفعال، على الرغم من أن الابتسامة لم تفارق عينيه البرّاقتين، ثم وقف فبدا لي أن حجمه الهائل يتجاوز مساحة غرفة الاستقبال في شقتنا، ثم نبت له ريش أبيض ناصع وجميل، فجناحان عريضان ؛ ليخترق بهما سقف الغرفة محلقًا في الفضاء.. لم يندهش أبي مما حدث للزعيم الذي طار وحلّق بعيدًا؛ حيث رفع يده ملوّحًا وداعيًا له بالتوفيق والنجاح من أجل الوطن، أما والدتي فقد أسرعت لتقرئه التحية، قبل أن يطير، داعية له أيضًا بطول البقاء.

الدكتور مصطفى غيث زوج أختي كان الوحيد، ممن أعرف، الذي يهجو عبد الناصر وعهده بقسوة، واصفًا إياه بالديكتاتور، الذي عطل نمو الحياة الديمقراطية في مصر بل أماتها. وأن العهد البائس لحسني مبارك الذي يكبلنا حاليًا، ما هو إلا امتداد لعسكرة النظام السياسي، الذي شيده عبد الناصر وضباط يوليو. كما أن هيكل كان ينال نصيبه بانتظام من هجاء زوج أختي، الذي يصفه بأنه أحد أهم الذين دافعوا عن جرائم عبد الناصر في عصره، ومازال يبرر له خطاياه القاتلة في قناة الجزيرة حتى اليوم. وكانت النقاشات

بينه وبين والدي تحتدم حول هذا الموضوع؛ ليصلا إلى نقطة فاصلة، يكاد يشتبك كل منهما مع الآخر دفاعًا عن رأيه، ولكن لا أعرف كيف تهدأ أصواتهما وتصفو أرواحهما، في الوقت الذي تخفت فيه حدة النقاش إلى أقصى درجة، فيتم تغيير الموضوع كليًّا.

في كل زيارة مذ كنت طفلًا صغيرًا، يتكرر السيناريو نفسه، حيث يشرع أبي في ذكر محاسن خالد الذكر كما يسميه، بينما يشتاط الدكتور مصطفى غضبًا، وهو مصمم على تسفيه عهد الزعيم وإدانته، واصفًا إياه بأقذع الصفات، مؤكدًا في كل زيارة أنه سبب كل المآسي التي تكابدها مصر الآن. وكم من مرة سمعت فيها أبي ينبهه إلى أن الرجل مات قبل عشرين سنة، ثم بعد عقد من الزمان، يوضح له أبي أنه توفي منذ ثلاثين عامًا، وأخيرًا يصرخ والدي في وجه زوج ابنته هاتفًا: (إن جمال عبد الناصر مات قبل أربعين سنة تقريبًا، فكيف بالله عليك يا مصطفى تحمّله أوزار ومصائب حسني مبارك؟)!

حاولت أكثر من مرة أن أعرف ماذا يحول بيني وبين الدكتور مصطفى غيث، فلم أصل إلى نتيجة.. هناك شيء ما غامض لا يجعلني أحبذ الحديث معه أو الجلوس إليه، على الرغم من أن ملامح وجهه لا تخلو من وسامة بادية ولافتة؛ الأمر الذي يجذبني دومًا عند التعامل مع الآخرين؛ حيث إنني أنفر من الكلام مع أصحاب الوجوه الخشنة أو الدميمة؛ فهو يمتلك عينين واسعتين سوداوين، فوقهما حاجبان كثيفان مقرونان، وجبينًا عريضًا وأنفًا أشم.. لا يكاد زجاج نظارته الطبية يُرى من شدة شفافيته، أما بشرته الخمرية فناعمة جدًّا مثل جلد ثعبان الأصلة. على أية حال الحوار معه قليل، ثم إن فارق السن بيننا كبير، بصورة لا تسمح لنا بأي تواصل طبيعي، ويبدو أنني لم أنس له أنه مَنْ خطف أختي، وأنا مازلت طفلًا صغيرًا!

رسمية الحائرة بين أبيها وزوجها كانت تُكِنُّ ودًّا خاصًّا لجمال عبد الناصر، أسوةً بوالدينا، ولكن غرامها بزوجها كان يمنعها أحيانًا من أن تعلن حماسها الكبير للزعيم؛ ذلك أن شقيقتي اعتبرت أن اقترانها بمصطفى كان هو المنقذ الوحيد لها من عذابات عشق فاشل، أحرق منها الفؤاد وقتًا طويلًا. الحكاية كانت أردأ قليلًا من أفلام السينما المصرية الساذجة، حيث ذابت رسمية في هوى ابن الجيران فترة أثناء دراستها في الثانوي والجامعة، ثم هجرها فجأة، ليتزوج من صديقتها.. كنت طفلًا صغيرًا آنذاك لا أتذكر من هذه الواقعة، سوى أن ابن الجيران هذا كان يشبه ثعلبًا متربصًا، وأن صديقة أختى التي خطفت حبيبها تذكرني بقطة صغيرة متوترة وسريعة الحركة.. رسمية الموجوعة حد البكاء ليلًا في غرفتها، وافقت على الزواج من الدكتور مصطفى فورًا لتداوي جرحين: الهجر والغدر، ولكنها لم تكن تدرك آنذاك أنها ستعثر على لؤلؤة سعادتها في بحر الغرام بزوجها والإنجاب منه.

- يا معتز.. لقد اقتربت من الثلاثين.. والزواج ضرورة للشباب.

بهذه العبارة التي قالتها بصوت مشحون بتوسل كبير، انصرفت أختي رسمية من غرفتي، وهي ترميني بنظرة لا تخلو من شفقة، ولكنها قبل أن تخرج من الباب ألقت نظرة سريعة على صور الحيوانات والطيور، التي تسطو على جدران الغرفة، ثم وقفت قليلًا أمام صورة الهدهد الحزين.. لا أدري كيف شعرت حينئذ أن رسمية صارت مثل أنثى ماعز نحيفة، أوشكوا أن يذبحوها، ولكنها سألتني باستغراب، وهي تشير نحو صورة الهدهد:

- ما لهذا الهدهد.. تُرى.. هل يبكي؟

* * *

11| أمام
تريانون مصر الجديدة

بينما أهم بدخول محل تريانون بمصر الجديدة عصر يوم الجمعة 10 ديسمبر 2010 كعادتي، إذا بي أرى أدهم الشاذلي يمسك بيد نشوى فوزي، في الشارع المقابل، في طريقهما إلى مدخل المحل نفسه. لاحظت أن الفراشات تدور حول وجهها بسعادة كبيرة، وقد ازدادت ألوانها رقة وسحرًا.. كانت نشوى ترتدي فستانًا وردي اللون مرصعًا بمربعات صغيرة صفراء، نثرت على قماش الفستان بعفوية محببة، وقد تركت شعرها الأسود الناعم على سجيته، يستجيب لمداعبات الهواء ومفاجآته، فيزيد من فتنتها. في حين ارتدى أدهم جاكتًا بنيًّا فوق قميص أزرق سماوي وبنطالًا بنيًّا قاتمًا.. أغاظتني أناقتهما البسيطة التي تلفت نظر العابرين.. اختبأت عنهما بطريقة لا إرادية خلف شجرة معمّرة، تقع أمام كشك خشبي صغير أزرق اللون. رمقني صاحب الكشك بنظرة، لا تخلو من ريبة، فأشحت بصري عنه.. ظللت أتتبع طريقتهما في السير بعينين جاحظتين وقلب باكٍ، وشعرت أن دموعًا كثيرة ينبغي أن تنهمر الآن في فؤادي.

طرقت أذنيّ أصوات طيور، تتبادل التحايا والعناق فوق الأغصان، فرفعت عينيّ أعلى الشجرة، عسى أن أجد صديقي الهدهد الهارب مستوطنًا أحد أعشاشها.. كان كل منها يحمل اللاب توب الخاص به.. تعجبت قليلًا وتساءلت (هل هذا لقاء غرامي أم موعد عمل؟)! لقد كنا، أصدقائي

وأنا حين زاروني بالمنزل للاطمئنان على صحتي، نتحدث قبل يومين عن التزوير الفج لانتخابات مجلس الشعب الأخيرة، وكان أدهم غاضبًا بشدة؛ لأن أحزاب المعارضة الرسمية لم تنصت إلى نصيحة البرادعي بمقاطعة الانتخابات، مادامت محرومة من ضمانات النزاهة والشفافية! وقد أعلن بثقة عجيبة أن الحزب الوطني وحكومته ارتكبا بهذا التزوير الغبي الخطأ القاتل والمدمر لهما.. ترى هل جاء مع نشوى حاملًا اللاب توب لمناقشة توابع تزوير الانتخابات؟ أم أن هناك شيئًا آخر مهمًّا استدعى حملهما للاب توب الآن؟ ثم اكتشفت أنني أنا أيضًا أحمل اللاب توب كعادتي، كلما أتيت إلى تريانون.

مع اختفائهما داخل المحل، تجرأت قليلًا وقررت أن أخرج من خلف الشجرة. صوّب صاحب الكشك الصغير نظرته المريبة نحوي مرة أخرى، وأنا أترك مكاني مثل لص حائر، فخشيت منه، فقد يخبر أحدًا أنني أراقب أدهم ونشوى؛ لذا ذهبت إليه طالبًا منه أن يبيعني كيس مناديل توددًا له واتقاءً لشرّه.. كان الرجل له فم حمار محشو بأسنان أطول مما يجب، حيث تبدو اللثة الكبيرة وردية اللون! للحظة ضحكت ثم التفت بوجهي جانبًا؛ حتى لا أرى فمه المثير للضحك. سرتُ بخطوات متوجسة بجوار جدار تريانون الجانبي. فرحتُ لأنني وجدت شجرة أخرى عجوزًا كثيفة الأوراق تنشر ظلالها قريبًا من مدخل تريانون.. استأذنتها في أن أتخذ منها سترًا لمراقبة الضبع واللبؤة بالداخل، فلم تمانع!

نعم.. أدهم الشاذلي مثل ضبع وقح يخطف فريسة حيوان آخر، اجتهد في اصطيادها.. أما نشوى فوزي فلبؤة عطشى للمضاجعة انصاعت لحيله وألاعيبه.. أعتذر، صديقتي الشجرة، عن هذا الكلام القبيح، الذي لا يليق بأغصانك المتشابكة والنبيلة ودموعك المقبلة، فلا أدهم يستحق مني هذا

الوصف القميء، فهو صديق العمر وأليف الروح، ولا نشوى برقتها تحتمل هذا النعت السافل، فهي أول من غرزت في قلبي ورود الهوى، منذ أن طارت نهلة إسماعيل في القناطر قبل سنين.. سامحيني، صديقتي الشجرة، فأنا موجوع، وهما بالداخل يتضاحكان ويسرقان مني أحب الأماكن، التي أرتادها منفردًا ووحيدًا كلما تيسرت لي فرصة.

ترى.. لماذا اختارا هذا المكان بالذات ليلتقيا ويتبادلا فيه كئوس الهوى؟ هل انتقاه أدهم لأنه من قاطني مصر الجديدة، التي أعلم تمامًا أنه يعرفها بيتًا بيتًا وشارعًا شارعًا وميدانًا ميدانًا؟ ولماذا لم يذهب هو إلى مقابلتها قرب مسكنها في مدينة نصر؟ ثم أن مصر الجديدة تحتشد بمحلات كثيرة متنوعة، تصلح مخبأ للعشاق الجدد وسارقي اللذة العاطفية، فلماذا وقع اختيارهما على مكاني المفضل، الذي لم أخبر أحدًا قط من أصدقائي بأنني أرتاده بانتظام، كلما أحببت أن أختلي بنفسي؟ هكذا إذًا تعودت أن أفعل في كل جمعة، حيث أقوم بأداء الصلاة في المسجد القريب من منزلنا، ثم أعود لأتناول غدائي مع والدي، وبعد ذلك أشرع في الحضور إلى تريانون سيرًا على الأقدام إذا كان المناخ مواتيًا، أو أستقل تاكسيًا إذا كان الطقس مشاكسًا وعصيبًا.

رفيقي في جلسة تريانون هذه هو اللاب توب فقط؛ حيث أتجول بمتعة لا نهائية في المواقع المتخصصة في عالم الحيوانات والطيور، أتأمل هذا الأسد وأعاين ذلك النسر، أرقب ذاك الفهد، وأعجب بتلك الفقمة.. وهكذا، متلذذًا بإيقاعات الموسيقى اليونانية، التي تنبعث من زوايا المحل، ومستنشقًا دخان الشيشة التفاح بهدوء واسترخاء. فكيف أقبل أن يقتحم أدهم الشاذلي مكاني المفضل بصحبة حبيبتي وفراشاتها؟ عليّ أن أنقضّ عليهما الآن وتوًّا لأطردهما من عريني الخاص.. ولكن مهلًا يا معتز (هل تجرؤ على فعل ذلك

حتى لو بللت دموعك شوارع مصر الجديدة كلها؟). لم أرد على هواجسي؛ إذ وجدتني أخفض رأسي في الأرض يأسًا للحظة، قبل أن يرنّ في أذني نحيب عصفور وحيد أعلى الشجرة. سألته مالك؟ فرفرف قليلًا وطار نحو غصن آخر دون أن يجاوبني.. لكن الحمامة البنية اللون التي استمعت إلى سؤالي، همست بصوت خفيض: (لقد هجرته حبيبته أمس مساءً).. قالت ذلك وهي تلتفت يمينًا ويسارًا، قبل أن تنتقل إلى غصن قريب مني وتضيف: (معتز.. عُد إلى بيتك). تململت الشجرة واضطربت قليلًا في مكانها؛ الأمر الذي جعل أوراقها الكثيفة تتلامس وتتصادم فتصدر حفيفًا خشنًا قويًّا، ودفعني أنا أيضًا كي أضبط جسدي مع حركة جذعها المفاجئة.

كانت هذه أول مرة في حياتي أنزعج من الحمام، فالنصيحة التي قالتها لي صاحبة الريش البني أججت نيران قلبي ولم تطفئها، فالحمام حسب جدتي «مآثر» لا يتحدث كثيرًا، ولا ينطق دون علم كما أن هذه النصيحة المشئومة تشي بأن موضوع نشوى فوزي قد انتهى بالنسبة لي، وأن قلبها صار ملكًا لغريم لم أتوقعه أبدًا.

وقبل أيام كنا نجلس في كافيتريا الحرية بميدان الحجاز. وقد لاحظت أن أدهم الشاذلي صار أكثر وسامة، حتى أن زياد أبو سريع سأله فجأة، بلهجة ساخرة، ونحن غارقون في جذب أنفاس الشيشة:

- أراهن يا أدهم.. إنك إذا تزوجت.. ستهجر البرادعي وجمعيته إلى الأبد.. أليس كذلك؟

وقع عليّ رهان زياد أبو سريع كالصاعقة؛ فالزواج ليس من الأمور التي نطرحها للنقاش كثيرًا في جلساتنا الخاصة، كما أن لا أدهم ولا محمود أبو ماضي ولا فادي ولا أنا مرتبطون رسميًّا الآن بأية فتاة، حتى يمكن لنا أن

نخوض عباب بحر الزواج إلى نهايته. فلماذا يجرحني زياد بإلقاء هذا السؤال على أدهم؟ هل يعلم شيئًا ما عن علاقته بنشوى لا نعرفه نحن؟ هل رأى بذور عشق جديد، تزدهر في قلب صديقنا المثقف؟ هل أسرّ له أدهم بشيء لا نعلمه نحن؟ صحيح أن زياد أبو سريع يجرجرنا للحديث عن الزواج وضروراته ومنغصاته، منذ أن اقترن بحبيبة فؤاده قبل عام تقريبًا، والتي صارت حاملًا الآن؛ حيث يؤكد لنا زياد باستمرار أنه غير مصدق أنه سيكون أبًا في مطلع فبراير المقبل كما تقول تقديرات الطبيب، وأنه سيكون له ابن يلاعبه ويلاطفه، وهو ما لن يحدث أبدًا.. أقول على الرغم من كل أحاديث زياد هذه، إلا أننا غالبًا ما نسخر من آرائه وإعجابه بالزواج. حتى أن أدهم وصفه مرة (بأنه مؤسسة تقتل الحب).

لم يكن البرد في هذا الوقت من ديسمبر يستلزم منا أن نختبئ من قسوته داخل بلوفرات صوف ثقيلة، فلسعة الهواء الليلية جميلة ومنعشة؛ خاصة مع تناول الشاي الساخن والشيشة، ونحن نعاين حركة السيارات المضطربة في ميدان الحجاز. وكان محمود أبو ماضي يحكي لنا بسعادة كيف ربح أبوه نصف مليون جنيه، في يومين، من خلال إقدامه على عقد صفقة لشراء قطع غيار سيارات كورية، ثم أعاد بيعها في اليوم التالي مباشرة لتاجر كبير!

كنا نعلم الكثير عن نشاطات المهندس صفوت أبو ماضي والد محمود، الذي أصبح رجل أعمال ناجحًا بامتياز في الخمس عشرة سنة الأخيرة؛ فهو يتاجر في العقارات، والمواد الغذائية والأدوات الطبية، فضلًا عن وظيفته الرسمية في وزارة الإسكان، التي وصل فيها إلى درجة وكيل أول وزارة مهم، قبل أن تقع الواقعة. ولكنها كانت المرة الأولى، التي نعلم فيها أن صفوت أبو ماضي اقتحم مجال قطع غيار السيارات.. محمود، ابنه، السعيد بالربح الوفير

الذي هبط على عائلته من صفقة واحدة، قرر أن يتخصص في مجال قطع غيار السيارات؛ حيث سيقوم بشراء محل لهذا الغرض ويديره لحسابه الخاص، بجانب مساهماته في إدارة الشركة العقارية التي يملكها أبوه.

المذهل أن أدهم الشاذلي لم يسألني في هذه الجلسة عن أحوال العمل في الجريدة، كما لم يستفسر عن طبيعة علاقتنا، عماد وأنا، مع رئيس التحرير كريم المرشدي، كما يفعل في كل مرة نجلس فيها. وقد تولى زياد أبو سريع الاهتمام بهذا الجانب؛ حيث سألني عن آخر المستجدات بعد تزوير انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، وهل هناك فرصة حقيقية لأن نصدر ملحقًا عن الرياضة، يوزع مجانًا مع كل عدد كما سمع من أحدهم؟ إجاباتي عن أسئلة زياد كانت مقتضبة؛ لأنني كنت مشغولًا بالبحث عن سبب يدفع أدهم الشاذلي؛ ليحجم عن السؤال عن أحوالي في العمل. ترى.. هل أصبح في غير حاجة إلى معرفة، بعد أن توطدت علاقته بنشوى فوزي، التي تتكفل حاليًا بإبلاغه بما يدور في أروقة جريدتنا البائسة؟ هل أصبح ينفر من مطبوعتنا، بعد أن كال رئيس التحرير المديح للرئيس مبارك؛ لأن حكومته أجرت أول انتخابات حرة نزيهة، كما يزعم، في تحدٍ صارخ لكل الآراء والوقائع، التي تؤكد أن التزوير الفج كان العنوان الأمثل لانتخابات مجلس الشعب ٢٠١٠؟ هل انشغاله بكتابة رسائل على الموبايل، والرد على ما يصله من رسائل أخرى هو الذي أنساه السؤال عني وعن جريدتنا الخائبة؟ هل هذه الرسائل التي يصوغها بتركيز شديد موجهة إلى نشوى فوزي؟ وهل ما يتلقاه من رسائل تترى على موبايله، مسبوقة برنين موسيقي مميز، تقف وراءها نشوى أيضًا؟ ثم هل الاتصال الذي جاءه كان منها، لأنه قفز فجأة عندما رأى رقم المتصل، وانتحى بعيدًا عنا، وظل يتحدث بصوت خفيض في الموبايل لأكثر من عشر دقائق؟

الحيرة نهشت صدري في تلك الليلة المحزونة، كما تفتك بأعصابي الآن، وأنا أختبئ خلف شجرة بجوار مدخل تريانون. بينما شكوكي تتأكد حول أدهم ونشوى، اللذين ينعمان بحلاوة الصحبة بداخل تريانون.. أصابتني قشعريرة مباغتة من نسمة هواء قوية نسبيًّا عبرت المكان فجأة، هبطت على أثرها حمامة بيضاء على الأرض؛ لتقف بجواري تلتقط ما تيسر لها من بين ثنايا العشب الممتد حول الشجرة، وقبل أن تطير لتعود إلى عشّها الكائن فوق رأسي مباشرة، قالت بصوت مبحوح، لكنني سمعته جيدًا: (معتز.. عُد إلى بيتك).

أن تأتيك نصيحة واحدة من حمامتين مختلفتين تقفان بشموخ فوق رأسك؛ فمعنى هذا أن الأمر جلل، وأنك ينبغي أن تنصاع لهذه النصيحة، وإلا تعرّضت لما لا يحمد عقباه، فالحمام يرى أبعد مما نرى نحن البشر، ولا يهمس بنصائحه إليهم إلا إذا أحبهم، وشعر بخطر شديد يتهددهم.. هكذا كانت تردد جدتي «مآثر» في الزمن الغابر، وعليه قررت أن أنصرف عائدًا إلى بيتي حاملًا شكوكي وخيبتي واللاب توب بحيواناته وطيوره التي لم أستمتع برؤيتها اليوم.

ألقيت نظرة حزينة على مدخل تريانون، قبل أن أهم بالانصراف من خلف الشجرة؛ امتثالًا لنصيحة الحمامتين.. باغتتني رائحة دخان كثيف ينطلق من الشيش التي يتناولها مرتادو المكان، فأهاجت شهيتي لتناول مثلها.. قررت أن أجلس على مقهى شعبي قبل أن أعود إلى البيت لأملأ صدري بالدخان. فجأة وقفتْ أمام مدخل تريانون سيارتان ماركة هيونداي: واحدة رمادية اللون، والثانية سوداء. قطعت السيارتان الطريق الجانبي، فتعطل السير في لحظة.. خرج منهما بسرعة عجيبة ستة رجال ذوو أحجام ضخمة وملامح

قاسية. يا إلهي.. أحدهم يشبه الرجل الذي تحول إلى قرد في قطار الإسكندرية، يشبهه في الحالتين: عندما كان رجلًا يجلس بجواري، ولما انقلب إلى قرد عابث ومقزز! وواحد آخر له عينا خرتيت خامل.. توجهوا جميعًا في لمح البصر داخل المحل. طرقت أذني أصوات صرخات واحتجاجات تنطلق من الداخل.. تبينت صوت أدهم الشاذلي.. لا.. إنه صوت نشوى فوزي.. لا.. لا.. إن الصوتين يتداخلان معًا.. يصرخان معًا.. يحتجان معًا. ماذا يحدث؟ الأدرينالين يتقاطر في شراييني بصورة كثيفة.. خوف شديد يعتريني. ما هذا؟ إنهم يقبضون على أدهم ويقتادونه بقسوة نحو السيارة الرمادية.

الرجل القرد صار أضخم ممن كان يعبث بالركاب في القطار ويتبول عليهم.. وحش الغضب الذي يغزو وجه نشوى فوزي الآن لم أر مثله قط إلا يوم جمعة الغضب فيما بعد.. إنها تسبّ الرجال الستة الذين أحكموا السيطرة على جسد أدهم، على الرغم من مقاومته الشديدة لهم.. هرولت لأختبئ خلف شجرتي المسكينة، فعذبتني ببكائها المكتوم. من سوء طالعي أن الرجل الخرتيت التفت نحوي بصورة لا إرادية، فالتقت عينانا للحظة مرّت كشهر.. تمنيت أن أذوب حينئذ داخل الشجرة، وأختفي عن عينيه المزعجتين. رأيت نشوى فوزي ترفع يدها بالوعيد صارخة فيهم وهي تلهث خلفهم أمام المدخل: (سأفضحكم في وسائل الإعلام وفي منظمات حقوق الإنسان يا أوباش).. كانت فراشاتها الملونة ترفرف بعصبية حول وجهها.. انبرى لها رجل بملامح خنزير بري، لم أنتبه له عند دخولهم، مهددًا وهو يدخل السيارة الرمادية: (عودي إلى بيتك يا قحبة.. وإلا أخذناك معه). هاجمته إحدى الفراشات في عينه اليسرى فصرخ متألمًا.. هتف أدهم الشاذلي بعد أن حشروه داخل السيارة: (نشوى.. أبلغي خالي عادل وأعضاء الجمعية فورًا)، فجاوبته نشوى بنبرة دامعة: (لا تقلق.. تماسك من فضلك).

مرّت دقيقتان كالدهر عليّ، وأنا أقف مذهولًا.. تابعت انطلاق السيارتين بسرعة جنونية في الشوارع الجانبية حتى اختفيتا. رأيت نشوى فوزي، وهي تهرول مسرعة نحو الشارع الرئيسي، بينما شرعت تتحدث في الموبايل بصوت لم أتبينه.. لم تواتني الجرأة لأظهر لها وأصطحبها إلى حيث تريد. وقفت تحت الشجرة أحاول ضبط إيقاع جسدي المضطرب، بينما روّاد تريانون خرجوا ليتابعوا مشهد القبض على أدهم الشاذلي.. كتلة البشر التي تكونت في لحظات أربكت الشجرة والحمام والعصافير؛ خاصة وأن أصوات الناس ارتفعت وتداخلت بصورة كبيرة، حيث راح كل واحد منهم يدلي بنصيب فيما حدث.. وجدتني غير قادر على الحركة، أمضغ حيرتي وتوتري بغيظ لا مثيل له.

تناهى إلى سمعي نحيب العصفور ونواح الحمامتين صاحبتي النصيحة التي لم أعمل بها. رفعتُ رأسي لأعلى لأرى أشكالها قبل أن أغادر. وشاهدت الطيور الثلاثة ترمقنني بنظرات موجعة.. تململت الشجرة قليلًا، وأخذت تواسيني بنشيج مكتوم.. وضعتُ يدي على جذعها لأخفف عنها أحزانها، فارتجفت عند ملامستي دموعها الساخنة، وبكيت.

* * *

12 | مع عادل صالح

- حسنًا يا معتز.. لو حاولت التدخل، أو مساندة أدهم بأية وسيلة، لكنت ارتكبت أكبر حماقة!

كرر عادل صالح، خال أدهم الشاذلي، هذه العبارة مرتين، وهو يحاول أن يخفف عني تأنيب الضمير، الذي رنّ صداه في صوتي، وأنا أحكي لهم وقائع القبض على ابن أخته في مساء اليوم نفسه. زياد أبو سريع أول من تلقى الخبر مني، حيث كذبت عليه عندما اتصلت به، وأنا أقف مرتعشًا وحائرًا أمام المخبز الإفرنجي في الكوربه تسحرني رائحة الخبز الإفرنجي المنبعثة من الفرن.. كنت قد ابتعدت بصورة لا إرادية عن تريانون، فور أن ذابت نشوى فوزي بفراشاتها المتوترة في فوضى الشارع الرئيسي، بعد أن حشروا أدهم في سيارتهم الرمادية.. قادتني قدماي نحو الكوربة، بينما سياط التشويش تجلد ذهني بقوة.. تنازعتني أفكار متناقضة ومشاعر متباينة، خجلت من بعضها بشدة، كيف أبتهج لأن المنافس الوحيد في معركة السطو على قلب نشوى فوزي قد اختفى؟ وكيف أفسر سريان غدير صغير من البهجة داخل فؤادي، منذ أن قبضوا على أدهم، بينما تؤلمني قطرات دموع ساخنة تقرع جدران قلبي، منذ أن رأيته يقف عاجزًا قليل الحيلة أمام قسوة الرجال الستة؟ ثم ماذا سأقول لأمي حين تعرف أنني تركتهم يخطفون صديق العمر، دون أن أقاوم أو أندم؟ وهل لم أندم حقًا؟ ثم ما موقفي أمام زياد ومحمود وفادي؟

كيف سأسرد لهم المشهد الحزين؟ وبأي عبارات سأفسر لهم اختبائي خلف الشجرة العجوز لمراقبته هو ونشوى؟ لا مفر لي من الكذب والادعاء بأنني كنت أسير بالصدفة في الطريق المقابل لتريانون، فرأيت ما رأيت في اللحظة الأخيرة.. كما يجب ألا أذكر نشوى فوزي من قريب أو من بعيد؛ حتى لا أفتح على نفسي أبواب الأسئلة الخبيثة، التي سيطلقها زياد وفادي كالرصاص.

- هل رآك؟

هذا أول سؤال طرحه عليّ زياد أبو سريع، ونحن في الطريق إلى شارع جامعة الدول العربية.. كنا قد تواعدنا جميعًا للقاء عادل صالح في مكتبه بجريدة الأمل، بعد ساعتين من القبض على أدهم الشاذلي.. محمود أبو ماضي مرّ بسيارته المرسيدس علينا جميعًا، وكنت أنتظرهم أمام سينما روكسي في الميدان؛ حيث لم تكن بي أية رغبة في الذهاب إلى البيت بعد موقعة تريانون. تحركت من أمام المخبز الإفرنجي في اتجاه شارع إبراهيم اللقاني، ثم انحرفت يمينًا في شارع جانبي. جلست على كافيتريا الكاشف، التي تقع بجوار كشري زيزو منتظرًا إياهم، فقد أخبرني زياد أنهم سيمرون عليّ بعد ساعة.. تعجبت لأن حمامة بيضاء مرقطة ببقع بنية تعمدت تجاهلي، وأنا أصعد السلم الصغير المؤدي إلى مدخل الكافيتريا؛ حيث راحت تقفز على الأرض حول الشجرة الصغيرة التي تنتصب أمام المدخل، دون أن تنظر نحوي كما هي عادة الحمام معي. لم أكن أشتهي تناول أي شيء، ومع ذلك تحرجت من وقوف النادل أمامي، يعرض لي بفخر لائحة أصناف المشروبات التي بحوزتهم، وكذلك أصناف الطعام المختلفة.. طلبت زجاجة بيبسي بعد تردد، فابتسم بافتعال وانصرف، ولكنني ناديته بسرعة، طالبًا منه أن يحضر لي شايًا بالحليب بدلًا منها مع شيشة تفاح. لم أحاول تفسير النظرة الغريبة التي حدجني بها النادل؛ فقد كانت أمواج الهم تتلاطم في صدري بصورة متزايدة.

تُرى.. لماذا قبضوا على أدهم الشاذلي؟ وماذا سيفعلون معه؟ لا ريب أنهم رجال أمن الدولة. المعلومات تؤكد أن هؤلاء الرجال يتسمون بالغلظة والخشونة، وأنهم أصحاب سمعة غاية في الرداءة، عند تعاملهم مع المعتقلين.. يا الله.. هل سيعذبونك يا أدهم؟ اكتشفت أنني نطقت هذه العبارة بصوت مسموع مخلوط بدمعتين ساختنين؛ لأن النادل اقترب مني، وسألني إن كنت أريد شيئًا؟ اعترتني رعشة خفيفة، وأنا أحرك رأسي نافيًا وشاكرًا بإيقاع متوتر.. تناولت رشفة من الشاي؛ فصدمتني مراراته؛ لأنني نسيت أن أضع السكر. أعجبتني الملعقة نظرًا لرشاقتها وطولها الرقيق.. تأملتها قليلًا، قبل أن أفتح اللاب توب. طالعت صفحتي على الفيس بوك، فوجدت ثلاثة أشخاص يطلبون وضعي على لائحة أصدقائهم، منهم فتاة من الصين، فضغطت على زر الموافقة، ثم خرجت من الصفحة سريعًا.. تابعت مطاردة ساخنة على اليوتيوب، يقوم بها فريق من الأسود المراهقين ضد ذكر جاموس متجبر. أخفقت الأسود في الصيد، نظرًا لقلة خبرتها من ناحية، واعتداد الجاموس بنفسه، كما يقول كاتب التعليق من ناحية أخرى. أعدت تكرار مشهد المطاردة وأنا في غاية السرور والاندماج.. أوقفت اللقطة عند لحظة مهاجمة ذكر الجاموس لأحد الأسود قبل أن تفر هاربة. تأملت ملامح التحدي التي نطق بها وجه الجاموس، فأعجبني إصراره على النجاة.. لاحظت أن ذيله مقطوع، فلم أعرف السبب.. قلت ربما فقده في معركة سابقة مع حيوان ضارٍ.. ابتسمت لأنني ارتحت لهذا التفسير.

أفزعني رنين الموبايل.. كان زياد أبو سريع يطلب مني أن أكون أمام سينما روكسي بعد سبع دقائق. حين بدأت في الانصراف، لاحظت أن هناك فتاة سمراء جميلة، تكاد تلقي بصدرها في حضن جليسها في المنضدة المقابلة. لم أنتبه لوجودهما قط من قبل، ولا أعرف متى جلسا في هذا المكان،

ولكن الفتاة السمراء ذات العينين العسليتين والبلوزة الخضراء والإيشارب الأخضر لم تتوقف عن التحديق في وجهي، وأنا أتهيأ للانصراف.. رأيت ورودًا حمراء وبيضاء وبرتقالية تنبت في صدرها؛ لتنبثق من بين نهديها مكونة باقة رائعة. اندهشت لأن صديقها الشاب ذا الشعر الأسود الكثيف، الذي يرتدي جاكتًا جلديًّا بنيًّا رخيص الثمن، لم ينتبه لحديقة الورود التي تتشكل في صدر صديقته؛ إذ كان منهمكًا في جذب أنفاس الشيشة بقوة.. حسدته قليلًا وانصرفت، لأجمع ورودها الصريعة من فوق رصيف الكوبري، بعد أقل من شهر!

استقبلنا الأستاذ عادل صالح في مكتبه بوجه حزين مثل وجوهنا جميعًا.. كنا قد التقيناه قبل ذلك عدة مرّات في مناسبات مختلفة، أذكر منها جيدًا مساء يوم الحفل، الذي أقامه أدهم في نادي هليوبوليس بمناسبة تخرجه في كلية الآداب؛ ذلك أن الصحفي اللامع نصحنا في ذلك المساء أن نتزوج فور أن تستقر أمورنا الوظيفية، ثم راح يشرح لنا الفوائد الجمة للزواج المبكر مرددًا أكثر من مرة: (الشاب الذكي هو من يتزوج في الخامسة والعشرين، إذا كانت ظروفه المالية تسمح بذلك).

في هذه الليلة تعجبنا من نصيحته هذه وإلحاحه علينا، على الرغم من أنه أقدم على الزواج، بعد أن تجاوز الخامسة والثلاثين. وقد أدهشتنا صراحته وجرأته في انتقاده لنفسه قائلًا لنا: (نعم.. أنا أخطأت، للأسف الشديد، وتزوجت في وقت متأخر من عمري، ولا أتمنى لكم أن ترتكبوا مثل هذا الخطأ).. لم يهتم أحد منا بنصيحته آنذاك باستثناء زياد أبو سريع، الذي أخذ يستفسر منه عن فوائد ومضار الزواج المبكر. وبالفعل كان زياد هو الوحيد فينا الذي استجاب للعمل بنصيحة عادل صالح، وتزوج وهو في الثامنة

والعشرين. بهذه الطريقة فقط، توقف زياد أبو سريع عن الجأر بالشكوى اليومية، حيث يصرخ في وجوهنا كل مساء، ونحن نجلس في الكافيتريا (أريد امرأة.. فأنا غير قادر على احتمال جسدي الهائج).

مقر جريدة المستقبل التي يتولى فيها عادل صالح منصب مدير التحرير يبدو أفخم كثيرًا من مقر جريدتنا المتهالك.. هذا أول انطباع ترسّخ في ذهني، ونحن نجلس مع خال أدهم الشاذلي في مكتبه الأنيق. الورود ونباتات الظل تزين مدخل الجريدة، وتنتشر بين الممرات، كذلك هناك عدد لا بأس به من اللوحات الجميلة، معلقة في أماكن مختلفة في المقر، بجانب صور مرسومة بإتقان لكبار مفكرينا ومبدعينا من رجال الأدب والفن والسياسة. ولقد حسدت العاملين في هذه الجريدة بشدة، عندما رأيت عم مرسي عامل البوفيه لديهم، إذ لم يكن يشبه من قريب أو بعيد حسنين الفكهاني ملك الجواسيس في جريدتنا.. كان عم مرسي طيب القلب مزوّد بملامح جمل مُسن، لا حول له ولا قوة.. سألنا بصوت واهن: (ماذا تشربون يا أبنائي؟).

أخبرنا عادل صالح أنه علم بخبر القبض على ابن أخته، عندما اتصلت به عبر الموبايل صديقة لأدهم تدعى نشوى فوزي، ثم مرّ علينا بنظراته متفحصًا ملامحنا قبل أن يسأل:

- هل يعرفها أحد منكم؟

ارتج كياني بكل قوة حين نطق عادل صالح باسم نشوى، وشعرت للحظة أن سربًا رقيقًا من الفراشات الملونة دخل من نافذة غرفة المكتب، ورفرف حولنا بنعومة، قبل أن يحلق عائدًا من حيث أتى.. لم يلحظ أحد الفراشات، لكنهم لاحظوا ارتباكي؛ إذ سألني فادي نجيب ومحمود أبو ماضي في صوت واحد تقريبًا:

- ما بك يا معتز؟

- لا شيء.. لاشيء!

قلت ذلك بنبرة حادة نوعًا ما؛ إذ كنت مشغولًا بمتابعة الفراشات ومحاولة إيجاد تفسير لدخولها الغرفة في هذه اللحظة تحديدًا دون صديقتها الرقيقة. ثم أن عدم إقدام أي من أصدقائي على التصريح بأنه يعرف نشوى فوزي أثار في مخيلتي أسئلة لا حصر لها.. هل امتناع أدهم الشاذلي عن الإتيان بذكرها أمام أي منهم يشير إلى أن ما يربطه بها لا يستحق الذكر؟ أم أن ما جمعهما معًا أعمق من أن يفشي به أمام الأصدقاء؟ أم أن ألوان الغرام بينهما مازالت باردة، لم تشتعل بسخونتها بعد؟ ثم هل انضم إليهم في إنكاري بمعرفتها؟ أم أخبرهم أنها زميلتي في قسم الإخراج بالجريدة؟ لحظات من التوتر ملأت معدتي، قبل أن أعلن لهم بصوت حاولت أن يبدو محايدًا:

- أنا أعرفها.. فهي زميلة لنا في الجريدة!

هبّ فادي نجيب صارخًا في وجهي:

- ولماذا لم تخبرنا بذلك، ونحن في الطريق يا معتز؟

قلت على الفور:

- لم أرها معه لحظة القبض عليه.

ردَّ زياد مندهشًا:

- ومن قال إنها كانت معه في اللحظة المشئومة؟

- لا أدري!

قلت ذلك بأداء محايد اجتهدت في أن يبدو طبيعيًا، حيث أخذت أتأمل ديكور المكتب الأنيق، وباقة ورد رقيقة تحتل الزاوية اليمنى من الغرفة،

وصورة كبيرة بإطار أنيق لصاحب المكان مع نجيب محفوظ وضعت على الحائط أعلى المكتب.

بإشارة من يده، أوقفنا عادل صالح جميعًا عن المشاحنات الكلامية، قبل أن يطلق فادي رصاص السؤال التالي في وجهي، فحمدت الله على إنقاذي من ورطة الكذب عليهم، بخصوص علاقتنا أنا وأدهم بصديقة الفراشات الملونة.

- أخبرتني نشوى فوزي أنها كانت مع أدهم في تريانون مصر الجديدة لحظة القبض عليه.

هذا ما قاله مدير تحرير جريدة المستقبل بصوت رخيم.. عبثًا حاولت أن أجد أي شبه بين عادل صالح والحصان فلم أفلح، على الرغم من أنني كلما رأيته طفا على سطح خيالي طيف حصان أبيض، يعدو بسرعة في سباق محموم، حتى عندما كان يتحدث وسط الحشود عن العسكر والسلطة تحت وابل من رصاصات الغدر.. لم أستطع أيضًا الانفلات من أسر تشابهه مع الحصان الأبيض على الرغم من مناخ الرعب، الذي كان يضعضع عظامنا آنذاك. ليس عندي تفسير لهذا الارتباط؛ فوجه الرجل محشو باللحم ويميل إلى السمرة. أما جسده فيخلو من الرشاقة، التي يتمتع بها حصان أبيض معد للمنافسة؛ فعادل صالح ممتلئ بصورة واضحة، ذو كرش صغير يحاول إخفاءه بارتداء جاكت بدلة دومًا. كما أن الشعيرات الخشنة البيضاء المتناثرة بلا نظام في فروة رأسه السوداء تخاصم تمامًا أي شبه مع خصلات الحصان الناعمة، باستمرار مهما كان لونها.. باختصار لا علاقة له ، بالمرة، بالحصان الأبيض الجميل.

- أحدهم شتم الدكتور البرادعي، وهم يقبضون عليه.. قائلًا له: (دعه ينفعك).

كان عادل صالح قد تناول رشفة من القهوة قبل أن ينطق بهذه العبارة، ثم أضاف، ونحن ما زلنا نسبح في بحيرة الذهول:

- هذا ما أكدته لي نشوى فوزي، كما أنهم صادروا اللاب توب الخاص به، وكذلك اللاب توب الخاص بها.

بعد برهة صمت لم تدم طويلًا، وقف زياد أبو سريع صارخًا، وهو يمعن النظر في وجوهنا:

- ألم أقل لكم؟ يا أستاذ عادل.. لقد نصحته بعدم السير وراء البرادعي وجمعيته.. هذه هي النتيجة.

ثم راح زياد يضرب كفًّا بكف وهو يتحسر، ويغمغم بصوت غير مفهوم.. جذبه فادي نجيب من قميصه ليجلس. قام عادل صالح من خلف مكتبه، ووقف بجواري، ثم وضع يده اليمنى على كتف زياد، وقال له بصوت وقور:

- زياد.. انصت لي جيدًا.. مَنْ يتصدَّ للعمل السياسي، يدركْ جيدًا المخاطر التي في انتظاره؛ خاصة إذا كان منحازًا إلى المعارضة، وأدهم شاب شجاع، يعلم المشكلات التي ستواجهه بانضمامه إلى جمعية البرادعي؛ فالنظام الذي يحكمنا غليظ وغبي وفاسد لا يحتمل أية معارضة، مهما صغر شأنها؛ لذا أظن..

قاطعه زياد بعصبية، دون أن يتجاوز حدود الأدب، هاتفًا:

- ولكن يا أستاذ عادل.. ماذا سيفعل البرادعي وبعض الشباب الذين التفوا حوله؟ لا شيء.. ثم هل انضممت حضرتك إلى جمعيته؟

ابتسم عادل صالح لأول مرة منذ استقبلنا هذا المساء، فأدركت على الفور سر الشبه بينه وبين الحصان؛ فالرجل مدعّم برموش أطول مما يجب

مثل حصان شاب ومتأنق ذي عينين ناعستين، وعندما يبتسم تتغير ملامحه كليًا ليبدو وثيق الصلة بحصان رشيق.

قال عادل صالح وهو يوجّه حديثه لنا جميعًا:

- الصحفي الجاد لا يصح له الانضمام إلى أي حزب أو جماعة سياسية، حتى لا يفقد حريته، وإن كان ينبغي له أن يفضح الظلم والاستبداد، في الوقت الذي ينحاز فيه إلى نصرة العدل والديمقراطية؛ لذا لم انضم إلى جمعية البرادعي، وإن كنت أحترم الرجل وأقدّر دوره، وأتمنى له النجاح فيما يطالب به.

لم يعلق أي منا على كلام عادل صالح؛ لأننا فوجئنا بعم مرسي يقرع باب الغرفة، ليخبره أن هناك فتاة تودّ مقابلته فورًا.. نظر مدير التحرير في ساعته، ثم قال وهو يعود إلى مكانه خلف المكتب وبداية ضوء ابتسامة، راح ينير ملامح وجهه:

- يبدو أنها فتاة منضبطة في مواعيدها.. دعها تتفضل.

لوحة بديعة من الفراشات الملونة رفرفت في فضاء الغرفة، قبل أن تدخلها نشوى فوزي.

* * *

13 | في مطعم ألفي بك

لم يفهم عماد عزوز أبدًا حالة الاضطراب التي أكابدها منذ ثلاثة أيام. عبثًا حاولت أن أشرح له أن القبض على أدهم الشاذلي يشرخ مني الصدر دون جدوى، ذلك أني أراني موزعًا بين الخوف الشديد عليه من كوابيس الاعتقال وعذاباته، والفرح لاختفائه، لأن الطريق أصبح خاليًا أمامي إلى قلب نشوى فوزي.. كان عماد ينصت لي بتعجب وأنا أحكي له هذا الكلام، ثم يقول بحدة ظاهرة، مخلوطة بهاء اليقين التام:

- ألم تنصحوه بأن يبتعد عن البرادعي وجمعيته؟ فليتحمل نتائج أفعاله! المشكلة يا معتز أن الناس لا تريد أن تفهم أن جمال مبارك قادم.. قادم.. لا برادعي ولا غيره.

كنا عصر يوم الاثنين قد خرجنا من مقر الجريدة، وتوجهنا نحو وسط القاهرة.. لم تكن بي أية رغبة في العودة إلى البيت والمكوث بمفردي بين حيواناتي وطيوري، التي تعبث على شاشة اللاب توب.. كما لم أتحمس للقاء أي من أصدقاء مصر الجديدة، لقد أصبحت رؤية أي منهم الآن تعذّب مني الروح بعد القبض على أدهم الشاذلي، وكأنني أخشى أن يلمسوا حرير ابتهاجي بذلك في ملامحي؛ لذا، لم يبق أمامي سوى البقاء مع رفيق العمل عماد عزوز.. قررتُ أن أدعوه إلى تناول الغداء في أي مطعم من مطاعم وسط البلد؛ لأحثّه على عدم الذهاب إلى بيته. قفز عماد بجسده الخرافي فرحًا

بدعوتي، فزلزلت الأرض زلزالها، ثم جذبني نحو المصلّى، الذي يحتل غرفة صغيرة بجوار صالة التحرير؛ لنؤدي صلاة العصر سريعًا قبل أن ننصرف.. وعندما عدنا لنغلق باب غرفة الإخراج والتنفيذ، هتف عماد عزوز بصوت عالٍ:

- ما رأيك في تناول الحمام المحشو بالفريك في مطعم الجمهورية؟

رفضت بشدة، لأنني أعد أكل الحمام تحديدًا سلوكًا إجراميًّا لا مثيل له.. لم يستغرب عماد رفضي، فقد كان على علم بموقفي من آكلي الحمام، حيث أصفهم بالوحوش الآدمية. وكم من مرة تلا عليّ عماد الآية الكريمة، التي تؤكد أن تناول الطيور من الأمور الحلال، إلا أنني كنت أحاول أن أجد تفسيرًا لذلك بأن الله، جل شأنه، أحلّها في ذاك الوقت لسبب واحد فقط، وهو أن موارد الطعام كانت شحيحة في ذلك الزمن البعيد؛ خاصة في الصحراء القاحلة حيث ولد الرسول الكريم وعاش ومات - ﷺ - أما الآن.. فلا يمكن قبول فكرة أن نصطاد طائرًا رقيقًا كالحمام لنذبحه ونلتهمه بلذة، ودون رحمة!

اقترحت على عماد أن نتوجه إلى مطعم ألفي بك في شارع الألفي؛ لنأخذ نصيبنا من الكباب والكفتة وطواجن الخضروات؛ ذلك أنني أحب هذا المطعم باتساعه وعراقته، فقد كان أبي رحمه الله يصطحبنا وأنا صغير لنتناول عشاءنا في ذلك المطعم التاريخي، الذي يعود افتتاحه إلى قبل سبعين سنة مضت. فيما بعد علمت من أمي أن والدي كان يدعوها كثيرًا إلى تناول الغداء أو العشاء فيه في فترة الخِطبة، وفي الأيام الأولى لزواجهما، ثم تباعدت المسافة الزمنية بين دعوة وأخرى مع مرور الأيام.. لكن العجيب أن شقيقي

جمال يحرص، كلما جاء إلى القاهرة في زيارة، أن يدعونا جميعًا إلى تناول العشاء هناك مرة واحدة، على الأقل، طوال فترة إجازته.

كانت هذه أول مرة يسمع فيها عماد عزوز اسم هذا المطعم، لدرجة أنه ظن أول الأمر أنني أسخر منه بسبب غرابة اسمه.. لكنني أقسمت له بأن المطعم موجود وأنه بذلك الاسم الغريب، وأنني تناولت فيه الطعام كثيرًا مع أسرتي.. هنا سألني عماد بقلق:

– وأسعاره.. أليس غالي الثمن عليك؟

– طبعًا.. لكن لا تقلق.. فالمكافأة التي صرفها لنا كريم المرشدي تكفي وزيادة لدفع الفاتورة.

ابتسم عماد عزوز وهو يرنو إليّ. كان رئيس التحرير قد منح كلًا منا أمس مكافأة مقدارها أربعمائة جنيه؛ نظير تصميم ماكيت جديد للجريدة.. لكننا فوجئنا أنه خصص لنشوى فوزي المبلغ نفسه، على الرغم من أنها لم تشارك تقريبًا في وضع التصميم. ومع ذلك لم يغضب عماد ولا أنا؛ لأن نشوى فوزي تسطو على مخيلة كل منا بطريقته، ومن الطبيعي أن نفرح لها إذا نالت أية مكافأة، حتى لو لم تكن تستحقها!

قطعنا شارع الجمهورية بتمهل حتى وصلنا إلى شارع الألفي. . تعمّدتُ أن أبحث عن هدهدي الضائع بين الأشجار طوال الطريق، فلم أجد له أثرًا. كنت كلما مررنا بجوار أي شجرة، أهمس بصوت خفيض: (مساء الخير أيها الهدهد الرائع). يجذبني عماد أكثر من مرة إذا طال انتظاري جواب الهدهد أكثر مما ينبغي. وجدتني منزعجًا من الزحام المتزايد.. الفوضى العارمة في وسط المدينة توقد في روحي نيران التوتر وتزيدها اشتعالًا.

كانت وجوه الناس تشي بالهم والكآبة كالعادة، وكانوا يتحركون بسرعة بادية؛ نظرًا لأن بشائر برد ديسمبر بدأت تهل من ناحية النهر. لفت انتباهي امرأة حامل بدينة جدًّا تتحرك مثل فقمة حزينة وتجرجر طفلين خلفها لتعبر الطريق، غير عابئة مطلقًا بالنظر إلى السيارات العابرة، فكادت تصدمها وابنيها سيارة نيسان بيضاء.. شهقت من فرط الرعب، فلم ينتبه عماد الذي كان يتلصص بأدب على أجساد النساء كعادته. خُيل إليّ من بعيد أن قبيلة من الغزلان تقف أمام سينما ديانا، فلما اقتربنا كانت كوكبة من الشابات والشباب ينتظرون أمام باب السينما؛ لمشاهدة فيلم أجنبي، لم أهتم بمعرفة اسمه.

جذبني عماد فجأة من ذراعي الأيمن، فتألمت، ليوجّه نظري نحو امرأة أجنبية فاتنة ترتدي تي شيرت أبيض وشورت أزرق، وتسير بصحبة زوج أو حبيب له ملامح سنجاب مسكين.. كانت مدججة بعيني نعامة مذهولة تحتلان نصف وجهها تقريبًا، بينما جسدها بالغ الرشاقة قبل أن يتحول إلى أسلاك. وقفنا لحظات نتأمل المرأة الأجنبية وسنجابها العجيب، وهما يحدقان في التحف الفرعونية المزوّرة، التي يعرضها أحد الباعة الجائلين.. همس عماد في أذني بعبارة جنسية قبيحة، تؤكد عمق حرمانه ولوعته. ندمت لأنني دعوته لمصاحبتي؛ إذ فجأة انتابني شعور أخرق بأنني أريد أن أنفرد بذاتي، لأتابع المرأة الأجنبية صاحبة عيني النعامة.. كدت أطلب منه تأجيل الدعوة للغد، ولكنه باغتني بعبارة حارقة، أوقفت الطلب على طرف لساني:

- أنا ميّت من الجوع.. أين المطعم يا صديقي؟

أشفقت عليه، وعلى حالي، فاقتدته نحو المطعم بخطوات سريعة.. لكنني استدرت للخلف أكثر من مرة؛ لأختلس نظرات متقطعة إلى المرأة الأجنبية ذات عينيّ النعامة ورفيقها السنجاب المسكين.. عند عبورنا باب مطعم ألفي

بك، أبدى عماد إعجابه بفخامة المكان، فهتف كما هي عادته كلما رأى شيئًا فتنه: (ما شاء الله.. ما شاء الله).. استقبلتنا طائفة من النُدُل بترحاب مفتعل تعوّدت عليه، وإن كان يستفزني أحيانًا. لكنني كنت أكن مودّة خاصة لواحد منهم لا أعرف اسمه، يبدو أنه أكبرهم سنًّا. كان أنفه الطويل وضخامة جسده، علاوة على التجاعيد الكثيفة في وجهه، ونظرة عينيه الشاحبة.. كل ذلك يذكرني دومًا بفيل عجوز، تعرّض لهجوم مباغت، شنته عليه عائلة خارقة من الأسود في عز الظهر!

تعمدت أن أجلس على منضدة بجوار النافذة، لعلني أرى المرأة النعامة مرة أخرى.. لم يكن هناك زبائن كثيرة في ذلك الوقت؛ الأمر الذي جعل صالة المطعم الفسيحة تبدو خالية تقريبًا، بعد أن تناثرت الزبائن في أماكن متفرقة. طلب عماد طاجن بامية مع الأرز ودجاجة مشوية كاملة وبيبسي، أما أنا فقد طلبت كبابًا وكفتة وطبق محشي مشكلًا، مع السفن أب والمخللات.. كنت أعلم تمامًا أنني لن أتناول ربع ما طلبت، وأن عماد عزوز سيلتهم الباقي، بعد أن يزدرد نصيبه كاملًا. تذكرت نصيحة أبي الدائمة: (حاول أن تأكل في أي وقت يا معتز، حتى لو لم تكن جائعًا بما يكفي؛ لأن جهازك الهضمي مصاب بكسل مزمن، يجعله ينفر من التعامل الطبيعي والإيجابي مع الطعام). مددتّ يدي نحو الباذنجان المخلل دون حماس كبير، وأنا أتامل الستائر البيضاء، التي تنسدل على كل النوافذ.. ابتسمت حين رأيت عماد قد قضى على طبق السلطة، قبل أن يأتوا بالأطباق الرئيسة. لاحظ ابتسامتي وأدرك معناها، فانتظر حتى ابتلع ما في فمه، ثم قال ضاحكًا:

- الطعام ألذ شيء في الوجود!

قبل أن أهمس بالتعليق، استطرد موضحًا:

- بالإضافة إلى الحب والنساء أيضًا..

حركت رأسي بالإيجاب، فلم أكن أريد الحديث، فقد فقدت الرغبة في البقاء معه أصلًا. بعد أن راح يعبّ بعض البيبسي في جوفه، سألني باهتمام حقيقي:

- أخبرني يا معتز.. هل أبلغكم المحامي أي جديد عن أدهم؟

بصعوبة، خرج الكلام من فمي:

- لم أتصل بعادل صالح اليوم، ولم يخبرني أحد بجديد!

كان الأستاذ عادل صالح قد اصطحبنا إلى مكتب محام مشهور، يقال له سالم الفلاّح، في مساء اليوم الذي هلَّت علينا فيه نشوى فوزي بفراشاتها الساحرة. ولقد أوضح لنا خال أدهم الشاذلي أن الرجل متخصص في قضايا الحريات والدفاع عن المعتقلين السياسيين، وأنه يتمتع بأنصع سمعة في هذا المجال. نعم.. بهرتْ نشوى فوزي الجالسين في مكتب عادل صالح برقتها وحماسها وقلقها الشديد على أدهم.. صافحتني نشوى بحياد، بينما شدّت على يد جميع من كانوا بالغرفة؛ خاصة زياد أبو سريع، ولا أعرف لماذا؟ تولّى عادل صالح تقديمهم لها، حيث أخبرها أنهم أعز أصدقاء أدهم الشاذلي منذ الصغر.. كان واضحًا أنها لم تلتقِ أيًّا منهم قبل ذلك.

انتبهت إلى أن نشوى فوزي قامت بتغيير فستانها الوردي، الذي كانت تتزين به قبل ساعات وهي بصحبة أدهم، حيث ارتدت بلوزة كحلية ذات خطوط بيضاء عرضية وبنطالًا جينزًا أزرق وحذاءً رياضيًّا أزرق اللون، في حين لملمت شعرها الأسود على شكل ذيل حصان. حكت نشوى وقائع ماحدث في هذا النهار المشئوم كما وصفته، وكانت توجه كلامها إلى عادل صالح بشكل رئيس. رفضت شاكرة أن تشرب شيئًا، عندما ألح عليها

الأستاذ عادل صالح وعم مرسي. استمع أصدقائي إلى واقعة القبض على أدهم الشاذلي بكل جوارحهم.. قالت نشوى إنها كانت تساعد أدهم في تنسيق العمل بخصوص نشاط الجمعية الوطنية للتغيير بعد تزوير الانتخابات، كما فاجأتني حين تحدثت عن حماسهما لتفعيل موقع (كلنا خالد سعيد) على الفيس بوك.. قاطعها فادي نجيب مؤكدًا أن أدهم ألح عليه قبل أسبوعين بضرورة العمل على جمع أكبر عدد من الشباب لهذا الموقع؛ حيث صرخ في وجهه قائلًا: (يجب فضح هؤلاء الجبناء من أمن الدولة، الذين يقتلون الناس بغير ذنب).

أكملت نشوى سرد ما حدث في تريانون بإيقاع لاهث ونبرة متوترة ووجه متجهّم. أحرجني زياد أبو سريع حين أخبرها أنني شاهدتهم، وهم يقبضون على أدهم. رمقتني نشوى بنظرة مستفسرة، فكذبت عليها موضحًا أنني لم أرها؛ لأنني كنت أقف بعيدًا، حين شاهدتهم يدفعون أدهم داخل السيارة الرمادية.. أظن أنها لم تقتنع بما قلت، لأنها لوت شفتيها استخفافًا بطريقة أغاظتني، فلم أعرف ماذا أفعل؟

انقسمت المجموعة إلى فريقين للذهاب إلى مكتب الأستاذ سالم الفلاّح المحامي في شارع قصر النيل؛ وفقًا للموعد الذي حدده لخال أدهم الشاذلي. اصطحب الأستاذ عادل معه في سيارته المرسيدس البيضاء نشوى وزياد، بينما ذهبت مع فادي نجيب ومحمود أبو ماضي في سيارة الأخير.. لم أنطق بحرف طوال الطريق، بل وددتّ لو تركتهم وعدت إلى بيتي.. كنت منهكًا بما يكفي، كما كنت منزعجًا من التواء فم نشوى فوزي احتجاجًا على كلامي. لم نمكث مع المحامي سوى خمس وعشرين دقيقة فقط، تحدث خلالها مع الأستاذ عادل صالح ونشوى فوزي فقط، بينما ظللنا صامتين!

- هل عرفتم أين احتجزوه؟ وهل زاره أحد من أهله؟

صوت ارتطام ملعقة عماد بالأرض هو الذي أفاقني من شرودي قبل سؤاله، الذي طرحه عليّ بفم ممتلئ بإصبع كوسة محشو بالأرز.. تذكرت فرس النهر على الفور؛ نظرًا للاتساع المرعب الذي يميز فم رفيقي في العمل. ضحكت بشدة دفعت الذين يجلسون على المنضدة النائية في الزاوية إلى أن يلتفتوا نحوي ويبتسموا. كدتُ أقول له إن أدهم الشاذلي فقد والدته وهو طفل، ثم غيّب الموت أباه قبل خمس سنوات، وليس له في الدنيا سوى شقيقين وخاله، ولكن الجلبة التي أحدثها سقوط صحن الحساء من يد النادل الفيل نبهتني إلى فوضى عارمة، راحت تنتشر في المطعم في لمح البصر. يا إلهي.. المرأة النعامة وسنجابها المسكين، يقتحمان قاعة الطعام، يتبعهما جيش من الجعارين والقطط السوداء! تذكرت نصيحة جدتي «مآثر»: (إذا جمعك مكان واحد مع قط أسود، فاحرص على ألا تبقى معه أكثر من عشر دقائق فقط؛ حتى لا تصاب بصداع شديد يستمر يومين متتاليين، ولا ينفع معه أي دواء)، ثم أضافت جدتي بحكمتها التاريخية وصوتها الواهن: (أما إذا وجدت نفسك بين مجموعة من القطط السوداء، فاعلم أنك ستظل من أصحاب الحظ السيئ لمدة أسبوع كامل).

أول الأمر، قفزت النعامة فوق المناضد برشاقة غريبة، ثم استعادت علاقتها بالأرض مرة أخرى.. توجهت نحوي لتخطف بمنقارها الطويل ثلاثة أصابع من محشي ورق العنب دفعة واحدة.. لم أضطرب كثيرًا من سلوك النعامة المتهور؛ فجدتي «مآثر» لم تذكر النعامة بسوء أبدًا. سنجابها المسكين ظل يتلصص عليها بعينيه المضطربتين؛ حتى استقر في زاوية بعيدة يقرض بفمه شيئًا لا أتبينه.. القطط السوداء استولت على أفخاذ الدجاج المشوية

وبقايا الكباب. النادل الفيل انحنى على الأرض يلملم شظايا الصحن المكسور.. فم عماد عزوز يزداد اتساعًا كلما ازدرد شيئًا. الجعارين بدأت تتسلق الجدران وقوائم المناضد وأواني الورود ونباتات الزينة الموزعة بإتقان في الزوايا والأركان.. المواء المخيف لقط أسود أفزعني، فنظرت إليه.. كان يشتبك مع رفيقه، حول أحقية كل منهما في قطعة كفتة خطفها من أمامي.

لاحظت أن المرأة النعامة تزداد نحافة كلما أكلت المزيد من محشي ورق العنب! تعجبت فقلت لها (أرجوك.. كفاكِ هذا الصنف من المحاشي).. لم تنصت إليّ حتى قضت على كل ورق العنب أمامي، فتوجهت نحو منضدة أخرى، كان الجالسون عليها قد ارتكبوا الخطأ نفسه؛ إذ طلبوا محشي ورق العنب أيضًا. النُّدُل يلهثون ليرفعوا الصحون الفارغة، التي تزداد أعدادها كل لحظة، ويضعوا بدلًا منها صحونًا أخرى تحتشد بأطايب الطعام. المرأة النعامة تتجه بتمهل نحو آنية ورد بديعة استقرت بالقرب من مدخل المطعم، لتلتهم كل ما فيها في قضمتين اثنتين فقط.. نحافتها في ازدياد غريب حتى صارت سيقانها مثل الأسلاك.

النادل الفيل مازال ينظف المكان من آثار الصحن المكسور.. ما هذا؟ شيء غريب، يتسلل داخلي من فتحة البنطال.. يا خبر أسود.. صف طويل من الجعارين اللزجة اقتحمني، وتسلق ساقي اليمنى. صرخت من فرط الفزع.. الأدرينالين تدفق بغزارة في أوردتي وروحي. وقفت وحرّكت رجلي اليمنى بعنف لأطرد الجعارين فلم أفلح.. النعامة تحركت في اتجاهي ومدت عنقها الطويل نحوي؛ ليقترب منقارها من وجنتي اليسرى. شهقت هلعًا، وملتُ بجزعي للوراء هربًا منها.. رائحتها أعجبتني نسبيًا، ولكن الجعارين اللزجة لا ترحمني، فقد التصقت بساقي تقريبًا. عماد مازال منهمكًا في توسيع

فمه ليحشوه بأكبر كمية من الطعام الذي تبقّى مني، بعد أن ازدرد كل ما وُضع أمامه وأمامي.

الرجل السنجاب انقضّ في لحظة غدر على مجموعة عاثرة الحظ من الجعارين، ضلت طريقها نحو باب الخروج والتهمها في ثانية.. قطة سوداء جريئة قفزت على عماد عزوز، وخطفت منه قطعة كباب.. ياخبر أسود.. لماذا لم ينهرها عماد؟ كيف تركها تقاسمه ما تبقى من الكباب وهو الأكول حتى التخمة؟ جيش من القطط السوداء هجم على صحون عماد؛ ليقتنص ما تيسر له، فلم يتحرك قيد أنملة، حيث ما زال مشغولاً بتوسيع فمه وحشوه بالطعام.

الرعب الذي قذفته في قلبي الجعارين اللزجة والقطط السوداء والنعامة المتطفلة وسنجابها الغدّار جعلني أندفع مهرولًا نحو الباب.. اصطدمت في طريقي بالنادل الفيل، فانخلع قلبي هلعًا. تمتم الرجل بكلام لم أفهمه؛ إذ كنت مهمومًا بالبحث عن باب الخروج؛ لأنني وجدت نفسي أمام باب الحمّام.. وقفت في مكاني حائرًا للحظات وأنا أتصبب عرقًا وخوفًا ولزوجة، فلما انطلقت مهرولًا نحو باب الخروج، رنّ في أذني صوت عماد عزوز صارخًا:

- الحساب يا معتز.. مَنْ سيدفع الحساب؟

* * *

14 | مع حنان المرشدي

لم أصدق أول الأمر أنها ابنة رئيس التحرير؛ فحنان المرشدي فتاة رقيقة وجادة تنفر من الظلم والنفاق، كما أن ملامحها تخاصم تمامًا ملامح أبيها؛ فبعكس كريم المرشدي.. تمتعت حنان ببشرة صافية بيضاء، تنتعش دومًا إذا مسّتها حرارة خفر البنات، أما عيناها السوداوان فواسعتان تشرقان بالطيبة والمحبة، لا خبث الثعالب فيها ولا مكر الشياطين.. في البداية اعتقدنا أنها شقيقة نشوى فوزي؛ ذلك أنها تتمتع ببساطة مشابهة، ولكن صديقة الفراشات هي التي صححت لنا هذا الاعتقاد الخاطئ.

- حنان أحدث صحفية تم تعيينها في المؤسسة قبل قليل.

هكذا قالت لنا نشوى بابتسامة ناصعة، وهي تدخل غرفة الإخراج بصحبة فراشاتها الملونة وابنة خالها لأول مرة. على الفور اندفع عماد عزوز للترحيب بالصحفية الجديدة والإشادة بنشوى، بينما اكتفيت بالتحية والسلام، دون أن أتحرك من مكاني أمام الكومبيوتر، حين لاحظت أن حنان لا تصافح الرجال.. شعاع من الصداقة المتينة أضاء غرفتنا فور دخول الفتاتين، فتعجبت وتساءلت: كيف لفتاة ملحدة مثل نشوى فوزي أن ترتبط بعلاقة صداقة مع أخرى متدينة؟ فحنان المرشدي كانت ترتدي حجابًا عبارة عن إيشارب رمادي اللون، يكاد يغطي شعرها بالكامل، فضلًا عن فستان زيتي يمتد حتى يلامس حذاءها، الذي لا يمكن رؤيته أبدًا إذا كانت

واقفة؛ إذ ينسدل الفستان ليغطيه تمامًا.. كانت أقصر قليلًا من ابنة عمتها وأكثر نحافة فيما يبدو؛ فالفستان الطويل واسع بطريقة، تحجب تضاريس جسدها ومستوى رشاقته.

لم تتركنا نشوى فوزي نغرق في بحر التخمين حول من تكون حنان، وكيف تعرفت إليها صديقة الفراشات؟ حيث أفصحت بعد دقائق معدودات عن أن حنان ابنة خالها الأستاذ كريم المرشدي رئيس التحرير. وقعت علينا هذه المعلومة كالصاعقة.. وقد حاولنا، عماد وأنا، أن نتعامل مع الأمر ببساطة وحياد، ولكن غمامة من الحزن عبرت على جفني عماد؛ ذلك أن صديقي البدين يتعامل مع أية فتاة يراها لأول مرة باعتبارها مشروع زواج قابلًا للنجاح! بغض النظر عن درجة جمالها ورقتها وأناقتها وطبيعة أسرتها، علاوة على موقفها هي منه، هل يعجبها؟ هل تتمناه زوجًا لها؟ كل هذه الأمور لا تهم عماد، فالذي يشغله أن يلقي (السنّارة) فقد تصيب وتصطاد زوجة المستقبل، كما يقول دومًا!

- يا صديقيّ.. نريد أن نهتم بموضوعات حنان إخراجيًا، فهي صحفية مجتهدة.

قبل أن ينطق أي واحد منا بحرف، استطردت نشوى فوزي بنبرة الحماس ذاتها:

- أرجو ألا يظن أحد أن دعوتي للاهتمام بها تعود لكونها ابنة خالي رئيس التحرير؛ بل لأنني واثقة بأنها ستقدم لنا موضوعات صحفية متميزة.

- طبعًا.. طبعًا..

بأداء تفوح منه رائحة المجاملة.. علّق عماد عزوز على عبارة نشوى فوزي، التي لم تنتظر طويلًا، لتعلن لنا بفخر:

- ينبغي أن تعلما أننا، أقصد أنا وحنان، نعارض دومًا آراء خالي السياسية وبشدة.. وأمامه.

هنا تحدثت حنان المرشدي لأول مرة، فقالت بصوت أقرب إلى الهمس:

- كثيرًا ما أنتقد أبي بسبب عبارات المديح، التي يكيلها في مقالاته للرئيس مبارك!

هتف عماد صائحًا، وهو يدق الأرض بقدمه طربًا حتى ارتجت جدران الغرفة:

- برافو.. برافو..

عند هذه اللحظة أشحت بوجهي عن الجميع وعدت إلى الكومبيوتر، أتابع إخراج المادة الصحفية التي بين يديّ؛ حيث اعتبرت انتقاد حنان لأبيها بسبب مقالاته المنافقة يدخل ضمن منطق دلال الفتيات على ذويهن، لا أكثر ولا أقل.

كان الاثنين، وفي الاثنين الذي يليه كنت أجلس وجهًا لوجه مع حنان المرشدي في جروبي؛ تلبية لدعوتها لي بتناول الشاي؛ ابتهاجًا بنشر أول موضوع لها في جريدتنا التعيسة.. الصدفة وحدها جعلتني أتولى إخراج الموضوع صحفيًّا؛ حيث انهمك عماد في توضيب الصفحة الأولى، بينما انصرفت نشوى فوزي وفراشاتها مبكرًا لتصطحب أمها إلى طبيب الأسنان. وهكذا وصلني من سكرتير التحرير تحقيق عن الدور المتنامي للفيس بوك بين الشباب، قمت بإخراجه دون أن أعرف مَنْ أجرى هذا التحقيق؟ لم أكتشف أن حنان المرشدي هي التي أجرته، إلا بعد ما انتهيت منه.. آنذاك قرأته بنصف تركيز؛ حيث اكتفيت فقط بالاطلاع على العناوين، قبل أن أشرع في توضيبه.. لم يكن تحقيقًا مميزًا، وإن كان معقولًا باعتباره أول تحقيق صحفي، تتصدى لإجرائه صحفية مبتدئة.

لكن الفرحة العارمة التي غرقت في بحرها ابنة رئيس التحرير، فور نشر التحقيق كانت فوق الوصف.. في البداية قامت بشراء علب جاتوه، ووزعته على كل من في الجريدة ابتهاجًا بلذة النشر للمرة الأولى؛ حيث جعلت حسنين الفكهاني يحمل العلب، ويمر بها على مكاتب الصحفيين والإدارة؛ ليضع أمام كل واحد قطعة جاتوه، فلما وصل إلى غرفتنا فوجئنا بأن حنان المرشدي حملت عنه علبة الجاتوه، وقدمتها إلينا بنفسها لنختار ما يحلو لنا.. لم أشأ أن أتناول شيئًا؛ ذلك أن نوبة اشمئزاز عنيفة عصفت بمعدتي، حين رأيت الرجل الضفدع حسنين الفكهاني يحمل علبة الجاتوه. (تجنب النظر طويلًا إلى ضفدع؛ حتى لا تصاب بالغثيان، كلما كانت الساعة العاشرة صباحًا) تذكرت نصيحة جدتي «مأثر» هذه، وأنا أعاين حسنين الفكهاني، فأصابتني قشعريرة تقزز. شكرت ابنة رئيس التحرير على كرمها دون أن أقف، ثم استدرت نحو الكومبيوتر أستأنف ما بدأته.

خطف عماد عزوز علبة الجاتوه من بين يدي حنان، وهو ينثر عليها آيات الشكر والامتنان، لكنه طلب من حسنين الفكهاني أن ينصرف.. مسح الرجل الضفدع بعينيه الجاحظتين ملامحنا جميعًا، دون أن يتحرك سنتيمترًا واحدًا.. كانت هذه أول مرة أسمع فيها صوت حنان المرشدي يعلو بحدة، قبل أن تهتف بحماس وسط الحشود؛ إذ أشارت للرجل بيدها قائلة له بحزم:

- حسنين.. اذهب إلى عملك من فضلك.

وقاحته فاقت كل تصور، فلم يتحرك أيضًا، حيث ظل بؤبؤا عينيه يتحركان باضطراب بيننا جميعًا، قبل أن يقول بصوت أشبه بالنقيق:

- يا أستاذة حنان.. ومَنْ سيحمل عنك علبة الجاتوه؟

بسرعة البرق، وبغيظ حقيقي، ردَّ عماد عزوز:

- ومالك أنت؟! تفضل واغلق الباب من الخارج!

ثم أضاف، وهو يضحك بملء فيه، ناظرًا إلى حنان بامتنان:

- هذه العلبة ستظل في الغرفة ولن تخرج منها أبدًا.. إلا على جثتي!

ضحكتُ بشدة، ووجدتني أعقب قائلًا وأنا أرنو إليها، وأشير إليه:

- وما أدراكِ ما جثته؟

شاركتنا حنان الضحك بقلب منشرح، وهتفت:

- معك حق يا أستاذ عماد.. هذه العلبة لن تخرج من هنا أبدًا!

ثم التفتت حنان نحو حسنين الفكهاني آمرة إياه بحدة:

- حسنين.. اذهب إلى عملك.

حصافتها في التعقيب على عماد عزوز أعجبتني؛ فنظرت إليها متأملًا ملامحها وجسدها. كانت حنان المرشدي ترتدي إيشارب أخضر مزدانًا بورود صغيرة زرقاء وبلوزة ذات لون أخضر فاتح فوق جيبة سوداء تصل حتى قدميها، وهي الثياب ذاتها التي واجهت بها الذئاب والكلاب البرية، على مشارف الميدان، عندما كانت تشدني بقوة.. شعرت للحظة أنها تسدد سهام عينيها في جلدي، فجفلت، وعدت إلى الكومبيوتر أعبث بأصابعي على (الكيبورد) دون هدف محدد، شاعرًا أن السهام ما زالت تنطلق من عينيها لتخترق ظهري تباعًا.

مع خروج حسنين الفكهاني مطرودًا من غرفتنا، راح عماد عزوز يقبض بيده على قطع الجاتوه ليلتهم منها ما تيسر بفرح طفولي.. كدت أسألها لماذا غابت شمس نشوى فوزي اليوم؟ لكنني تراجعت؛ فمنذ أن اعتقلوا أدهم الشاذلي قبل عشرة أيام تقريبًا، ونشوى فوزي لا تعير العمل الاهتمام اللائق

به أو بها، فتنصرف مبكرًا أحيانًا، أو تأتي متأخرة أحيانًا أخرى، علاوة على أنها غابت أكثر من مرة، دون أن تشرح لنا السبب في اليوم التالي. نعم.. لقد تغيرت نشوى بصورة لافتة في هذه الفترة، فقلّ كلامها معنا، واختفت ابتساماتها أو كادت، كما أنها لم تبدل تسريحة شعرها أبدًا؛ إذ تقوم بلملمته للخلف على هيئة ذيل حصان، حتى فراشاتها تعرّضت ألوانها الزاهية لدرجة ما من الشحوب، ومن عجب أنه كان الشحوب نفسه، الذي رأيت آثاره، عندما انخرطنا جميعًا في بكاء حار داخل المستشفى على الذين رحلوا غدرًا!

- هل أترك لك قطعة جاتوه؟

أخرجني عماد عزوز من شرودي؛ فإذا بي أرى حنان المرشدي، ترمقني بنظرة تحيرت في تفسيرها.. إنها ما فتئت واقفة في غرفتنا، بينما آثار معركة الجاتوه، تبدو واضحة بين فكي عماد.

وقفت تأدبًا ودعوتها للجلوس، مغمغماً بصوت خفيض، موجهًا حديثي نحو عماد:

- أشكرك.. لا تترك لي شيئًا.. بالهناء والشفاء!

ابتسمت حنان وهي تتابع لهفة عماد على التهام أكبر كمية من الجاتوه، فسألته ضاحكة:

- هل تعشق الحلويات إلى هذه الدرجة يا أستاذ عماد؟

انتظر عماد حتى ازدرد ما كان يملأ فمه، وأجاب بفخر غريب:

- نعم.. أحبها كثيرًا.. لقد التهمت خمس قطع حتى الآن، ولم يبق إلا اثنتان فقط ، ثم لا تنسي أن الجاتوه سيد الحلويات!

أومأت حنان برأسها تأييدًا لمقولته، قبل أن أضبطها تختلس نظرة سريعة نحوي لم أفهم مغزاها، فأسدلت جفنيها من فرط الحياء.. استأذن عماد

للذهاب إلى الحمام؛ ليغسل يديه من بقايا الجاتوه، فنهضت حنان واقفة لترميني بهذه العبارة المفاجئة:

– أستاذ معتز.. أنا معاتبة لك لو أذنت لي!

وقفت لا أدري ماذا أفعل؟ تأملت صورة الهدهد، فهمست حنان بصوتها الرقيق:

– أخبرتني نشوى أنك من قمت باختيار هذه الصور وتعليقها، وهي فكرة جميلة، ولكنها لا تمنعني من معاتبتك !

هذه أول مرة تشير فيها حنان المرشدي إلى صور الحيوانات والطيور، التي تزيّن غرفة الإخراج، على الرغم من أنها تزورها كل يوم تقريبًا؛ حيث تجلس مع نشوى فوزي بعض الوقت، ثم تنصرف.. ظننت أنها قد تكون عاتبة لأن طريقة إخراج التحقيق، الذي أجرته لم تَرُق لها.. سألتها بنبرة مضطربة:

– خيرًا.. اللهم اجعله خيرًا.. ماذا فعلت؟

بالتفاتة من رأسها ممتزجة بدلال أنثوي محتشم، أجابت حنان:

– لأنك رفضت أن تتناول الجاتوه الذي أحضرته!

ضحكت بصوت مسموع، وقلت بسرعة:

– لا.. أبدًا.. أنا لا أحب الحلويات.. أعتذر بشدة.

قفزت حنان فوق لساني قائلة:

– لكنك تحب الشاي.

ثم استطردت، وهي تتأمل ملامح وجهي بعمق:

– سأنتظرك في جروبي غدًا الاثنين، الساعة الرابعة عصرًا.

مفاجآتها المتتالية لم تمنحني الوقت الكافي للتفكير السليم؛ حيث انصرفت بحركة سريعة فور عودة عماد عزوز من الحمّام، تاركة إياي أرنو إلى صورة الهدهد بصمت، بينما لم يتمالك عماد شهيته المفتوحة دومًا، فأقدم على التهام ما تبقى من الجاتوه، وهو ينظر إليه مترنمًا بأغنية صباح: (أكلك منين يا بطّة.. أكلك منين)!

* * *

15 | في جـروبــي

أغرب ما حدث عصر يوم الاثنين 20 ديسمبر هو عثوري أخيرًا على صديقي الهدهد الضائع.. رأيته يقف متباهيًا بتاجه الجميل، فوق فنن قصيّ من أفنان شجرة معمّرة، تنتصب قائمة كحارس أمام محل جروبي في ميدان طلعت حرب! فجأة.. قبل أن أدلف إلى الداخل، تناهى إلى سمعي حفيف أوراق الشجرة، فانتبهت وأدرتُ رأسي لأعلى، فإذا بي أرى هدهدي الغائب ينظر إليّ بابتسامة رائقة ويقول:

– مساء الخير يا معتز!

رقص قلبي طربًا، فمنذ أن هجرني قبل أسابيع، وبحثي عنه لم يفتر.. صحيح أنني لم أفكر في أن يكون قد طار كل هذه المسافة فوق أشجار شارع الجمهورية، ليؤثث عشًّا جديدًا في شارع طلعت حرب، إلا أنني قد وصلت في رحلة البحث عنه إلى مشارف شارع عماد الدين، وفشلت بامتياز في العثور عليه. بصدر منشرح وقلب مغتبط، همست وأنا أرنو إليه بمحبة حقيقية:

– مساء الخير أيها الهدهد الرائع.

(من حسن الطالع أن يلقي عليك هدهد جميل تحية المساء) هكذا كانت تقول جدتي «مآثر»، وهي تسعل بشدة، أما أنا فلم أتردد كثيرًا في قبول دعوة حنان المرشدي، التي دسّتها في أذني أمس لتناول الشاي.

أول الأمر.. خشيت أن يعلم رئيس التحرير بأنني ألتقي ابنته سرًّا، فيغضب مني فيشتط، وينهي خدماتي، وهو أمر لا أحتمله الآن؛ فالرجل قاسي القلب غليظ المشاعر، لا يجيد سوى فن النفاق. وقبل شهور أطاح بزميلنا الشاعر والصحفي حامد ياسين، الذي برق نجمه وسط الآلاف وهو يلقي قصائده الثورية، حيث أنهى خدماته؛ لأنه انتقد في حوار، أجرته معه صحيفة «العربي» المعارضة، صفوت الشريف رئيس مجلس الشورى. تُرى.. ماذا سيفعل بي إذا علم أنني أواعد كريمته في مكان عام؟ لن يصدقني البتة إذا أخبرته أنها هي التي طلبت هذا اللقاء، وأنه ليس بيني وبينها أي شيء على الإطلاق.. أعرف أنني أغامر بذهابي إلى جروبي، لكن الفضول بمعرفة تفاصيل أكثر عن حياة نشوى فوزي وطبيعة علاقتها مع أدهم الشاذلي جعلاني أخوض عباب بحر المغامرة هذه وأقبل الدعوة، فضلًا عن أنها لم تعطني فرصة لرفضها أو حتى إرجائها؛ إذ انصرفت أمس هاربة، وغابت اليوم عن المكتب عامدة فيما يبدو. في الصباح سألت عماد عزوز عن رقم موبايلها حين اكتشفت غيابها؛ كي أعتذر لها بأية حجة، فأنبأني أنه لا يعرفه.. لم أبذل أية محاولة أخرى للبحث عن رقمها، وقررت أن أتوكل على الله وأذهب إلى الموعد المحدد.

المناخ كان دافئًا وممتعًا، فتسكعت سيرًا على الأقدام من الجريدة، حتى وصلت إلى مبتغاي.. تأملت الناس والشوارع والزحام والفوضى ولعنتها. للأسف لم أقدّر الوقت بدقة؛ فوصلت متأخرًا عن موعدي خمس عشرة دقيقة. طوال الطريق لم أتخلص من خاطر جميل، تمثل في أن تصطحب حنان المرشدي نشوى فوزي معها.. رويدًا رويدًا سيطر هذا الخاطر على مشاعري، وجعلني أهفو إلى لقاء حنان، ومع ذلك أخفقت في حساب الزمن وتأخرت.

للأسف كانت حنان تجلس هناك بمفردها تقرأ كتابًا ما.. توقفت لحظات محبطًا قبيل أن أصل إليها. تزيّت حنان إيشارب أزرق وبلوفر كحليًّ تحت جاكت جلدي غالي الثمن.. حين نهضت لاستقبالي، تبيّن أنها ترتدي جيبة جينز بنية أيضًا. لم أمد يدي لمصافحتها احترامًا لقرارها بعدم مصافحة الرجال.. اعتذرت عن التأخير، فابتسمت قائلة:

- لا عليك.. أنا أدري طبيعة عملكم.

(واحة الغروب) هو عنوان الكتاب الذي كانت تطالعه، حيث وضعته جانبًا.. ألقيت نظرة عامة على المكان، فوجدته مزدحمًا إلى حدٍ ما. أغلب الجالسين من العشاق الشباب. جاءني نادل يسألني ماذا أريد؟ كان يشبه خروفًا معدًّا للذبح في عيد الأضحى.. نظرت إلى المنضدة، فوجدت حنان قد طلبت عصير برتقال.. رجوته أن يحضر لي شايًا بالحليب، وتصفحت الكتاب مجاملة لها، وسألتها:

- أتحبين القراءة؟

ابتسمت واعتدلت في جلستها، ثم همست:

- الشخصية الناجحة يجب أن تقرأ كثيرًا، حتى تتسع آفاق المعرفة لديها، فما بالك بالصحفية!

عقّبت بصوت هادئ:

- معك حق.

توقف الكلام فجأة، فارتبكت واضطربت.. نظرت حولي أعاين الجالسين بحركة سريعة من عينيّ، أما حنان فسألتني من باب تجاوز الصمت، الذي لازمنا فيما يبدو:

- ألا تحب القراءة؟

قبل أن أجيب، أردفت بنبرة متحمسة، وهي تمسك بالكتاب وتشير نحو غلافه:

- هذه رواية بهاء طاهر (واحة الغروب)، التي حازت جائزة البوكر في دورتها الأولى.

ابتسمت وقلت لها:

- بلى.. أحب القراءة، ولكن لا وقت لديّ حاليًا لأطالع روايات، وإن كنت سمعت عن هذه الرواية من قبل، عندما نشرنا خبرًا عنها في جريدتنا!

- والشعر؟

أثارني سؤالها، ولكنني أجبت بأسلوب دبلوماسي:

- يعجبني الشعر إذا كان جميلًا ورقيقًا، ولنا صديق مفتون به، ويطلعنا على أهم القصائد.

بحزن مخلوط بفرح، هتفت حنان:

- تقصد أدهم الشاذلي.. أليس كذلك؟ الله وحده قادر على فك سجنه!

كيف عرفت أدهم الشاذلي؟ ومَنْ أخبرها أنه يهوى الشعر ويلقيه علينا؟ هل تتابع المقالات الساخنة التي يكتبها خاله الأستاذ عادل صالح في جريدة المستقبل، فاضحًا فيها جبروت أمن الدولة؟ فمنذ اليوم التالي لاعتقال أدهم، وعادل صالح لا يتوقف عن إدانة السلوك الاستبدادي للنظام ولأجهزته الباطشة في كل مقال يكتبه. وقد وصل به الأمر أن كتب رسالة مفتوحة وحادة، وجهها إلى وزير الداخلية حبيب العادلي، حمّله فيه المسؤولية كاملة عن أي مكروه يتعرض له ابن أخته.. هذه المقالات لاقت تعاطفًا كبيرًا من القراء، لدرجة أن بعضهم طالب بفتح صفحة على الفيس بوك، عنوانها

(افرجوا عن أدهم الشاذلي)، كما أن الجمعية الوطنية للتغيير وضعت صورة لأدهم على موقعها على الإنترنت، واصفة إياه بأنه (أسير أمن الدولة).

ترى.. هل قرأت حنان المرشدي مقالات عادل صالح التي تناول فيها مناقب أدهم، وكيف تولى تنشئته بعد رحيل والدته؟ فحبَّب إليه الفن والفكر والمعرفة، وعلمه الشعر وكيف يتذوقه؟ بخبث وارتباك سألتها محاولًا أن أبدو محايدًا:

- من أين عرفتِ أدهم الشاذلي؟

أجابت بسرعة أكبر مما توقعت:

- رأيته مرة بصحبة نشوى، وجلست معهما قريبًا من الساعة، قبل أن يعتقلوه بنحو أسبوعين.. إنه شاب مثقف ورائع.. يارب أنقذه من كابوس الاعتقال.

نبضات قلبي في اضطراب متزايد، بينما حنان ما زالت تصب الزيت على النار، دون أن تدري:

- إنهما مرتبطان عاطفيًا بقوة.. وينتويان الزواج!

قُضيَ الأمر، وتمت عملية اغتيال فؤادي بنجاح على مقاعد جروبي.. فليبقَ أدهم الشاذلي رهن الاعتقال إلى الأبد.

ثم فجأة سألتني حنان بجدية:

- أنتما صديقان منذ الطفولة.. هكذا أخبرتني نشوى.. أليس كذلك؟

أنقذني النادل من الإجابة لأن دموعي كانت على شفا حفرة من الانهيار على وجهي؛ إذ أحضر لي الشاي بالحليب، فاستأذنت في الذهاب إلى الحمّام..

كدت أتعثر في قوائم المناضد والكراسي وأنا أنصرف، ولكنني تمالكت نفسي. أكره مكان الحمّام في جروبي؛ لأن الوصول إليه يستلزم أن تنزل درجًا طويلًا تحت الأرض؛ الأمر الذي يشعرني بانقباض شديد. ابتسم لي بتودد رجل نظافة نحيف يجلس على كرسي متهالك أمام الحمّام لينال ما تيسر من بقشيش. لم أستجب لابتسامته، فالدموع الساخنة التي ذرفتها فور نزولي الدرج أجّجت داخلي نيران الغل، وحرمتني من التفاعل الإيجابي مع الابتسامات التي تلقى على أبواب الحمامات تقربًا وزلفى! جففتُ دموعي وحاولت أن أستعيد ملامحي الطبيعية بجهد خارق، ولكن عند خروجي من باب الحمّام رأيت رجل النظافة قد صار كلبًا يلهث، وهو يرمقني بتوسل.. نحافته أكثر حدّة مما سبق، حين كان رجلًا قبل قليل.. انزعجت بشدة وراح الأدرينالين يعبث بي، على الرغم من أن الرجل الكلب لم يبرح الكرسي، الذي كان يجلس عليه قبل دخولي، فلعنته وحمدت الله، فجدتي «مآثر» كانت تردد دومًا: (الكلب حيوان نجس.. فلا تقربوه حتى لا تصابوا بسعال بائس، يلازمكم أبد الدهر).

اجتاحتني عاصفة قوية في الهروب من المكان.. رنّ هاتفي المحمول، كان زياد أبو سريع يسأل أين أنا؟ وأخبرني أنهم سيلتقون الليلة للبحث في أمر أدهم الشاذلي؟ كرهت زياد كما كرهت أدهم من قبل. لا أعرف كيف قادتني قدماي نحو باب الخروج.. أوقفني نادل متعجرف يحتل نصف وجهه أنف نسر متطفل، طالبًا مني أن أذهب إلى الآنسة التي تجلس هناك. التفتّ حيث أشار، فرأيت حنان المرشدي، تبتسم وتدعوني لمجالستها.

– إلى أين ستذهب يا معتز؟ هل حدث شيء لا سمح الله؟

سألتني حنان بخوف حقيقي وقلق واضح. لم أجب، لانشغالي بالبحث عن أوجه الشبه بينها وبين نشوى فوزي.. صوّبت عينيّ نحو ملامحها بتركيز

شديد. مرّت جميع الألوان على وجهها لحيائها الشديد؛ فصارت تتقلب من الأصفر إلى الأحمر إلى الأزرق وحتى البنفسجي. لم تجد شيئًا تفعله أمام إصراري على النظر إلى وجهها بتمعن، سوى أن تنكّس رأسها وتنقر فنجان الشاي بأصابعها، بحركة لا تخلو من توتر.. أخفقت في العثور على شيء ما في قسماتها يشبه نشوى فوزي.. البقاء معها صار عبئًا لا تحتمله روحي الحزينة والمغدورة؛ فقد صارت مثل غزالة ضعيفة، لا حول لها ولا قوة.. كذبتُ عليها وقلت بحزن مفتعل:

- والدتي مريضة.. عن إذنك!

ثم قمت فجأة متوجهًا نحو باب الخروج.. سمعتها تصيح:

- معتز.. انتظر من فضلك.. سأوصلك بسيارتي!

لم أنتظر، وأسرعت خطواتي نحو شارع قصر النيل.. الدموع التي تنهمر من عينيّ بغزارة تشوش عليّ رؤية ما يحدث في الشارع المزدحم. مئات من الرجال يتحركون كقطيع حيوان النو الذي يهرب من قسورة، والنساء صرن مثل طيور البطريق تتدافع وتتلاطم على الشاطئ؛ هربًا من هجوم الفقمات.. زحام مخيف وصخب بلا حدود. كرهت الشارع والناس والسيارات.. دفعني أمامه رجل بدين، كان يسير بسرعة، محاولًا أن يتجاوزني، فكدتُ أنكفئ على وجهي. لم يعتذر ولم يلتفت إليّ.. لمحت طائرًا لم أتبين ملامحه يعتلي طربوش مصطفى كامل، الذي يتوسط تمثاله الميدان الذي يحمل اسمه.. لم يكن الهدهد بطبيعة الحال.

ندمتُ بشدة لأنني نسيت أن أبحث عن صديقي الهدهد عند خروجي من جروبي؛ حيث كان في استقبالي ساعة حضوري. أذان المغرب يقرع أذني من زوايا مختلفة.. كنت قد وصلت إلى جامع الكيخيا؛ فحمدت الله أنني

سأصلي المغرب حاضرًا. الهدوء الذي يخيّم على فضاء الجامع أنساني نشوى فوزي وأدهم الشاذلي لفترة. توضأت ونويت أصلي ركعتين تحية للمسجد. طاردت مسامعي عبارة حنان المرشدي (إنهما مرتبطان عاطفيًا بقوة.. وينتويان الزواج)؛ فبكيت واكتشفت أنني أديت صلاة مشوشة.. اقترب مني رجل عجوز مزوّد بلحية بيضاء، له أنف طويل مثل منقار طائر جليدي، وهمس في أذني قائلًا: (ابكِ يا بني.. فالدموع تمسح الذنوب).. كدتُ أقول له إن صديقي خطف مني حبيبتي، ولكنه انصرف بعد أن ألقى نصيحته واختفى.

عند خروجي من باب الجامع أصابني الرعب؛ لأنني لم أجد حذائي ولا جوربي. كظمت غيظي بصعوبة، ولعنت أهل القاهرة كلهم الذين يسرقون الأحذية من أمام الجوامع.. اقترح علي خادم المسجد أن يعيرني قبقابًا أسير به.. وافقت مضطرًا. بعد ثلاث خطوات اكتشفت العذاب، الذي يسببه لي السير بقباب في شارع الجمهورية. قررت التخلص منه عند أقرب شجرة، أو عمود نور، وبالفعل بعد أقل من خمسة أمتار كانت شجرة متوسطة العمر تتمتع بكثافة الأغصان، تقف بزهو أمام مطعم فول وطعمية.. وقفت بجوارها وسحبت قدمي من القبقاب، تاركًا إياه يتكيف مع وحدته خارج الجامع. وهكذا تركت القبقاب على رصيف شارع الجمهورية، وأنا أتلصص على المارة حتى لا يراني أحد، وأنا أهجر هذا الحذاء الخشبي!

ابتسمت وقلت لنفسي: (ما المشكلة أن أسير حافيًا وسط العاصمة؟ ستتسخ قدماي لا أكثر، وقد تُصاب من التعثر في حجر أو يخترقها مسمار، وليكن.. أُحرج أنا أن يراني الناس هكذا؟ وهل هناك أحد ينظر إلى أحد في هذه المدينة الملعونة؟ ثم إنني لم أجرّب السير حافيًا من قبل، قد تكون هناك متعة خفيّة لا أدركها، فلماذا أحرم نفسي منها؟ لا تنسَ يا معتز أن جميع

الحيوانات والطيور تتحرك حافية وتستمتع بحياتها، فلا تشكو ولا تتبرم. حتى صديقي الهدهد، الذي يزدان رأسه بتاج ساحر، لا يستحي أن يرفرف حافيًا ويحط على الأرض بلا حذاء، فلأتوكل على الله وأتحرك من تحت هذه الشجرة نحو البيت سيرًا على الأقدام.. لن أستقل المواصلات بعد اليوم، إذا نجحت التجربة ووجدتني أستمتع بالسير حافيًا في الطرقات العامة).

فجأة سمعته.. إنه هو.. صديقي الهدهد الذي اقترب فوقف على غصن صغير، حتى صار قاب قوسين أو أدنى مني.. تاجه الجميل أدهشني كالعادة، كما يذهل نشوى فوزي دومًا. خطر لي أن أمد يدي لألمسه، ولكني خفت أن يهرب فتراجعت. تأملني بحزن فترة، قبل أن يقذف في أذني بصوته الرقيق هذا العتاب الموجع:

- لماذا تكذب يا معتز؟

* * *

16 | في سيرينجيتي

نعم.. إنها سيرينجيتي. أخيرًا وصلت إليها. لا أعرف كيف؟ المهم أنني الآن أجلس فوق ظهر فيل مسالم، وأتجول بهدوء في هذه المحمية الساحرة، سيرينجيتي حلم العمر وواحة الروح.. سيرينجيتي مهد الحياة البريّة في أفريقيا كلها.. كم اشتقت إليكِ يا أجمل الغابات وأكثرها سحرًا وغموضًا وإثارة. استقبلني الفيل بترحاب على مدخل المحمية، قال لي إنه مولود هنا في هذه المحمية، ولكن والده جاء إلى تنزانيا واستقر هنا هربًا من حروب القبائل، التي اجتاحت رواندا قبل ثمان سنوات، وأدت إلى أن يسطو الناس على الغابات، ففرَّ كثير من الحيوانات خوفًا وفزعًا من بطش الإنسان، أما أمي فولدت هنا، وقد تزوجت والدي فور وصوله خائفًا وجائعًا.. ابتسم صديقي الفيل، وهو يقول لي: أظن أنها أحبته من النظرة الأولى، ثم وقف بجوار شجرة صغيرة، حيث طلب مني أن أستعين بها للصعود على ظهره.. نفذتُ طلبه بهدوء وصعدت فوق ظهر الفيل.

مشهد المحمية من هذا الارتفاع رائع وبديع.. تحرك بي الفيل ببطء نحو الشرق. من فضلك.. انتظر أيها الصديق؛ لأتأمل ظباء الإمبالا وهي ترعى بمحبة، هكذا قلت له. عددها يقترب من الخمسة عشر.. الكل منهمك في تناول ما يملأ معدته من العشب الطازج، إلا هذا الذكر الشرس، الذي يتحرش بأنثى، لا تعبأ بمحاولاته في التزاوج. ياالله.. من أين انقض الذكر

المنافس؟ معركة حامية تدور رحاها الآن بين الذكرين من أجل الظفر بالأنثى، التي مازالت تلتهم العشب بشراهة. تبتعد قليلًا كلما اقترب الذكران منها أثناء الصراع، ولكنها لا تعيرهما الاهتمام المأمول. قرونهما حادة وطويلة ومخيفة.. يتناطحان بغل وعصبية، فيثيران النقع، وينتشر الغبار في الجو وتشتبك غابة القرون لتشكل مشهدًا مغريًا.

أدير الكاميرا الفيديو التي أحضرها لي شقيقي جمال من الكويت. أسجل لقطات نادرة؛ حيث يختفي الذكر الخاسر فجأة من ساحة المعركة، تاركًا خلفه نصف قرن مكسور وآثار الغبار.. يقترب الفائز من الأنثى مختالًا، فتستقبله بدلال وغنج حتى يعتريه الجنون، فينقض عليها ويتلذذ بها، فتستمتع به ويعزفان مناجاة صاخبة. تفوح في الأفق روائح غرام ساخنة.. يستعجلني الفيل أن نتحرك، فالمحمية شاسعة، والنهار ما زال في مهده، هكذا يقول لي صديقي الضخم. أذعن لرأيه، فنتجه نحو الشمال.. أتابع الحركات البهلوانية لقرود البابون على الشجر، فأضحك وأنتشي. يلتقط فيلي المسالم بخرطومه الطويل حزمة من أوراق شجرة عتيقة ويدسّها في فمه.. أمد يدي لألتقط بعض أوراق الشجر، وأمضغها.. أكتشف طعمها اللذيذ، فأتناول المزيد منها، وأقول ضاحكًا: معك حق صديقي الفيل.. لا يوجد ألذ من ورق الشجر كوجبة إفطار شهية.

يقفز قرد مشاكس رأسًا من فوق غصن متدلٍّ على ظهر الفيل، فلا أرتعب منه ولا أخاف.. يمنحني قبلة على خدي الأيسر بود ويناولني إصبع موز. أشكره وأشدّ على يديه، فيتركني ليقفز مرة أخرى نحو شجرة مجاورة.. ألمح طاووسًا متغطرسًا يقف بعيدًا وحيدًا، أهمس للفيل أن نقترب منه لألتقط له بعض الصور، بعد أن لاحظت أنه بصدد التباهي بذيله المزركش. ترمقني

سلحفاة شابة تستريح بجوار أكمة صغيرة من الأشجار القصيرة، فأسدد بصري نحوها معجبًا.. تسحب رأسها للداخل خجلًا، فتختفي تحت قبة ظهرها المعدني.

أصوات مزعجة تخترق أذني بحدة.. غبار كثيف يسد الرؤية.. روائح غدر تسمم هواء الغابة. أسأل: ماذا يحدث صديقي الفيل؟ إنها الضباع تركض، يقول الفيل بامتعاض، وهو يشير بخرطومه نحو منخفض ترابي، تتوسطه بركة طينية، ما أحببت الضبع أبدًا.. رجوتُ صديقي الفيل أن ينحرف بعيدًا عن هذا المنخفض؛ ذلك أن الضبع هو الحيوان الضاري الوحيد الذي لا أطيق رؤيته.. ملامحه توترني، وفمه المفتوح دومًا يبرز أسنانه وأنيابه بصورة مقززة ومرعبة، كما أن وقاحته فاقت كل تصور؛ فهو الحيوان الوحيد الذي يتجرأ على مهاجمة أسد! لا تخشى الضباع ملك الغابة، وتحتشد بكل قوتها لتسرق منه فريسته بتبجح لا حدود له. أما قساوة قلب الضبع، فلا يمكن احتمالها، فهو ورفاقه الأوغاد، لا يتورعون عن الانقضاض على فريسة حية، ينهشون لحمها ويأكلونها قطعة قطعة بدءًا من المنطقة الخلفية، بينما عذابات الضحية تزداد كل لحظة، وصراخها يشطر القلب! يفعل الضبع ذلك بدم بارد وقلب غليظ، بعكس الأسد والنمر والفهد، هؤلاء الأصدقاء النبلاء، خاصة ملك الغابة؛ لا يمكن لأي منهم أن يشرع في التهام فريسة قبل أن يخنقها ويقتلها أولًا.. إنه يرأف بها ويشفق عليها قبل أن يقضم لحمها.

هناك شيء آخر يجعلني أشمئز من الفهد، يتمثل في كوني لا أستطيع أن أفرق بين الذكر والأنثى.. لا في الشكل ولا في درجة الوقاحة! حتى الأعضاء التناسلية لكل منهما تتشابه بصورة مذهلة، فللأنثى قضيب مثل الذكر، والعلماء حائرون في تفسير هذه الظاهرة الغريبة.

يا الله.. لماذا لم تبتعد صديقي الفيل عن هذا المشهد المروّع.. قبيلة الضباع تعدو نحو ذكر جاموس عاثر الحظ، علق في بركة طينية حتى أصبح عاجزًا عن تخليص نفسه. يا الله.. إنها أكثر من عشرة ضباع تقترب منه بحذر؛ خشية أن تنزلق أقدامها في الطين. ينقض فوق ظهر الجاموس ضبعان، بينها ثلاثة يجرجرونه من مؤخرته ليخرجوه من الوحل، وهم ينزعون لحمه بنهم ووحشية.. صراخه فوق الاحتمال. أرجوك صديقي الفيل أبعدني عن الضباع وجبروتها.

يقول الفيل لا يوجد طريق آخر سوى أن نلتف حول المنخفض.. أخبره.. رجاءً ابعد عن هذا المنخفض المشئوم بأية وسيلة.. لا أستطيع، ففي الجانب الآخر، تستقر عائلة خارقة من الأسود يبلغ عددها عشرين أسدًا يا معتز! وهل تخشى الأسود يا صديقي الفيل؟ لا.. لا أخشاها، ولكنني لا أحب صحبتها أو رؤيتها. وأظن أنها تبادلني المشاعر السلبية نفسها! ما هذا الصوت؟ سرب من النسور الجائعة يقرر الهبوط على الأرض.. حركة الهواء المفاجئة والصوت الغريب الناجم عن رفرفة أجنحتها جعلاني أنظر إلى السماء. يقود السرب نسر مغرور وحازم. يتوجه نحو ذكر الجاموس المسكين، الذي أكلت الضباع أكثر من ثلاثة أرباعه في عشرين دقيقة. في لمح البصر، انقضت النسور على بقايا الجيفة، تنهش لحمها بشراسة غير مسبوقة.. ملأت الضباع بطونها وتركت الباقي للنسور.. لمحتُ ابن آوى يقترب بحذر من ربع الجاموس المخلوط بالطين. آهٍ.. لماذا تعذبني أيها الفيل برؤية ما لا يجب أن يُرى؟

المحمية فسيحة وشاسعة، والأشجار المتنوعة تتناثر كيفما اتفق، والعشب موزع بغير حساب على أرض المحمية؛ حيث يتواجد بكثافة في مكان، بينما

تعاني مناطق أخرى من ندرته أو عدم وجوده.. الحشرات الصغيرة تتسكع في الطرقات، وحول الأشجار في حركة دؤوبة ومنظمة، والطيور الملونة تراقب أرض الغابة من فوق أغصانها بتعفف.. الشمس دافئة، وظلال الأشجار المتباينة ترسم لوحة باهرة لغابة كاملة الأوصاف. أدير الكاميرا لألتقط أكبر كمية من المشاهد المثيرة والعجيبة.. بهرتني سجادة من الزنبق الزهري، انبثقت عن يميني فجأة، وامتدت إلى ما لا نهاية. النهار ينتصف.. رأيتُ وحيد القرن يأخذ قيلولته تحت ظل شجرة عظيمة، تشبه علامة الاستفهام، كانت أغصانها تلامس الأرض.. يذكرني هذا الخرتيت عندما يتحرك بمدرعة عسكرية تتوجه نحو ساحة المعركة. لمحتُ الفهد الصياد يختبئ هناك على مرمى البصر، خلف شجرة قصيرة محاطة بأعشاب طويلة، أظنها السافانا. همست في أذن الفيل الضخمة.. فلنذهب إلى هناك يا صديقي ونراقب ما يحدث.

أنثى خنزير بري ترعى العشب، بينما يلهو حولها أبناؤها الأربعة في سعادة.. الفهد الصياد مازال يعاين المكان ويرصد حركات الأم والأبناء.. التوتر يملأ معدتي. تمنيت لو حذرت الأم اللاهية، وأعلنت رغبتي هذه إلى الفيل عسى أن نفعل شيئًا، التفت الفيل برأسه إلى الخلف، وأطلق حكمته التاريخية: (دعهم يا معتز، لكي يعيش حيوان، ينبغي أن يموت حيوان).. تذكرت مقولة جدتي «مآثر»: (انتبه إلى كلام الفيل جيدًا، فهو أحكم الحكماء).

الفهد يركض بجنون.. انتقل من السرعة صفر حتى ٩٥ كيلو مترًا في الساعة في ثلاث ثوانٍ فقط. يا الله.. الفهد يطارد أحد الخنازير الأطفال.. أمه تحذره وتعترض طريق الفهد بكل طاقتها. أنا لا أحب شكل الخنزير؛

فأنيابه بارزة خارج فمه بصورة مقززة، ولكنني لن أحتمل أن يفقد طفل يافع حياته أمامي، حتى لو كان ابن خنزير.. رائحة الرعب تفوح في أرجاء الغابة. الخنزير الصغير أسرع مما يتخيل أحد. ياه.. الفهد يلمسه أو يكاد. يغيّر الصبي اتجاهه فجأة، فيرتبك الفهد قليلًا وتتسع المسافة بينهما فأبتهج.. صرخت.. اهرب يا فتى اهرب.. الفهد لا ييأس ولا يحيد ببصره عن الخنزير الصغير. الأم الملتاعة ما زالت تمتلك القدرة للتشويش على حركة الفهد، ولكنه لا يستسلم ولا يتراجع.. قفزاته مذهلة ورأسه لا يتحرك البتة لا يمينًا ولا يسارًا.. خطوط الدموع السوداء في وجهه تمنح ملامحه خطورة أكبر.. وحشيته تفوق الوصف، ولكن جسمه المرقط يسحرني، والغبار الكثيف من جراء المطاردة يملأ الأفق.

الخنزير الصغير يركض بصورة آلية، كأنه لعبة أطفال تتحرك ببطارية، وأمه تصرخ وترغي وتزبد. أصيح.. أسرع من فضلك.. أسرع.. الفهد أوشك على اصطيادك.. الأدرينالين يتدفق بغزارة في أوردتي. أعرف أن هذه السرعة الخارقة للفهد لن تدوم؛ لأن جسده لن يتحمل الحرارة التي بلغها من جرّاء العَدْو بهذه السرعة المجنونة. استمر في الركض.. تحمّل من فضلك.. سيتعب.. أقسم لك يا صغيري.. الفهد سيتعب.. أخيرًا انخفضت سرعة الفهد اللاهث تدريجيًا، حتى توقف تمامًا عن الركض، وهو يكابد إحباطًا كبيرًا، وحزنًا لا مثيل له؛ فتمكنت أم الخنزير من اصطحاب ابنها المكافح والذكي إلى الاختباء في جُحرهما بأقصى سرعة.. صرخت فرحًا ومبتهجًا بنجاة الصبي الصغير، وأنا أرفع يدي بعلامة النصر.

نظر إليّ الفيل معاتبًا: (لماذا تبتهج يا معتز؟ هذه الفهدة لم تأكل هي وأولادها الثلاثة الصغار، منذ أربعة أيام، وإذا لم تنجح في الصيد اليوم، فقد يموت

الأبناء من الجوع الليلة أو غدًا على الأكثر!). يا إلهي.. ماذا تقول يا صديقي؟ هذه أنثى وليست ذكرًا، وأبناؤها جوعى.. رنوت مرة أخرى إلى الفهدة.. كانت تجلس كئيبة وحزينة بالقرب من مدخل الجُحر، الذي اختبأت فيه أنثى الخنزير وأبناؤها. يا خبر أبيض.. كانت الدموع تنهمر بغزارة من عيني الفهدة. لم أعرف سر هذه الدموع.. هل من شدة الجوع، أم من الحزن على المصير البائس لأبنائها، إذا لم توفر لهم الطعام الآن؟ قلبي انفطر على حالها، فوجدتني أبكي إشفاقًا على الفهدة الحزينة وأولادها الجوعى.. فاجأني الفيل بأن شاطرني الأحزان وبكى هو الآخر!

جلبة شديدة لا أعرف مصدرها تعلو وتخفت. ماهذا؟ يقول الفيل: إنها قرود الرباح.. مجموعة من الشياطين، لا تتوقف عن القفز والصراخ ونصب سيرك دائم فوق الأشجار ليلًا ونهارًا.. هيا لنرها، وليرحم الله فهدتنا العزيزة ويهبها الطعام هي وأبناءها اليوم. سرنا بجوار صف صغير من الأشجار المعمّرة، بعضها يطرح ثمارًا صغيرة حمراء لا أعرفها. ارتجف الفيل قليلًا عندما مرّت بجوارنا أفعى الأصلة، فتوترتُ. تابعتها وهي تنساب لينة بين الحشائش نحو جُحر، تقطنه عائلة فئران سيئة الحظ.. الجلبة تزداد، والصراخ يعلو. ها هي قرود الرباح تستعرض ألعابها البهلوانية في الهواء وبين الأشجار.. أحدها غوى أنثى، وظل يضاجعها خلف غصن مورق، بعيدًا عن الزعيم الذي يجلس بخيلاء بين غصنين متشابكين يراقب شئون الرعية. انتفض الزعيم فجأة.. لقد رأى فعلته الشنيعة.. القرد الخائن يترك أنثاه ويقفز نحو شجرة أخرى.. يطارده الزعيم صارخًا ومحذرًا. أتابع المطاردة بروح متوثبة وقلب يلهث. يضحك الفيل، ويقول: لا تشبع القرود من لذة الجنس أبدًا، مثل أبناء عمومتها من قوم الشمبانزي!

إنه هو.. هتفتُ.. نعم إنه هو.. الرجل الذي كان يجلس بجواري، وتحول إلى قرد في القطار. لكنه الآن عاد رجلًا مرة أخرى. اقترب يا صديقي كي أراه جيدًا، أقول للفيل.. إنه يجلس هناك أسفل الشجرة، التي كان زعيم القرود يراقب منها أحوال رعيته. إنه يتوهج.. الرجل يشع ألوانًا حمراء.. زرقاء. يا خبر.. إنه يتحول إلى قرد مرة أخرى.. ماذا يحدث صديقي الفيل؟ إنها هي.. الفتاة التي كان العنب ينمو في يديها داخل القطار، إنها تقترب من الرجل القرد.. تقف بجواره وتمنحه يدها؛ ليلتهم العنب الذي ينمو في كفها بشراهة. مَنْ هذه الفتاة؟ إنها تتسلق الشجرة بسرعة جنونية تاركة إياه يتأملها بحسرة. ماذا يحدث، لقد اختفت بين الأوراق الكثيفة؟ الرجل القرد ينتفض فجأة، ويطارد الفتاة بين الأغصان ليختفي معها.. أجبني من فضلك. لا يعلق، وإنما يمد خرطومه نحو أقرب شجرة، ليقطف منها حزمة من الأوراق، فيأكلها بنهم معلنًا: يا معتز.. ما أكثر البشر الذين يتحولون إلى حيوانات، فلا تضطرب ولا تسل!

فجأة.. سمعتُ صوت محرك سيارة آتيًا من الخلف. نظرت، فإذا بي أرى سيارة شبه مدرعة ومكشوفة، يقودها رجل خمسيني، تجلس بجواره امرأة جميلة لا تخلو من ملاحة أوروبية.. السيارة تجوب أرض المحمية ببطء. لم يهتم الفيل بالسيارة ولا براكبيها، وكذلك ألقت القرود نظرة عابرة على السيارة، حين مرّت تحتها مخترقة غابة الأشجار المتداخلة في هذه المنطقة. أنا فقط من عاينت الراكبين.. الرجل بدا لي أوروبي الهيئة، فوجهه أحمر، وقد أطلق لحيته البيضاء دون تشذيب، ووضع على عينيه نظارة طبية أنيقة.. كان ممتلئًا إلى حد ما، ويضع بينه وبين المرأة كاميرا حديثة غالية الثمن جدًّا، فقد يبلغ سعرها نحو مليون دولار. رأيت مثلها أكثر من مرة في برامج الحيوانات وعلى اليوتيوب.. أما المرأة، فأغلب الظن أنها زوجته؛ فقد كانت تشبهه وترتدي

مثله بلوزة رمادية خفيفة فوق شورت أسود، وقد لملمت شعرها الأصفر على هيئة ذيل حصان مثل نشوى فوزي. كانت المرأة تضحك وتشير بيدها نحو أشياء لم أتبينها.. اختفت السيارة، دون أن ينتبه الرجل وامرأته لوجودي على ظهر الفيل.

(صباح الخير يا معتز) طرقت أذني هذه التحية من صوت أعرفه جيدًا. تلفتُّ حولي بحثًا عن صاحبه، فلم أر شيئًا.. تضرّعت إلى الفيل أن يتحرك نحو اتجاه الصوت، فاستجاب. (أنا هنا يا معتز.. انظر جيدًا). يا الله.. إنه الهدهد وقد مكث غير بعيد، هتفت: كم أفتقدك أيها الصديق.. ابتسم وصاح: أهلًا بك في سيرينجيتي.. لا أعرف لماذا كان الهدهد يقف وحيدًا على غصن شجرة جرداء؟ شعاع رقيق من الشمس يتسلل بين الأغصان الكثيفة؛ ليستقر في النهاية على تاجه القرمزي الزاهي الألوان.

ما أروعك صديقًا أيها الهدهد، وما أجمل هذا التاج الذي يزدان به رأسك الصغير.. قلت ذلك بصوت هامس، لكنه سمعه، فأردف معقبًا: هيا لتكمل جولتك، وأنا معك. طار الهدهد ليشاركني الجلوس على ظهر الفيل؛ حيث قبع أمامي على مقدمة رأسه الضخم. في هذه اللحظة اقترب مني الهدهد كما لم يقترب من قبل، ومع ذلك قاومتُ رغبتي بشدة في أن ألمسه، أو أتحسس تاجه المدهش، ولو لثانية واحدة، حتى لا يغضب مني ويختفي. وهكذا انتهزت الفرصة لألتقط له عدة مشاهد حية بالكاميرا الفيديو، فضلًا عن عشرات الصور من زوايا وأركان مختلفة، تبرز مفاتن تاجه البديع، بينما نحن نرتاد أرجاء المحمية.

لم أكتشف أننا بالقرب من مجرى مائي، إلا حين أسرع الفيل خطواته قاصدًا هذا المجرى.. رأيت عددًا من أفراس النهر، تغطس في الماء وتطفو

فوقه بسعادة غامرة. يذكرني تصميم الجسد المهول لفرس النهر دائمًا بشاحنة قديمة، تسير ببطء على الطريق الزراعي. كان العطش قد تمكن من صديقي الضخم، فوقف على حافة المجرى ليعبّ بخرطومه ما استطاع من ماء عذب.. كان المجرى يمتد متعرجًا بين الأحراش؛ حتى يختفي في نهاية الأفق وسط الأدغال. فجأة، وجدت الفيل يناولني حفنات من الماء عن طريق خرطومه.. سكبها في كفي بمحبة، شربتها، فارتويت على الفور، أما صديقي الهدهد فيبدو أنه لم يكن يعاني من الظمأ؛ إذ ظل قابعًا في مكانه على رأس الفيل، ولم يحاول النزول إلى المجرى المائي. وإذ أهمّ بتقديم الشكر إلى الفيل لهديته المائية الثمينة، لمحت لبؤة متربصة خلف شجرة قصيرة القامة، أوراقها قليلة، وتبعد عن حافة النهر أقل من مائة متر.

تأملت ما حولي فلم أجد شيئًا.. تعجبت وتساءلت بمَنْ تتربص هذه اللبؤة؟ وقبل أن يرتد طرفي انفجر المكان بصخب شديد على إيقاع حوافر قطعان الجاموس والحمير الوحشية. المئات تهرول نحو الماء لترطب حلوقها الجافة، وتتزود بما يروي عطشها.. هنا أدركت مكر اللبؤة، فهي تختبئ هناك وتترصدها. سعدت لأنني سأشاهد مطاردة حامية بين لحظة وأخرى.. ودّ الفيل لو أن ننصرف مذكّرًا إياي أنه لا يحب صحبة الأسود ولا الاقتراب منها، لكنني توسلت إليه قليلًا لأرى أحد أهم أحلام حياتي، وهو إقدام الأسود على ممارسة حقها التاريخي في صيد الطرائد.

توسلاتي لم تستمر سوى ثوان فقط؛ إذ كانت اللبؤة قد حددت هدفها.. إنه حمار وحشي مراهق، يقف بعيدًا عن إخوانه من باب الاعتداد الأجوف بالنفس. كان قد أطفأ نيران ظمأه، وراح يتلهى بتناول العشب غير مدرك المصيبة التي في انتظاره.. قلبي يرتجف، فاللبؤة تتحرك على أطراف أصابعها؛

حيث ثنت قوائمها وهبطت بجسدها كله، حتى كاد يلمس الأرض لتظل مختبئة أطول فترة ممكنة، قبل أن تقترب من فريستها بأمتار معقولة؛ لأنها لا تستطيع العَدْو مسافات طويلة. الحمار مازال يرتع في عشبه اللذيذ، بينما قبيلته تتوافد على الماء في زحام شديد.

نبهني الفيل: انظر.. هناك تمساح يتربّص تحت سطح المياه.. الغدر شيمة التمساح والصبر فضيلته التاريخية. يقول الفيل بأسى، كنت أعرف أنه يغوص مختبئًا تحت سطح الماء بالساعات؛ حتى ينتهز الفرصة المواتية ليخطف الحيوان البائس، الذي قصد الماء ليروي عطشه.. ما كدت أبحث عن التمساح، حتى خرج كالصاروخ ليقبض بفكيه على عنق حمار وحشي غافل، كان يشرب الماء بسلام. جذبه التمساح بالقوة الخارقة لفكيه، نحو موت مظلم في عمق الماء ليتناول وجبته بحرية. يا إلهي.. دفقة من الأدرينالين سرت بغزارة بأنحاء جسدي .. كان سلوكًا مخزيًا من تمساح وغد. ولكن اللبؤة لم تمهلني لأسترد أنفاسي؛ إذ قررتْ أن الفرصة سانحة، فركضتْ بسرعة مستهدفة الحمار المغرور الذي أفاق من غيبوبته في اللحظة الأخيرة، ليعدو بدافع الغريزة نحو أهله، الذين هجروا الماء وفروا حين شمّوا رائحة الغدر تفوح من اللبؤة الصيادة.

المطاردة شاقة وشائقة ومرعبة، والحمار تعثر أكثر من مرة لكنه استعاد اتزانه ولياقته. يا إلهي.. هناك لبؤة أخرى اعترضت طريقه، ولعل هذا سر ارتباكه وتعثره. حقًّا.. إنه كمين محكم، فقد انبثقت لبؤة ثالثة، لا أعرف من أين لتسد الطريق أمام الحمار الحائر.. ها هي صاحبتنا تقترب.. ها هو ينهق مرتعبًا.. إنها تلمسه، وغريزة الحياة تدفعه إلى الهرب منها. فجأة طارت اللبؤة لتلقي بجسدها الثقيل فوق جسده، وتغرز مخالبها في ظهره بكل قوتها. ينكفئ

الحمار على جنبه وتسقط فوقه اللبؤة، وهي تستدير برشاقة لتعضّ بنواجزها على عنقه.. قُضي الأمر وجاءت الفتاتان الأخريان المشاركتان في نصب الكمين، فأربكتا الحمار، وحولته إلى وجبة غداء معتبرة للبؤات الثلاث.

يا خبر أبيض.. من أين ظهرت عائلة الأسود هذه.. خمسة أشبال وأربعة مراهقين هُرِعوا نحو الحمار المنحور، الذي ما زال يتلوى ليتحرر من أسر أنياب اللبؤة دون فائدة. آه.. إنه هو.. نعم.. هو.. الملك الجبّار.. يأتي مختالًا بلبدة شعره ذات اللون البرتقالي الساخن. ما هذا؟ إنه أبي.. أقسم لك أيها الفيل.. ثق بما أقول صديقي الهدهد.. إنه أبي ليلة رحيله عندما هجرنا نحن أهل الإنس، وانضم إليكم.. إلى عالم الحيوان.. لم يتحرك الفيل، ولم يعترض الهدهد على ما أقول. تفسح اللبؤات والمراهقون الطريق ليأخذ الملك مكانه المفضل أمام مائدة الطعام؛ التي لفظت أنفاسها توًّا. يشرع أبي في التهام الحمار بادئًا بالأماكن الطرية عند البطن. يترك شبلين من أبنائه يقاسمانه عملية النهش بسعادة، ولكنه يثور بحدة في وجه مراهق مغرور، يحاول أن يجد له مكانًا على هذه المائدة الشهية، لدرجة أنه يصفعه على وجهه مطلقًا زئيرًا مخيفًا، جفل منه الفيل جفلًا وطار الهدهد فزعًا وملئتُ منه رعبًا! لم يكن أبي يأكل بشراهة هكذا، ولا كان قاسيًا معنا هكذا. وضعت يدي فوق وجهي محزونًا، وأغمضت عينيّ.. طفرت مني عبرتان من فرط الأسى على حال أبي، الذي أصبح يأكل الحمير النافقة!

لكن المفاجأة المذهلة بدت حين أرجعت البصر كرتين إلى عائلة الأسود؛ إذ إنني لم أجد أبي ضمن أفرادها، بل شاهدت كوكبة من اللبؤات والمراهقين والأشبال تتصارع على بقايا حمار سيئ الطالع. أين والدي؟ أين الملك؟ صرخت، فلم ينتبه لي أحد، حتى الهدهد وجدته يمكث في مكانه على رأس

الفيل، بينما يزداد تاجه بهاءً، كلما داعبته أشعة الشمس المنسابة بين أغصان الأشجار، فسررتُ لأنه قريب مني إلى هذه الدرجة.

شعرتُ برغبة شديدة في التبول، فرجوت الفيل أن يسمح لي بالنزول عن متنه لأقضي حاجتي. هناك.. قريبًا عند وادي النمل، توجد شجرة قصيرة القامة أوراقها حمراء، يمكنك أن تتخذها متكئًا للنزول عن ظهري. قال الفيل بهدوء. كانت هذه أول مرة في حياتي أبول فيها، خارج حمّام تقليدي مغلق، ولكنني لم أشعر بأي حرج، وكل ما فعلته أنني التفت يمينًا ويسارًا؛ حتى لا يراني أحد من الحيوانات وأنا أبول في محميتهم، فيغضب مني أو ينزعج من سلوكي الخشن. أما الفيل فقد أعطاني ظهره، وكذلك فعل الهدهد لأقضي حاجتي بحرية! وحين انتهيت، لمحت من بعيد عائلة الأسود تعود إلى عرينها بتكاسل، بعد أن امتلأت بطونها باللحم الطازج. صعدتُ فوق الفيل بسرعة بحثًا عن والدي الذي فقدته في لحظات، فلم أتمكن سوى من رؤية بعض اللبؤات، وهي تتثاءب، بعد أن ألقت أجسادها على أرض العرين، التي تحتل مكانًا استراتيجيًا مرتفعًا أمام المجرى المائي. أعي أن الأسود تنتقي أماكن عالية لتؤسس عرشها فوقها؛ حتى تتمكن من رصد حركة الحيوانات في المحمية، علاوة على أن هذا المكان المميز يمنحها الفرصة، لأن تختار ما يحلو لها من قائمة الطعام المتنوعة، التي تقصد الماء للشرب!

اصطحبنا الفيل، الهدهد وأنا، في جولة غرب المحمية، فرأيت أسرة من النعام تصنع دائرة حول واحدة منها بالقرب من جحور النمس. تصميم جسد النعامة يجذبني دومًا، وعيناها التي تحتل نصف وجهها تثير فضولي لمعرفة بماذا تفكر النعامة، حين أراها شاردة في اللا شيء؟ كنا قد ابتعدنا قليلًا عن وادي النمل، الذي يمتد أمام الشجرة التي تبولت بجوارها، حيث شاهدت

الملايين من النمل المجنون يعمل بدأب ونشاط لامثيل لهما، فلما رأتني نملة ممتطيًا ظهر الفيل، شرعت توشوش صديقاتها بلسان لم أتبينه، حتى انخرطت قوافل النمل في ضحك شبه هستيري . (سيدنا سليمان فقط من يعرف لغة الطيور يا معتز) قالت جدتي «مآثر»، وهي تواسيني قديمًا لأنني شكوت لها من عدم قدرتي على التحدث مع الهدهد. أما النمل، تضيف جدتي: (فإن سيدنا سليمان أيضًا هو الوحيد الذي يفهم لغته).

وقف الفيل أمام شجرة كثيفة الأوراق تختبئ في ظلالها أسرة النعام، ثم راح يلتهم كمية مهولة من أوراقها بشراهة.. كنت أعلم أنه بحاجة إلى أن يأكل لمدة ست عشرة ساعة متواصلة في اليوم الواحد؛ حتى يتمكن من منح هذا الجسد الخارق، الذي يصل وزنه إلى ستة أطنان، الطاقة المطلوبة. لم أشأ أن أستعجله لنواصل توغلنا في المحمية، بل أخذت أتسلى بقطف بعض الأوراق وألوكها بتلذذ وأنا أراقب النعام. استأذن الهدهد في الانصراف؛ ليلتقط بعض الحبوب من الأرض.. أدهشني أدبه الجم، فتأملت تاجه الفاتن وحركت رأسي بالموافقة. مازالت أسرة النعام ترقص في حركة دائرية تتوسطها نعامة غريبة نوعًا ما تصدر أصواتًا غير مفهومة. أمعنتُ النظر نحوها، فكانت مفاجأة مذهلة، إنها المرأة الأجنبية، التي أرعبتني وحطمت مطعم ألفي بك بغبائها الشديد. تساءلت أين سنجابها المسكين؟ بحثت عنه من هذا الارتفاع الشاهق، وكأني أطل من الدور الثالث، فلم أجده.. ابتسمت، وأنا ألتهم مزيدًا من أوراق الشجرة.

تحرك الفيل فجأة، فكدتُ أهوي من فوقه، لكنني تمالكت نفسي بصعوبة. قبل أن أناديه، كان صديقي الهدهد قد ترك وجبته الملقاة على الأرض، دون أن يشبع فيما يبدو، حيث طار بسرعة لينضم إلينا. نسمة هواء عليلة صافحت

وجهي فأنعشتني.. حملت معها رائحة ذكية، طالما استنشقتها وأحببتها من قبل. لكني نسيت الآن مَنْ صاحب هذه الرائحة؟ صعد الفيل منحدرًا ترابيًّا اعترض طريقنا، فانكشفت أمامنا مساحات خضراء شاسعة من الغابة، كانت محجوبة خلف هذا المنحدر. لمحت مجموعة من الأفيال تسير في الاتجاه المعاكس.. رفع صديقي الفيل خرطومه تحية لها وغمغم بلغة لا أعرفها، ثم قال لي، وكأنه أدرك فضولي: إنها إحدى خالاتي وأبناؤها تقرؤك التحية والسلام. شكرته، وأدرت وجهي إلى الخلف، رافعًا يدي لتحية الجميع بعد أن تجاوزونا.

طار فوقنا فجأة سرب من الطيور البيضاء، يخترق السماء متوجهًا نحو المجهول.. عدد لا بأس به من الأشجار الطويلة والقصيرة، البدينة والنحيفة، تناثرت أمامنا في مشهد نادر وساحر. لم ينسَ الفيل نصيبه منها، فشرع يقطف ما تيسر له من أوراقها، دون أن يتوقف عند أي منها. أما أنا فقد قطفت ورقة واحدة من كل شجرة، فراقت لي جميعها.. رأيت على البعد بقايا ذكر جاموس نافق، تلتف حوله كوكبة من النسور القمّامة تنهش لحمه القليل.. الصراع بينها حاد جدًّا حول أحقية كل منها في تناول الطعام. ألقى الفيل عليها نظرة احتقار، وقال لي: (لا أحب النسور ولا ابن آوى.. لأنها تقتات على جهد غيرها).

هجرني الهدهد فجأة، دون أن يستأذن، وطار في اتجاه الشمال.. ناديته، فلم يجب.. رجوت الفيل أن يتبعه إن أمكن. رأيت السيارة شبه المدرعة تقطع طرقات المحمية ببطء كعادتها، ولكن المرأة هي التي تقودها الآن، بينما الرجل يصوّب الكاميرا نحو زوايا بعيدة لا أرى ماذا وراءها؟ مرّت أمامنا مجموعة من الزرافات بخيلاء عجيبة، يبدو أنها ألقت التحية على الفيل بطريقة ما؛

لأنه رفع خرطومه وتحدّث باللغة نفسها التي حيا بها خالته وأبناءها قبل قليل، فابتسمت الزرافات الثلاث التي كانت في المقدمة.. الهدهد مازال على مرمى البصر؛ حيث استراح على غصن شجرة عريقة ونبيلة، تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مترًا تقريبًا.

هيّا يا صديقي، فلتكمل غداءك من هذه الشجرة.. هكذا همست في أذن الفيل مشيرًا نحو الهدهد. لم يتبرم الفيل، على الرغم من أنه كان قد توقف قليلًا أمام شجرة مورقة، عند مرور موكب الزرافات؛ ليأخذ نصيبه من أوراقها الطازجة. سار الفيل نحو الشجرة العريقة والنبيلة، التي هبط الهدهد فوق أحد أغصانها، لكنه توقف فجأة، حيث رائحة مريبة ومزعجة، داهمت خرطومه وأنفي في وقت واحد. ثم طنطنت السماء بأصوات نباح وصراخ وعواء، مصحوبة بإيقاعات شرسة تعدو خلفنا وحولنا.. جفلتُ فزعًا حين عاينت عشرات من الكلاب البرية والذئاب المتوحشة، تأتي من كل مكان وتركض بسرعة في اتجاه الشجرة المنشودة. (الذئاب لعنة يا معتز.. تدمّر بيوت الطيبين) تقول جدتي «مآثر» قبل عشرين عامًا. الهدهد يضطرب بشدة، فيرجُف في مكانه ويصرخ ضاربًا الهواء بجناحيه بعصبية.

أسراب مهولة من الفراشات الملوّنة تتجمع أمامنا وتتوجه نحو الشجرة، وهي تنتحب. يالله.. إنها نشوى فوزي بلحمها وشحمها ورقتها وفراشاتها الثلاث، تجلس هناك تحت الشجرة في هدوء. ما أحلى هذه المصادفة السعيدة.. أحدّق في ملامحها، فأرى نهلة إسماعيل تجلس بجوارها وتتحدثان. يعتريني العجب، وأهتف بصوت مسموع: ألم تطيري يا نهلة في القناطر؟ ألم تصبحي حمامة رقيقة؟ ثم متى تعرفتِ إلى نشوى فوزي، وصرتما صديقتين تتواعدان في الغابات؟ يبدو أن المفاجآت في سيرينجيتي لن تنتهي. أليس هذا أدهم

الشاذلي الذي يقترب منهما الآن ليجلس بجوارهما؟ مَنْ أتى به إلى تنزانيا؟ ومتى خرج من المعتقل؟ ماذا يحدث؟ يا إلهي.. نهلة تقف.. تترك مكانها.. نهلة تثب.. تفرد ذراعيها وتطير مثل حمامة مذعورة. نشوى وأدهم في كامل أناقتهما، والرائحة الفوّاحة لفتاة أحلامي، تقاوم بشدة طغيان الروائح الكريهة للكلاب البرية والذئاب المفترسة.. الهدهد يصرخ، والفيل يتشنج. والحمامة تبكي. يا لهذي المصائب.. إنه الرجل الذئبي ذو الملابس الأنيقة، والذي يخرج من أذنه دخان أبيض.. إنه يقترب من نشوى وأدهم، بينما أقزامه ينتشرون في المكان، ويحوطون الشجرة من كل اتجاه.

الكلاب تقترب والنباح يعلو.. الذئاب تهجم والعواء يزداد. الفراشات تبكي والهدهد يحذر، والحمامة تستغيث.. الكل يقترب من نشوى وأدهم تحت الشجرة. أصيح: انتبه يا أدهم.. حذارِ يا نشوى.. الكلاب قادمون.. الذئاب قادمون.. رصاصات الغدر تنطلق من عيونهم.. اهربا.. أتضرع إليكما.. عودا إلى منازلكما. لا ينصت أحد لما أقول، ولا يُطاع لمعتز أمر.. يرتجف الفيل، فأستسلم لقشعريرة رعب.. أعجزُ لحظاتٍ عن التفكير القويم واتخاذ القرار الصائب.. أهبّ واقفًا بجسدي كاملًا فوق ظهر الفيل. أكتشف مدى ارتفاعه، فأضطرب.. أتلو سورة الإخلاص.. سورة الناس بصوت مسموع، مستجمعًا شجاعتي كلها؛ لأقفز من فوق الفيل، وأنا أصرخ وأبكي، بينما صوت أمي يتداخل مع صياحي ونباح الكلاب وعواء الذئاب، وهي تهتف:

– قم يا معتز.. اصحُ.. لقد وصل جمال أخوك من الكويت!

* * *

17 | مع
شقيقي جمال

يمكنني القول، بيقين كبير، بأن شقيقي جمال هو أول من غادر البلد فور اندلاع الثورة؛ حيث عاد إلى القاهرة هو وزوجته من الأقصر صباح الثلاثاء ٢٥ يناير، وفي الظهيرة استقل الطائرة المتجهة إلى الكويت مرتعبًا مما سيحدث، ضاربًا عرض الحائط بساق أمي المكسورة؛ إذ قال لنا وهو يودّعنا على عجل:

- إنهم مجموعة من الشباب المجنون.. سيسحقهم رجال الشرطة.

ثم أضاف، وهو يهم بالخروج:

- جمال مبارك قادم.. ولا يمكن لأي مخلوق أن يوقف قطار التوريث.

شهر كامل قضاه جمال وزوجته لورا في مصر، زارا في البداية شرم الشيخ ثم الغردقة ورأس سدر، وختما جولتهما بأسوان فالأقصر.. حين أخرجتني أمي من حلم سيرينجيتي، كان جمال يقف بجوارها في الغرفة. أول الأمر ظننت أنني مازلت أسيرًا لأجمل الأحلام وأكثرها كابوسية؛ لأنه ليس من عادة جمال أن يخبرنا عن موعد وصوله، إذ فجأة نسمعه يقرع جرس الباب، حتى إنه لا يكلف نفسه بالاتصال بالموبايل قبل المجيء؛ لذا كان وقوفه في غرفة نومي مفاجأة لم أستوعبها في البداية، خاصة وأنا خارج توًّا من سراديب حلم خرافي جميل ومرعب.

منذ تزوج جمال لورا قبل عشرة أعوام، وهو يقيم في فندق خمس نجوم، كلما جاء إلى القاهرة، رافضًا تمامًا أن يبيت معنا في الشقة. وكم من مرة سمعت فيها أبي يحذره من تبذير أمواله هكذا في الفنادق الفخمة، إلا أنه كان مُصرًّا على موقفه. تعجبت لأنني لم ألحظ أمارات الحزن على وجهه بسبب رحيل والدنا.. كان يضحك بصوت عالٍ، ويداعب أمي، ويسخر من صور الحيوانات والطيور التي أعلقها على جدران غرفتي.

- ألم تملّ بعد رؤية هذه الصور كل يوم؟

سألني وهو يستحثني على النهوض ومقاومة الكسل.. عانقته بقليل من المودة، ولم أرد على إهانته لأصدقائي من الحيوانات والطيور. كان جمال أقصر مني بسنتيمتر واحد، يميل وجهه إلى البياض، وممتلئًا قليلًا. يضع فوق عينيه نظارة طبية بالغة الأناقة ماركة كريستيان ديور. يتمتع بذكاء حاد، يشع من عينين سوداوين ضيقتين يعلوهما حاجبان رقيقان ذوا شعر خفيف. طوال الوقت وجمال يعتني بمظهره بصورة ربما لا تناسب أستاذًا جامعيًّا، وإنما تلائم نجمًا سينمائيًّا موفور الشهرة؛ لدرجة أنه قام بصبغ شعره الغزير والناعم إلى حدٍّ ما، فور ظهور عدة شعيرات بيضاء في فَوْديه.

كل ما يلامس جسده من ملابس وأحذية وساعات وإكسسوارات وعطور، يجب أن ينتقيه من أشهر الموديلات العالمية وأغلاها، ولكنه مفتون بدرجة كبيرة بكريستيان ديور. أما زوجته لورا الإنجليزية، فقد تعلمت الكثير من الكلمات والعبارات العربية؛ لتجارينا نحن أهل زوجها في الحديث، ولتتعرف على ثقافتنا؛ خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر كما تقول. انتابتني حالة من الضحك، كتمتها بصعوبة، وأنا أصافح لورا في هذه الليلة؛ إذ اكتشفت أنها تشبه المرأة النعامة التي حطمت مطعم ألفي بك بشكل

عجيب، والتي رأيتها تأتي بحركات غريبة، وتصدر أصواتًا غير مفهومة في سيرينجيتي.

المفاجأة السارة أن جمال أهداني في زيارته هذه كاميرا فيديو ماركة سوني، كان قد اشتراها من طوكيو كما أكد لي. والعجيب أنني طوال غربته الطويلة، لم أطلب منه شيئًا قط، لكنه في كل مرة يأتي إلى القاهرة يغمرنا بهداياه الغالية والثمينة. بالنسبة إليّ كانت الملابس الأنيقة هي أكثر ما يخصني به، وفي إحدى المرات دسّ في جيبي ساعة رادو فاخرة، أما اللاب توب فقد أهداني إياه قبل سبع سنوات تقريبًا. لكن هذه أول مرة يهبني فيها كاميرا فيديو؛ حيث قال لي، وهو يعطيني حقيبة الكاميرا مبتسمًا:

- حتى تستطيع تصوير لقطات حية لوالدتك.

حزن شفيف لوّن صوته وهو ينطق بهذه العبارة؛ إذ كان يعلم أن طائر الموت قد خطف أبانا، قبل أن نسجل له أية لقطات حية ومتحركة.. كدتُ أقول له: لا تحزن.. لأن أبانا مازال حيًّا يأكل الحمير في سيرينجيتي، لكنني آثرت الصمت، وأنا أتفرس في ملامح وجهه بعمق ربما لأول مرة.

فرحتُ بالكاميرا كثيرًا، وحين فتحت الحقيبة لأكتشف إمكاناتها اعتراني الذهول، إذ هي الكاميرا نفسها التي كانت بحوزتي في سيرينجيتي.. حاولت تذكر مصيرها في الحلم، بعد الهجوم الذي شنته الكلاب والذئاب على أدهم ونشوى، فلم أفلح. هل سقطت مني وأنا أقفز من فوق الفيل؟ هل أضعتها حال كنت أتبول؟ حزنت كثيرًا على فقدانها؛ لأنه من المستحيل أن أسجل لقطات حية للهدهد، أو ألتقط له صورًا مدهشة مرة أخرى، وهو بهذا القرب مني.. أذكر أنني صوّبت الكاميرا نحو تاجه الساحر مرات عديدة؛ حيث طبعت على شاشتها أكثر من مائتي صورة بأوضاع مختلفة، ولكن

كلها تبخّرت وضاعت بكل أسف في غابات سيرينجيتي.. كانت الكاميرا التي اقتناها جمال عالية الجودة، وسعرها وفقًا لكلامه يفوق ثمانية آلاف دولار، لم تكن بكفاءة الكاميرا التي يستخدمها الباحثون والعلماء الذين يركبون المخاطر في الغابات والمحميات، ولكنها كانت كاميرا أكثر من جيدة للاستخدام الشخصي.

أول حركة للكاميرا كانت لتصوير أمي؛ حيث شرع جمال في شرح إمكانتها لي، بادئًا بتصوير حجرة أبي وصورته الكبيرة، التي علقناها في الصالة عقب وفاته. ثم توجّه جمال ببطء نحو أمي راصدًا وجهها الشائخ والحزين من زوايا مختلفة.. ابتسمت أمي، ربما للمرة الأولى، منذ رحيل أبي، على الرغم من أنها رفضت أن يتم تصويرها أول الأمر، إلا أن إلحاح جمال لها جعلها ترضخ في النهاية لرغبته. كانت أمي تعشق جمال، ولا تخجل من أن تظهر غرامها به إلى هذه الدرجة؛ حيث تقول بفرح: (إنه أول أبنائي الذكور، والمرأة لا تكتمل أنوثتها إلا بإنجاب الولد). وعندما كنت أسألها عن رسمية، تبتسم وتتمتم: (هذه أختي وليست ابنتي).

في اليوم التالي لوصول جمال، حضرت رسمية من الإسكندرية لرؤية شقيقها بصحبة زوجها وابنيها، قبل أن ينطلق في جولته السياحية، التي تشمل أشهر المدن المصرية.. أقام جمال وزوجته في فندق الفور سيزون بجاردن سيتي. كان قد أنهى إجراءات الحجز في الفنادق المختلفة عن طريق الإنترنت، كما استخدم الوسيلة نفسها للسفر بالطائرة إلى هذه المدن كما قال لنا. لم ينسَ جمال أن يغدق على أختي وزوجها وابنيها الهدايا الثمينة؛ فقد خصّ رسمية بسوار غالي الثمن من الذهب، مثلما فعل مع أمي التي أهداها أيضًا معطفًا فاخرًا.

أكبر عيوب جمال هو تأففه المزعج والدائم من القاهرة وفوضاها وقذارتها، ففي كل زيارة يزداد معدل ضجره وانزعاجه من عاصمتنا.. كنت أشعر أحيانًا أن الحق معه، ولكنني كنت أستاء كثيرًا عندما يشتم المصريين، متهمًا إيانا بالتخلف والجهل، دون تفرقة بين النظام الحاكم المتسبب في هذه المآسي، والشعب المسكين الذي يكابد الأمرين، في بلد كان واعدًا يومًا كما يردد أبي وأمي وعم خليل. هذا الضجر من القاهرة كان يشاطره فيه الدكتور مصطفى غيث زوج رسمية.. ما إن يلتقيا حتى يشرع كل منهما في إلقاء قصيدة هجاء قاسية في المدينة العريقة. وفي حين أن الدكتور مصطفى يُرجع أسباب بؤس القاهرة إلى جمال عبد الناصر والعسكر، الذين حكموا مصر، فخربوها وأخفقوا في إدارتها وقيادتها إلى آفاق المستقبل، كما يقول.. كان جمال يتفق معه نسبيًّا فيما يذهب إليه، ولكنه يتحرج أن يهاجم عبد الناصر بهذه القسوة أمام أبي وأمي، ثم يوجه كلامه إلى زوج أختي مداعبًا: (يا دكتور.. لا تنسَ أني سَميُّه).

لم يكن أبي يسكت على تسديد الشتائم إلى عبد الناصر.. كنت أراه يغضب بشدة، محاولًا أن يشرح لجمال والدكتور مصطفى مزايا الرجل وعظمته ومحاولاته الجادة والصادقة لبناء دولة عصرية حديثة، مؤكدًا في الوقت نفسه أنه ليس مسئولًا عن الأوضاع المزرية الحالية، وأن بذرة الفوضى والفساد التي تسمم عظام البلد حاليًّا زرعها أنور السادات، ورعاها حسني مبارك من بعده. كنت ألاحظ أن أخي جمال يتراجع أو يتكئ على حائط الصمت، إذا شعر أن نيران الغضب بدأت تشتعل في صدر أبي؛ فيتوقف عن مواصلة الهجوم على عبد الناصر والعسكر رأفةً بوالدنا. بينما لا يمل الدكتور مصطفى من مواصلة عزف سيمفونية السباب في عبد الناصر وديكتاتوريته، حتى تتدخل أختي رسمية وتستدرجه خارج الغرفة بأية حجة إشفاقًا على أبينا.

القرار العنيف الذي اتخذته أمي بمقاطعة جمال قبل عشر سنوات تقريبًا، لم يستمر أكثر من يوم واحد فقط؛ ذلك أنه أبلغنا، عصر يوم خريفي، تليفونيًّا من لندن أنه سيتزوج بفتاة إنجليزية الليلة، وسيعود بها غدًا إلى القاهرة.. غمّ الدنيا كله انسكب في قلب والدتي حينئذ، أذكر جيدًا بكاءها بحرقة، لأن ابنها البكر سيتزوج هكذا دون أن تفرح به وتبتهج، وتملأ الكون كله زغاريد ملوّنة.. تقول لأبي بأسى: (هل هذا معقول.. يتزوج إنجليزية.. لا مصرية ولا مسلمة.. هل يرضيك ما يفعله ابننا يا مختار؟). في ذلك الوقت، كنت لا أزال طالبًا في معهد الإلكترونيات بالمقطم، وكانت نهلة إسماعيل ستطير في سماء القناطر الخيرية بعد شهور قليلة.

سمعت أمي تندب حظها العاثر في تربية ابنها البكر، ورأيت أبي حائرًا ومهمومًا يحاول جاهدًا أن يخفف عنها الآلام، التي سببها زواج جمال فجأة من فتاة إنجليزية.. أذكر أنهما قضيا ليلة حزينة آنذاك، وأذكر أنها أجرت اتصالًا تليفونيًّا بشقيقتي رسمية، استمر أكثر من ساعة تشكو لها جريمة جمال في حقها، باعتبارها أمه التي ينبغي أن ترى عروسه وأهلها، وتقيم له ليلة زفاف مشهودة. أذكر جيدًا أنها بكت حين فاضت مشاعرها الحزينة، وهي تسرد لخالتي تريزا إقدام جمال على الزواج من فتاة إنجليزية؛ إذ كانت أمي قد اتصلت بها وأخبرتها بالمكالمة التليفونية المشئومة التي تلقتها من جمال، كما وصفتها، فحضرت خالتي تريزا وزوجها عم خليل على الفور.. كل هذا أذكره جيدًا، ولكن شغفي بنهلة إسماعيل شوّش رؤيتي للأمور في تلك المرحلة؛ لذا لم أجد تفسيرًا معقولًا لكل هذا الغضب، الذي اتقد في صدر والدتي.

النحيب والبكاء والشكوى وقرار مقاطعة جمال.. كل هذا لم يدُم سوى يوم واحد فقط، فلما وصل أخي من لندن مساء اليوم التالي، سكت عن أمي

الغضب؛ حيث احتضنته بقوة غافرة له ما تقدم من ذنبه في حقها وما تأخّر، ثم صافحت زوجته ببرود ظاهر. أما أبي، فقد حاول بجدية أن يتودد إلى لورا ويرحب بها بحفاوة؛ حيث أدار معها حوارًا باللغة الإنجليزية التي يتقنها تمامًا. جمال، من ناحيته، لم يشعر أنه ارتكب ذنبًا ما، وقال بهدوء لا يُحسد عليه إنهما مرتبطان منذ عامين بعلاقة عاطفية مشبوبة.. لذا قررا الزواج أمس؛ حتى تتمكن من الحضور معه إلى القاهرة، ليؤسسا عش الزوجية.

لم تَرُق لي لورا أول الأمر، فنحافتها البالغة كانت توترني كلما رأيتها، كما أن الحُمرة الشديدة التي تكسو وجهها تشعرني أن بشرتها على وشك الانفجار.. عيناها غامقتان كبيرتان متأملتان كنعامة هائمة، وشعرها ناعم جدًّا ذو لون أصفر زاعق. كل ما عرفناه عن لورا أن أباها غاب عن الدنيا وهي طفلة، وأنها كانت تقيم مع والدتها في ضواحي لندن، حتى التحقت بالجامعة، فتزوجت أمها من رجل إسباني، ورحلت معه إلى مدريد.. لورا المكافحة اضطرت إلى البحث عن عمل بجانب مواظبتها على الدراسة؛ حيث تعرف إليها أخي، وكان ما كان.

شهر واحد فقط هي المدة التي أقام فيها جمال ولورا معنا في البيت؛ حيث غادرنا إلى الكويت مصطحبًا زوجته، بعد أن تلقّى عقدًا مغريًا من جامعتها؛ نظرًا لتفوقه العلمي وحصوله على الدكتوراه من جامعة أكسفورد. في هذه المدة عشتُ مرتبكًا ومضطربًا لوجود امرأة غريبة معنا بالمنزل؛ فقضيت أغلب الوقت حبيس غرفتي، لا أخرج منها إلا للذهاب إلى المعهد. ويبدو أن جمال شعر بارتباكي؛ إذ إنه رفض الإقامة معنا في البيت بعد ذلك أبدًا، كلما جاء في زيارة إلى القاهرة.

من أمي، علمت أنه افتتح بالكويت محل عطور وإكسسوارات تديره زوجته، وأنه يربح الكثير والكثير من هذا المحل؛ لذا لم يكن غريبًا أن يبتاع

قطعة أرض مساحتها ١٥٠٠ متر مربع في التجمع الخامس بالقاهرة الجديدة؛ ليبني فوقها فيلا فاخرة كما كان يحلم. وقد اصطحب والدي معه إلى شركة العقارات؛ لاختيار قطعة الأرض التي يبتغيها.

لم ينجب جمال، وهو ما أزعج والدتي بشدة، وقد سمعتها أكثر من مرة، وبحضور أبي وهي تقترح عليه، وتلح، أن يتزوج مرة أخرى من فتاة مصرية مسلمة، حتى يمنحه الله الخلف الصالح، فكان يرفض تمامًا، زاعمًا أنه لا يريد أبناء على الأقل الآن، وأنه ولورا متفقان على ذلك ولا يقلقهما شيء بخصوص هذا الموضوع. لكن أبي وجّه له مرة في أحد هذه النقاشات سؤالًا يضج بحكمة بالغة: (لماذا تحرم نفسك يا بنيّ من لذة الأبوة؟).. أعجبني تعبير لذة الأبوة يومئذ، وتذكرت مقولة جدتي «مآثر» عن الهدهد، الذي يظل يكدح طوال اليوم بحثًا عن الطعام؛ حتى يتمكن من تقديم وجبة الغداء لأبنائه الصغار، فسألتها يومئذ لماذا يتعب نفسه يا جدتي؟ فقالت بنبرة هادئة وواثقة: (لأنه يتلذذ بإطعام أبنائه يا بنيّ).

في اليوم التالي مباشرة لسفر جمال وزوجته إلى شرم الشيخ، توجهت في الصباح الباكر نحو حديقة الحيوان بالجيزة، حاملًا على كتفي حقيبة الكاميرا الفيديو، التي أهداني إياها. كنتُ مغتبطًا لأنني سأستطيع أخيرًا التقاط مشاهد حية للحيوانات والطيور، وهي في حالتها الطبيعية. من ميدان المحكمة أوقفت تاكسيًّا أبيض، وطلبت من السائق أن نذهب إلى الحديقة، فلما سألني: (أية حديقة؟)، تعجبت وابتسمت، وقلت له: (ألا تدري حقًّا.. إلى حديقة الحيوان طبعًا)، ثم أشرت إلى الكاميرا الفيديو التي أحملها على كتفي، وأنا أسأله مستنكرًا: (ألا ترى هذه الكاميرا؟).

نظر إليّ السائق بفضول لا أعرف سببه.. كنت أجلس بجواره، فتأملت ملابسي، فلم أجد ما يثير الفضول، مجرد بلوفر رمادي فوق قميص زيتي

وبنطال جينز أسود. كانت آيات من الذكر الحكيم تنطلق من راديو التاكسي بصوت عالٍ جدًّا لقارئ لا أعرفه.. أول ما أثارني في وجه السائق هو طول أذنيه بصورة لافتة، وكذلك أربكتني حركة شفتيه اللا إرادية؛ فهما لا يتوقفان عن الارتعاش طالما كان صامتًا مثل أرنب مضطرب. في إشارة ميدان روكسي، أخرج السائق علبة سجائر روثمان، أشعل واحدة ونفحني أخرى، فشكرته واعتذرت لأنني لا أدخن السجائر. تأملني قليلًا قبل أن يؤكد لي مبتسمًا أنني أتناول الشيشة بانتظام، فتعجبت من فراسته ووافقته. أشار بيده إلى ضابط مرور، يقف في الناحية الأخرى من الميدان، هاتفًا: (هذا الضابط ابن حرام.. مرتشٍ ومؤذٍ ولا يحترم أحدًا). عاينت الضابط عن بعد، فهالني أنه يشبه أحد الكلاب البرية، التي كانت تنبح وتركض في سيرينجيتي، وهي متوجهة نحو نشوى وأدهم. كدت أطلب من السائق أن يتريث قليلًا لأتأكد من درجة الشبه، ولكنني آثرت الصمت. الزحام شديد عند جامعة عين شمس، والصوت العالي للراديو فاقم من توتري.. رجوت السائق أن يخفض صوت القرآن قليلًا.. تلكأ في تنفيذ طلبي وسألني عن اسمي، لم أخبره باسمي، ولكنني أقسمت له أنني مسلم ومؤمن بالله الواحد الأحد، لكن أعصابي لا تحتمل الأصوات المرتفعة؛ حتى لو كانت تنطق بكلام الله.

عند خروجنا من ميدان العباسية، مرّ بجوارنا ميكروباص تنطلق منه بصوت عالٍ جدًّا أغنية (بحبك يا حمار)، فضحك السائق متعجبًا على أحوال الدنيا، فاكتشفت مدى وسامته وطيبته. في ميدان غمرة، وقبل مطلع كوبري أكتوبر، بلغ الزحام مستوى غير مسبوق.. تأفف السائق وراح يكيل السباب للحكومة التي لا تهتم بتنظيم البلد، وتنشغل بلاعبي الكرة؛ فلما طال انتظارنا دون أن يتحرك التاكسي خطوة واحدة إلى الأمام، اتخذ سبابه منحى آخر؛ حيث طال الرئيس مبارك شخصيًّا، الذي هجر القاهرة تحترق، وأقام

بشرم الشيخ، ثم سألني فجأة: (هل زرت شرم الشيخ؟). نفيت بإشارة من رأسي.. تنهد السائق بعصبية، وهو يلقي بعقب سيجارته من النافذة، ثم قام بتغيير محطة الراديو، ففاجأنا صوت الرئيس مبارك ساخرًا من فكرة مجلس الشعب الموازي (خليهم يتسلوا).. ابتسمت وقلت لنفسي بأسف: (إن رئيس التحرير سيلتقط عبارة خليهم يتسلوا ليضعها عنوان العدد المقبل). سألني السائق عن موقفي من انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، ولم ينتظر الإجابة، وبدأ يحلل ويشرح قدرات الحكومة في التزوير.. تمنيت أن يصمت قليلًا، لأنه أصبح لا يتوقف عن الثرثرة. ولكن هذه الأمنية ما كادت تجول بخاطري، حتى لكزني السائق في كتفي هاتفًا: (انظر.. هذا أسوأ أمين شرطة في وزارة الداخلية). استفزتني لكزته، فنظرت إليه شذرًا، فأردف مسرعًا: (لا ترمقني هكذا، بل عاين هذا الأمين الأعور ابن القحبة).

المفاجأة المذهلة أن أمين الشرطة كان أحد الذين اختطفوا أدهم الشاذلي من تريانون. نعم هو.. الرجل الذي يشبه الخنزير البري، والذي هاجمت عينه اليسرى إحدى فراشات نشوى فوزي عندما سبّها.. أقسم بذلك. تابع السائق كلامه (يجب أن يدسّ كل سائق منا عشرين جنيهًا في جيب هذا الأمين الحيوان كلما مرّ من هنا، وإلا تعرضنا لغرامة وسحب الرخص)، ثم أضاف مبتسمًا: (تصدق بالله أن له شقيقًا توأمًا في أمن الدولة، وأعور مثله.. سبحان الله). هنا اكتشفت كم كنت مخطئًا، فالذي شارك في اعتقال أدهم ليس أمين شرطة في المرور.. لا أعرف لماذا ابتسمت، ولكن السائق انتهز الفرصة، فشاركني الابتسام قائلًا: (طبعًا هو يتقاسم المحصول اليومي مع رؤسائه من الضباط).. كنا قد تجاوزنا مطلع كوبري أكتوبر عند غمرة، وصرنا متوقفين بلا حراك فوق الكوبري قريبًا جدًّا من ميدان رمسيس.. أمامنا وخلفنا طابور لا نهاية له من السيارات والميكروباصات الساكنة.

بدأت شمس ديسمبر ترمي أشعتها على جدران المباني العتيقة التي تنتصب عن يميني.. همست بصوت شبه مسموع: (أحب شمس ديسمبر، لأنها تمنح المباني المتربة شكلًا أجمل)، فسألني السائق ماذا قلت؟ لم أرد عليه؛ لأن رنين موبايله شغله عني. تحدث مع زبونة معتذرًا أنه لا يعرف متى بالضبط يستطيع أن يمر عليها؛ لأن السير فوق كوبري أكتوبر متوقف تمامًا عند ميدان رمسيس.. بدأت أتذمّر من هذه العطلة، فاعتدلت في مقعدي. ابتسم السائق، وقال لي: (لا تقلق.. واضح أن أحدًا من الباشاوات سيعبر الطريق)، ثم أردف مستنكرًا: (لكن الوقت ما زال مبكرًا لمثل هذا العبور). أشعل السائق سيجارة أخرى، وهو يستغفر الله من استمرار هذا التوقف. نفخ الدخان بعصبية.. الكلاكسات بدأت تنطلق باستحياء أول الأمر، ولكن السائقين المحبوسين فوق الكوبري أصيبوا بالجنون، فلم يرفعوا أياديهم عن أبواق سياراتهم. التوتر يشتعل في المكان.. صخب وضجيج لا يحتمل.

ترجل سائق السيارة الفيات التي أمامنا وتركها، وراح يتأمل الطريق المتوقف. تبعه سائق مضطرب لميكروباص أبيض، يقف على يسارنا. بعد ثوانٍ معدودات، تجاوز عدد السائقين الذين هجروا سياراتهم الخمسة عشر سائقًا.. كلهم ينظرون في اتجاه ميدان التحرير. تململت في مكاني. ندم سائق التاكسي لأنه اتخذ هذه الطريق قائلًا: (ليتني سرتُ في شارع صلاح سالم).. السائقون والراكبون يهربون من سياراتهم تباعًا.. يا خبر أبيض.. سائق الميكروباص يصعد فوقه ليطل على الطريق. سائقي يستأذن في النزول ليستكشف سر هذا التوقف.. أكثر من أربعة سائقين، يصعدون فوق سياراتهم وينظرون إلى الأمام من باب الاستطلاع. سائق كهل لسيارة مرسيدس، تقف خلفنا يحاول الصعود فوق سيارته؛ فيسقط على الأرض.. يعاونه على القيام سائق السيارة

الهوندا البيضاء. ماذا يحدث؟ كل السائقين والركاب يتسلقون سياراتهم، ويقفون فوق أسقفها من فرط الضجر.. شعرت بارتطام أقدام فوق التاكسي الذي أجلس بداخله. نظرتُ من النافذة، فرأيتُ سائقي يقف فوقي شامخًا يتطلع إلى الأمام.. خشيت أن أترك التاكسي، وظللت منكمشًا في مكاني.. قبضت على الكاميرا بكلتا يدي. يا للغرابة.. السائقون والركاب يثبون فوق أسقف السيارات، متجهين نحو ميدان التحرير.. أصوات وهمهمات لم أتبينها تنطلق من أفواه البشر، عشرات الناس.. بل مئات، لا.. لا.. بل آلاف يقفزون فوق أسقف السيارات ويصرخون ويهتفون.

رفرف أمام التاكسي فجأة صديقي الهدهد.. نظر إليّ وابتسم.. هتفت: (انتظر من فضلك). لم ينصت إليّ وطار ليلحق بالجماهير، أدرتُ الكاميرا الفيديو لأصور هذا المشهد النادر.. الموبايل يرنّ بقوة، فلم أرد. السيارات واقفة والملايين تتحرك فوقها نحو ميدان التحرير.. الهدهد يلوح بين الحشود ثم يتوارى.. رنين الموبايل لا يتوقف، فيوترني، لكنني لا أعبأ به، وأواصل تصوير الحشود المتجهة نحو ميدان التحرير. يا خبر أبيض.. الصورة التي تظهر على شاشة الكاميرا أمامي، لا يوجد بها إنسان واحد ولا أية سيارة.. أين البشر؟ أين الجموع الذين أصورهم؟ ماذا يجري؟ إن آلافًا من أسراب الحمام الأبيض وصديقي الهدهد والفراشات الملونة، فقط، هي التي تتحرك على شاشة الكاميرا الآن!

* * *

18 | مع أصدقائي

على الرغم من أن الحزن الشديد كان يطحن عظام أصدقائي، بسبب اعتقال أدهم الشاذلي، إلا أنني لم أجد مشكلة أن أعرض عليهم الكاميرا الفيديو، التي أهداني إياها شقيقي جمال أمس الأول.. لا أظن أنني كنت قليل الذوق آنذاك، فالحيرة تنهش مني العقل، وأنا أبحث عن تفسير مقنع يمنع الكاميرا ألا تلتقط الحشود المتسلقة فوق أسقف السيارات صباح اليوم متجهة إلى ميدان التحرير.. لم أشأ أن أخبرهم أن أسراب الحمام والفراشات الملونة فقط هي التي تظهر على شاشة الكاميرا، كلما سعيت إلى تصوير الملايين من البشر، كي لا أتعرض إلى سكاكين السخرية المُرّة، التي يجيد زياد أبو سريع استعمالها متى سنحت له فرصة، بل كنت أبغي أن يستخدموها لنرى كيف أنها لا تصوّر ما أمامها، بل ما يحلو لها!

لذا ما إن تلقيت اتصالًا من فادي نجيب يؤكد لي أنهم سيجتمعون الليلة، لمناقشة موضوع أدهم وما وصلت إليه الأمور في متابعة قضية اعتقاله، حتى رحّبت على الفور بالحضور. كنت أول الواصلين إلى كافيتريا الحرية العزيزة، حاملًا على كتفي حقيبة الكاميرا الفيديو. هفهفتْ نسائم ديسمبر تداعب وريقات الشجرة الصغيرة الكائنة أمام الكافيتريا.. جلست في مكاننا المعتاد عند الزاوية، التي نطل منها على أكبر مساحة من ميدان الحجاز. حيّاني النادل بحفاوة، وسألني عن بقية الشباب ذاكرًا بالاسم زياد أبو سريع وأدهم الشاذلي،

بعد أن منح كلًّا منهما لقب أستاذ. لم تحفظ ذاكرتي اسم هذا النادل أبدًا، على الرغم من أنه التحق للعمل بهذه الكافيتريا قبل عام تقريبًا، في الوقت الذي لم أنسَ فيه اسم عم بسيوني النادل السابق، الذي راح ضحية حادث القطار المأساوي الشهير. كم يذكرني عم بسيوني بذكر الزرافة المخضرم، الذي فقد رفيقة حياته، فأوجعه غيابها الدائم.. عنقه الطويل بصورة مدهشة، وعيناه الناعستان تؤكدان لي هذا الشعور باستمرار. جلست في المقعد نفسه المفضل لدى أدهم الشاذلي؛ لأنه يستطيع من موقعه هذا أن يرصد كل ما يجري داخل وخارج الكافيتريا. لاحظت أنني بدأت أعتاد غياب أدهم من حياتي، كما أن حزني على اعتقاله بات يخفت من يوم إلى آخر، لكن الذي يشطر مني القلب أن نشوى فوزي تقدمت بطلب إجازة بعد عدة أيام من حادثة تريانون، وتحديدًا بعد يومين من اصطحاب ابنة خالتها حنان المرشدي إلى غرفتنا وتعريفنا بها.

عماد عزوز هو الذي أنبأني بأنها قامت بإجازة، فقد همست له بذلك عندما كنت في دورة المياه، وانصرفت مصطحبة معها فراشاتها الحزينة. حين عودتي قال لي عماد الخبر بحياد، وهو يتناول قطعة شيكولاتة من علبة، وضعها أمامه فوق المكتب. حزن العالم كله سال في قلبي يومئذ. اتصلت بنشوى خمس مرات، فلم ترد، حتى أنني شككت أن رقم موبايلها قد تغير؛ لذا لم أجد مفرًّا من سؤال عماد عزوز عن رقمها. ابتسم عماد بمكر، مستنكرًا عدم احتفاظي برقم حبيبة القلب.. لم تعجبني سخريته، فرجوته أن يكف عن هذه الطريقة بالكلام معي. كنت حادًّا وعصبيًّا، فأدرك عماد بكياسته أن الأمر لا يحتمل مزيدًا من التهكم، فأملاني رقم صديقة الفراشات بهدوء، وانشغل بعمله وطعامه.. لم يتغير الرقم، ولم ترد نشوى في المرة السادسة أيضًا.

لم يعد بد من القيام بمغامرة الذهاب إلى بيتها في مدينة نصر وانتظارها أمامه حتى تخرج فأحادثها؟ لكن ماذا ستقول عني؟ وفي أي أمر سأتكلم معها؟ لا بأس.. سأخبرها أنني أحبها بجنون، وأنني رأيتها في الحلم في سيرينجيتي.. لكنني سأكذب عليها، وأزعم أنني، وليس أدهم، كنت رفيقها في الحلم الجميل. لا.. لا.. لن أتحدث عن الكلاب البريّة والذئاب المفترسة، ولن أذكر الرجل الأنيق ذا الدخان الأبيض وأقزامه، وبالتأكيد لن آتي على ذكر نهلة إسماعيل حتى لا تغار منها، وتتهمني بأنني شاب مهووس بمغازلة الفتيات.. سأفاجئها أيضًا بالمعلومة المدهشة، وهي أني قد عُلّمتُ منطق الطير، وأنني أجيد الحديث مع الهدهد الذي نعشقه معًا، وأنه يلقي عليّ تحية الصباح كل نهار. وأنني أستمتع برؤية تاجه الباهر مع طلوع الشمس.. سأقول لها إن جدتي «مآثر» تؤكد أن الهدهد إذا ألقى تحية الصباح على إنسان، فهو محظوظ، وقد تأكدت من مقولة جدتي حين أشرق نورك في حياتي، فأورقت بساتين العالم كله في فؤادي دفعة واحدة.. حدث هذا يوم بادر الهدهد بإلقاء تحية الصباح على مسامعي لأول مرة.

أنا غبي.. هكذا هتفت، لكنني لم أدرِ أنني قلتها بصوت عالٍ، إلا حين هرول النادل نحوي سائلًا بتوتر:

- هل تطلب شيئًا يا أستاذ معتز؟

تعجبت.. كيف عرف اسمي؟ اكتشفت أن الشيشة بجواري، فلم أعِ متى جاء بها؟ كذلك لا أتذكر متى وضع الشاي بالحليب أمامي؟ بل لا أذكر أنني طلبت منه شيئًا في الأصل. خشيت أن أسأله هل أنا من طلب الشاي والشيشة؛ حتى لا يظن بي الظنون؟ قلت له بارتباك واضح، محاولًا مداراة صراخي المباغت:

- من فضلك.. أريد جمرًا جديدًا للشيشة.

أعتقد أنه رمقني بنظرة غير مريحة، لأنه عاين الجمر الموجود في الشيشة، فوجده ما زال متقدًا ومحتفظًا بحراراته.. تابعته وهو يقوم بتبديل الجمرات بتأفف ظاهر. كدت أشتمه لأنه لا يجيد فن التعامل مع الزبون وإرضائه، لكنني تراجعت؛ حتى لا أفسد على نفسي لذة الخلوة بمفردي لحين حضور الأصدقاء. تذكرت أنني وصفت نفسي بالغبي، ولكنني نسيت السبب الذي دعاني إلى إطلاق هذا الوصف عليّ. مرّت أمامي أربع طالبات محجبات، يقبضن على كتبهن بقوة ويتحركن بسرعة في اتجاه الميدان.. إحداهن مالت برأسها نحوي، فبدت عيناها أجمل من عيني قطة صغيرة مسالمة. تذكرت طائر البطريق بحركته الآلية على شاطئ البحر؛ لأن إحدى البنات كانت منكمشة داخل ملابس تشبه البطريق، وتقفز مثله أثناء السير.

آه.. تذكرت لماذا أنا غبي؟ لأنني لم أحاول أن أبحث عن نشوى فوزي في الفيس بوك.. كما أننا لم نتبادل الإيميلات. حقًّا.. كم أنا غبي! كيف غابت عني هذه الوسيلة؟ هل اعتقدت أن وجودها معي يوميًّا بحكم العمل يغنيني عن التواصل الإلكتروني معها؟ أم أنني خجلت أن أطلب منها الإيميل الخاص بها حتى لا تعتبر ذلك تطفلًا مني؟ وانتظرت حتى تبادرني به؟ يبدو أن الحق عليّ لأنني لا أفتح صفحتي على الفيس بوك إلا قليلًا، فتأمُّل الحيوانات على اليوتيوب ينهب مني الوقت، ويشبعني بما فيه الكفاية. حين أعود إلى بيتي الليلة.. سأعاود تنشيط علاقتي بالفيس بوك، عسى أن أجد نشوى فوزي تجلس هناك على صفحتها.. هكذا قلت لنفسي، وأنا أجذب نفسًا عميقًا من الشيشة.

فادي نجيب كان أول الواصلين، فأخرجني من دوامة تأملاتي وهواجسي؛ حيث صافحني دون اكتراث. وجلس عن يميني.. تكدّست في عينيه غربان الحزن كله. طلب بيبسي وشيشة تفاح، ثم سألني:

- هل عندك أخبار؟

نفيت بحركة من كتفي، ولكن يبدو أنه كان مستفزًّا من شيء ما؛ إذ سرعان ما عاجلني بعصبية واضحة:

- كيف؟ ألستم الصحافة.. والأخبار كلها تصبّ عندكم؟

قدّرت أحزانه، وندمت لأنني جئت إلى هذا اللقاء، ومع ذلك تماسكت، وأنا أهمس بهدوء:

- رئيس تحريرنا لا يحبذ نشر أي أخبار عن المعتقلين.

بأداء فاحت منه رائحة اعتذار عن عصبيته، عقّب فادي نجيب على كلامي قائلًا:

- أعرف.. أعرف.. فهو منافق كبير.

ليس بإمكاني الجزم، هل شعرت أن فادي نجيب فقد كثيرًا من وزنه بسبب الحزن على أدهم، أم أن الرياضة التي يمارسها بانتظام منذ أشهر أتت أكلها، وأعادت ضبط جسده، الذي انتفخ بصورة لافتة في العامين الأخيرين. لم تكن بدانة فادي من النوع المزعج، ولكنها كانت لا تلائم عمره كشاب ثلاثيني، إلا أن إصرار الفتاة التي ارتبط بها رسميًّا على أن يخفف من وزنه، هو الذي دفعه للاشتراك في نادٍ رياضي، كما أبلغنا وقتئذ.

يتمتع فادي بعينين خضراوين واسعتين وجميلتين حقًّا. أحيانًا، عند الغضب فقط، يشبه نمرًا سيبيريًّا، كما أنه مزوّد بجبين منبسط، وشعر بني غزير. أما شاربه، فكثيف وطويل لدرجة أن شعيراته تتدلى على شفته العليا،

فلا يكف عن العبث بها بأصابعه إذا كان متوترًا.. يفضل دومًا الألوان الحمراء، ففي أي وقت لا بد أن يرتدي شيئًا أحمر.. قميصًا أحمر.. تي شيرت أحمر.. جاكتًا أحمر.. رابطة عنق حمراء.. جوربًا أحمر.. ساعة بجلدة حمراء.. حقيبة يد حمراء عند سفره.. وهكذا، لدرجة أن زياد أطلق عليه تهكمًا اسم (الشاب الأحمر)!

في هذه الليلة خلا فادي نجيب تمامًا من أي لون أحمر، وهو أمر نادر جدًّا، تكرر مرة أخرى بعد ذلك في يوم مشهود، قبل أن يحرق فؤادي إلى الأبد. استعجل فادي النادل بعصبية ليأتي بالطلبات.. جال ببصره متأملًا رواد الكافيتريا في هذا الوقت من الليل، ولم يكن هناك زبائن كُثر على غير العادة. التفت نحوي، وهمّ بأن يقول شيئًا، ثم أحجم برهة، قبل أن يتنهد، وهو يغمغم متأسفًا:

- هذه أول مرة لا نرتب فيها لقضاء ليلة رأس السنة.

قبل أن أجيب، هلّ علينا كل من زياد أبو سريع ومحمود أبو ماضي.. هذه هي المرة الأولى التي لا يشاكس فيها زياد نادل الكافيتريا من باب التبسّط وصناعة النكتة الساخنة، التي يتقنها أيما إتقان؛ حيث طلب منه شايًا بالحليب وشيشة نعناع، دون أن ينظر إليه.. كان زياد قد تدثر ببلوفر صوف أسود يوحي لمن يراه أن البرد بات قارسًا، على الرغم من أن الأجواء الطقسية لم تكن تستدعي ذلك.. لكن زياد كان يرتعب من فكرة المرض، ويحاول دومًا أن يقي نفسه قبل أن تقع (الفأس في الرأس) وفقًا لتعبيره. أما محمود أبو ماضي؛ فلبث يتحدث في الموبايل بهدوئه المعروف.. صوته رقيق كهديل يمامة في الصباح. نعم.. أحب صوت محمود أبو ماضي وطريقة أدائه، لكن ما يغيظني هو أن بشرته السمراء لا تتوافق بالمرة مع نبرة صوته الناعمة والهامسة.. كثيرًا

ما تخيلت أن بشرة محمود وعينيه السوداوين الغائرتين وقسمات وجهه الحادة في حاجة ماسة إلى صوت جهوري صدّاح، مثل صوت زياد أبو سريع، الذي سيشرق بالهتافات المدوية فيما بعد. لو أستطيع أن أستعير صوت زياد وأصبّه في حنجرة محمود، لكان الأمر أكثر روعة واتساقًا.. هكذا دائمًا، كنت أهمس لنفسي كلما أصخت السمع، وأمعنت النظر في وجهيّ صديقيّ العزيزين.

لا أدري كم من الوقت مرَّ علينا ونحن نعانق السكوت.. لا يفتأ محمود يكتب رسائل على الموبايل ويدخن سجائره بشراهة.. فادي مشغول بمتابعة مباراة كرة قدم يعرضها تليفزيون الكافيتريا.. زياد شارد ومهموم، وأنا أعاين الجميع بقلب مضطرب وروح قلقة. ترددت أن أطلعهم على الكاميرا الفيديو التي وضعتها على كرسي بجانبي، وتعجبت أن أيًّا من أصدقائي لم ينتبه إلى وجود حقيبة بحوزتي، حيث لم يسألني عنها أحد.

بصوت قوي وحاد، هتك زياد أبو سريع حرير الصمت صارخًا:

- أولاد الكلب.. متى سيفرجون عنه؟

لم يعلق أي منا على صراخ زياد وسؤاله، فتأملنا قبل أن يطلق تنهيدة كبيرة، أوجعت قلوبنا هاتفًا:

- مسكين أدهم.. هل يعقل أننا لا نعرف عنه شيئًا حتى الآن؟

انبرى فادي نجيب للحديث عما يتوقعه، مؤكدًا أن ما سيدلي به من آراء مستوحى من حواراته مع والده حول الموضوع.. قال فادي إن النظام لن يتسامح مع البرادعي وأتباعه، وأن الرئيس مبارك قرر توريث الحكم لابنه جمال بصورة نهائية وقريبًا، قبل أن يتوفى؛ فالرجل على مشارف الثالثة والثمانين، ويبدو من صوره أن صحته ليست على ما يرام؛ لذا أخطأ أدهم حين ارتهن نفسه للبرادعي، ثم غمغم بصوت خفيض، وهو ينظر إلى لا شيء:

- ونحن أيضًا ارتكبنا خطأ جسيمًا، حين تركناه يمارس السياسة بكل هذا الاندفاع، ولم ننصحه، أو نمنعه، ولو بالقوة.

- هل تظن أن أدهم ما زال طفلًا، يمكنك أن تمنعه من فعل ما يريد؟

بهذه العبارة انفجر زياد في وجه فادي، الذي أشار بيده أن يهدأ قليلًا، قبل أن يهتف:

- نعم.. في هذه المسألة تصرف أدهم برعونة وسذاجة الأطفال، ولم يدرك أن النظام لا يعرف الرحمة إزاء محاولة الاقتراب من كرسي الرئاسة المحجوز للابن المدلل.

اضطر زياد أبو سريع إلى السكوت، منتظرًا ما سيقوله محمود أبو ماضي، عندما رآه يعتدل في مقعده استعدادًا للحديث:

- يا جماعة.. نحن الآن في مشكلة، وهي أن أدهم في المعتقل ولا ندري عنه شيئًا.. دعونا من الكلام عما كان يجب عمله، لا يهم إن كان أصاب أم أخطأ بانضمامه إلى البرادعي وجمعيته، المهم ماذا سنفعل الآن؟

رقة محمود في الأداء لا توصف، فلما سألني ما رأيك؟ باغتني، إذ كنت أفكر في الطريقة المثلى لنقل صوت زياد الجهوري إلى حنجرته بأقل الخسائر الممكنة.. قلت بسرعة:

- أتفق معك يا محمود.

وقف زياد محتجًّا، وهو يعلن:

- هل يستطيع أحد أن يفعل شيئًا مع أمن الدولة؟ إنهم جبروت.. حتى محاولات خاله الأستاذ عادل صالح، وهو الصحفي الكبير ذو النفوذ الإعلامي والاجتماعي، لم تنجح في الإفراج عنه أو معرفة مكان اعتقاله.

حطّ اليأس علينا مرة أخرى بعد كلام زياد أبو سريع، فانشغل كل منا بجذب أنفاس الشيشة بتوتر واضح.. محمود أبو ماضي تناول البيبسي الذي طلبه بشهية معطوبة، فتركه جانبًا، وبعد برهة صمت لم تدم طويلًا، قال فادي نجيب:

- ألا يوجد جديد عند المحامي سالم الفلاّح؟

لم يكن سؤال فادي موجهًا إلى شخص محدد، ولكن زياد اندفع في جذب نفس عميق من الشيشة وأطلقه في الهواء، قبل أن يشطر قلبي نصفين بهذه الجملة:

- وفقًا لما قالته لي نشوى فوزي، فإن المحامي يؤكد أنه لا حل سوى الضغط الإعلامي على وزارة الداخلية وأمن الدولة.

نشوى فوزي.. إنه يقول نشوى فوزي.. أين ومتى رآها؟ وكيف عرفت بآراء المحامي؟ هل تتردد على مكتبه؟ وبمفردها أو مع شخص ما؟ ومَنْ يكون؟ تراكمت الأسئلة في قلبي وعقلي بصورة متلاحقة، دون أن أجد لها إجابة.. تململت في مكاني، والتفت يمينًا وشمالًا. استجمعت شجاعتي لأطرح على زياد أسئلتي، ولكن محمود أبو ماضي سبقني بسؤاله:

- متى رأيتها آخر مرة؟

ببرود يكاد يقتلني، أجاب زياد أبو سريع:

- اليوم.. لقد زارتنا نشوى ظهر اليوم، وتناولت معنا الغداء.

قبل أن ألتقط أنفاسي، أضاف زياد:

- بالمناسبة، لقد صارت هي وزوجتي مهجة صديقتين.

المفاجآت تتوالى، وضربات قلبي تقرع بشدة؛ لدرجة أنني خشيت أن تصم آذان كل من في الميدان، وليس مَنْ في الكافيتريا فقط.. نار الغيرة تتقد في

جوفي.. التوتر يملأ معدتي، وجهازي الهضمي يرفض أن يستقبل بقية الشاي بالحليب، الذي لم أشرب منه إلا القليل جدًّا. رغبت في الانصراف، وكرهت وجودي بينهم، وكرهت الكافيتريا وميدان الحجاز، ولكنني غير قادر على أن أبغض نشوى فوزي.. لا مناص.. عليّ الاعتراف بأنها مفتونة بأدهم الشاذلي، وأنها تفتش عنه وتكدح في البحث عن مكانه.. فجأة سألني زياد:

- ما بك يا معتز؟

أربكني سؤاله، فرمقته بنظرة تضج بغلٍّ كبير، قبل أن أتمتم بصوت لا يكاد يُسمع، وأنا أشيح بوجهي نحو الميدان:

- لا شيء.. لا شيء.

- حقًّا.. ماذا جرى لك يا معتز؟

هكذا كرر محمود أبو ماضي السؤال نفسه بصوته الناعم.. ابتسمت في وجهه للحظة، وأنا أهمس:

- لا شيء.. لا شيء.

واصل زياد كلامه عن زيارة نشوى فوزي لمنزله أمس، بعد أن ألقى عليّ نظرة استفهام لم أجد لها تفسيرًا. قال إنها تعشقه، وتكاد تنهار لاختفاء أخباره. وأنها تمر يوميًّا على مكتب المحامي وعلى الأستاذ عادل صالح في جريدته. وفي كل مرة تصعق قلبها الإجابة المُرّة (لا توجد أخبار عن أدهم)؛ فتعود إلى بيتها مغمورة في وحل الاكتئاب الشديد كما تقول.. مهجة زوجتي أشفقت على حالها كثيرًا وطلبت مني رقمها، فاتصلت بها، ودعتها إلى تناول الغداء في بيتنا؛ لتخفف عنها أحزانها قدر المستطاع.

كنت أنصت إلى حديث زياد بقلب متلهف وموجوع.. إذن فقد قامت نشوى فوزي بإجازة لتبحث عن الحبيب المخطوف، بينما أفكر في الوقوف

أمام بيتها عسى أن ألقاها بالصدفة. حقًّا.. ما أتعسني، لكنها أومأت لي بإشارات كثيرة ومتنوعة، تؤكد انشغالها بي وميلها نحوي.. لقد أعلنت بوضوح أنها تعشق الهدهد وتاجه ورقته، ثم وافقت على لقائي في كوستا، وقبلت صورة الهدهد التي أهديتها إياها بفرح كبير، كما أنها مبهورة بفكرة تعليق صور الحيوانات والطيور في غرفة الإخراج والتنفيذ، وقد تأملت جميع الحيوانات بحب شديد في أول مرة، اقتحمت فيها قلبي وغرفتنا، وما فتئت تهتم بهذه الصور وتبتسم لها، ونحن منهمكون في العمل، فكيف أصدق أنها لا تبادلني المحبة والافتتان؟! ألا يجوز أن يكون انشغالها بأدهم الشاذلي نوعًا من الإشفاق على شاب، تم اعتقاله من قبل أمن الدولة ذي السمعة السيئة؟ رأسي ينفجر وروحي تنزف، ولا مفر من الهروب من المكان.

جفلت من رنين موبايل.. لم أنتبه أنه لي، إلا حين أشار بذلك فادي نجيب.. كانت حنان المرشدي. لم أرد.. وقفت للحظة ثم عدت إلى الجلوس.. أغلقت الخط. لاحظت أن الكل يحدّق في وجهي.. غمغمت واضطربت وانكمشت. شعرت بنسمة باردة تتسلل بين ملابسي لتحرق عظامي.. الشيشة.. قلت لنفسي: الشيشة هي التي ستنقذني من عيونهم.. كنت قد وضعتها جانبًا، وأنا أطارد كلمات زياد عن صديقة الفراشات. عدتُ إلى الشيشة، وصحت مناديًا النادل، راجيًا إياه أن يغيّر الجمرات الخامدات.. تبادلوا نظرات غير مفهومة فيما بينهم، ثم شرع زياد في مواصلة حديثه بمفاجأة مدوّية:

– لقد أطلقت نشوى فوزي منذ أسبوع تقريبًا موقع (كلنا أدهم الشاذلي) على الفيس بوك، على غرار موقع (كلنا خالد سعيد)، وقد انضم له أكثر من مائة ألف شخص حتى الآن كما تقول.

ياه.. كم أنا غبي! كيف فاتني أن أتابع هذه التطورات؟ ثم أكمل زياد:

- عن نفسي لا أثق إطلاقًا بأن هذه الأمور ستفلح في الإفراج عن أدهم، ولكنني لم أشأ أن أخبرها بذلك؛ احترامًا لمشاعرها المجروحة.

- وما الحل في رأيك؟

سأل فادي نجيب بلهفة، فما كان من زياد إلا أن نهض واقفًا، وأشار بسبابته في وجه محمود أبو ماضي قائلًا:

- أبوك يا محمود يجب أن يتدخل، فهو رجل أعمال كبير، ووكيل وزارة، وعضو مهم في لجنة السياسات بالحزب الوطني.

- ينصر دينك يا زياد.. كيف فاتتنا هذه الفكرة؟

هكذا صرخ فادي نجيب، وهو يشيد باقتراح زياد، ولكن محمود أبو ماضي سكب علينا دشًا باردًا بقوله:

- ومن قال لكم إنني لم أفاتح والدي في هذا الأمر منذ أول يوم؟ لقد قال لي إنه سيحاول جاهدًا، لكن الموضوع خطير جدًّا.

ثم استطرد محمود بصوته الناعم:

- إلا الاقتراب من كرسي الرئاسة، وأدهم يدعم بقوة ونشاط رجلًا، يسعى لخطف كرسي الرئاسة.. هكذا قال لي أبي.

عاد طائر اليأس ليحلّق فوق رؤوسنا مرة أخرى؛ فلاذ كل منا بصمت مريع، قطعه بوق مزعج لسيارة تخترق ميدان الحجاز جعلنا نجفل جميعًا، ودفع فادي إلى كيل السباب إلى السائق. أطلق موبايل زياد رنين بوليس النجدة الشائع، فابتسم فادي لأول مرة.. قال لنا زياد إنه مضطر للانصراف ليصطحب زوجته إلى الطبيب، فهي حامل في شهرها السابع. تمنى لها محمود

أن تضع مولودها بسلام. سأله فادي إن كانا قد عرفا جنس المولود، فابتسم زياد وقال بفخر: نعم إنه ولد، وسأسميه عليًّا. لم أعلّق على كل مادار، وانشغلت بالشيشة ونشوى وموقع «كلنا أدهم الشاذلي»، لكن حين وقف زياد وهمّ بالرحيل سألنا:

- ما حكاية الشاب التونسي محمد البو عزيزي؟

تصدّى فادي نجيب للإجابة قائلًا: إنه شاب تونسي، يمتلك عربة خضار، أحرق نفسه قبل أيام احتجاجًا على الإهانة التي تعرض لها من قبل السلطات هناك، فانفجرت تونس بالمظاهرات ضد البطش والإذلال.

تذكرت أننا أشرنا إليه في خبر صغير بجريدتنا، ولكنني نسيت اسم المدينة التي ينتمي إليها الشاب. أما زياد، فقد ابتسم قبل أن ينصرف صارخًا بصوته المدوّي:

- والله.. لو أحرق التوانسة كلهم أنفسهم، ومعهم الشعب المصري أيضًا، فلن يتغير شيء!

ردد فادي نجيب ومحمود أبو ماضي هذه الجملة بصوت واحد تقريبًا، وهما يبتسمان:

- معك حق يا زياد!

تحججت بأني متعب، واستأذنت في الانصراف عقب ذهاب زياد مباشرة.. وضعت حقيبة الكاميرا الفيديو على كتفي، فسألني فادي عما بهذه الحقيبة. لم أخبره بأنها الكاميرا الفيديو، وقلت لا شيء.. كنت أبغي الهروب من عيونهم الملحاحة، سرتُ في شارع الحجاز تلفحني نسائم هواء منعشة، وتزعجني أبواق السيارات، وصوت حركة المترو على القضبان.. قلبي يدمع

من حكايات زياد عن غرام نشوى بأدهم، وتذكرت أنني لم أدفع ثمن ما تناولت من مشروبات، فقررت العودة إلى الكافيتريا، لكنني تراجعت، وأكملت المسير.

مررتُ بمجموعة من الشباب تقف على ناصية شارع جانبي وتتبادل النكات، وسمعت أصوات طيور مهتاجة على أغصان الأشجار.. رفعت رأسي لأعلى محاولًا رؤيتها، والبحث عن صديقي الهدهد، فلم أتمكن بسبب الظلام. دفقة رعب اخترقت قلبي، حين شعرت أن هناك رجلًا يتبعني، فوقفت في مكاني أقاوم رعشة فجائية.. التفتُّ إلى الخلف، فلم أر شيئًا. قررت عبور الشارع إلى الجانب الآخر؛ هربًا من المراقبة المظنونة.. انتظرت حتى مرّ مترو الميرغني أمامي، وعبرت قفزًا فوق الأرصفة. رنّ الموبايل، رقم حنان المرشدي، فلم أستجب لرنينها.. رأيت شابًّا يضع يده على كتف فتاة محجبة، يسيران بتؤدة في الاتجاه العكسي، ويتبادلان عبارات الغزل كما تبوح أعينهما.. دعت لي شحّاذة عجوز تفترش الرصيف، ترددت في أن أناولها شيئًا، ولكنني لم أفعل.

أصوات شجار حادة تصلني من الجانب الآخر عند كشك الجرائد. مرّ بجواري شاب يركض بسرعة وهو يصرخ.. جفلت منه، ووقفت في مكاني خائفًا وحائرًا. تبعه شابان آخران يلاحقان الشاب الأول.. كانا يجريان في اتجاه ميدان المحكمة. ماذا يحدث؟ عشرات من الشباب يركضون من كل الاتجاهات نحو الميدان نفسه، يتبعهم أقوام من النمل الأبيض الجائع سدّت شارع الحجاز.. ألمح أدهم الشاذلي يهرول بسرعة تلاحقه نشوى فوزي.. أرتجف وأتعجب وأتساءل: متى خرج من المعتقل؟ أصيح: انتظريني يا نشوى، فلا تلتفت إليّ وتختفي بين الجموع.

الأنوار الصادرة من السيارات التي تتحرك في الاتجاه المعاكس تربك عينيّ بشدة، فألعن أصحابها. يلكزني في كتفي زياد أبو سريع، دون أن يدري، وهو يركض نحو الميدان، بصحبة فادي نجيب ومحمود أبو ماضي.. أناديه.. ماذا يحدث يا زياد؟ فلا ينتبه لندائي، ويختفي بين الحشود كما اختفت حبيبة لي من قبل.. يا خبر أبيض.. كيف وصلت الكلاب البرية والذئاب المتوحشة من سيرينجيتي إلى هنا؟ إنها تخرج من الشوارع الجانبية بأعداد مهولة لتطارد النمل والشباب.. السيارات تتكوم فوق بعضها.. المترو يصدر أنينًا موجعًا، قبل أن يصاب بشلل يمنعه من التحرك. الصخب يزداد والروائح الكريهة تفوح في الأفق.. الأشجار تترنح بعصبية.. الطيور تتوقف عن ممارسة الغزل الليلي وتصرخ بلوعة. من أين اندلعت هذه النيران؟ يا نهار أسود.. شاب يشعل في نفسه النار أمام باب المحكمة في الميدان.. النمل الأبيض، يتحرك بجنون نحو الميدان متسلقًا السيارات والأشجار والبشر. شاب آخر ينزع ملابسه بسرعة، ويصبّ فوق رأسه البنزين، ثم يوقد في جسده النار.

النمل يلهث، والشباب يحرقون أنفسهم والكلاب تنبح، والذئاب تعوي، بينما الملايين تتأمل في صمت! أبحث عن نشوى وأدهم وزياد وفادي ومحمود، فلا أجدهم. أشهق.. أرتعش.. أصرخ.. تسقط مني الكاميرا على الأرض.. أتناولها بسرعة، وأهرول نحو منزلنا، يملؤني رعب العالم كله.

* * *

19| فوق سرير المرض

- ألف سلامة عليك يا أستاذ معتز.. لقد أوحشتنا هذه الأيام التي غبت فيها عنا.

برقة لا متناهية، همست حنان المرشدي بهذه العبارة فور أن دخلت غرفتي بصحبة عماد عزوز.. كانت هذه هي المرة الرابعة أو الخامسة التي يزورني فيها عماد في منزلي، ولكنها المرة الأولى التي أستقبل فيها حنان المرشدي في بيتنا. وفقًا لكلام عماد عزوز، فإنني لم أتحوط جيدًا للسعات البرد، فلم أرتدِ الملابس الثقيلة التي تناسب الموجة الباردة، التي هبّت على القاهرة في الأيام الماضية؛ الأمر الذي تسبب في إصابتي بنزلة برد حادة مصحوبة بحمّى وقشعريرة ورشح وصداع.

كل ما أذكره في هذ الأيام أن الطبيب، الذي زارني في المنزل، كان يعتلي جسده الضخم وجه فيل يافع، يشبه الفيل الذي رافقني في الحلم داخل محمية سيرينجيتي. كما أذكر أنني كلما استعدت درجة ما من الوعي، كنت أفتح عينيّ، فأجد أمي تجلس على مقعد بجوار سريري، وهي غارقة في يمّ الحزن والشرود. كما أذكر وجه فتاة جميلة، تغرز في مؤخرتي سن المحقن برشاقة، فأتألم للحظة، فتبتسم اعتذارًا، فيصبح وجهها منفّرًا في الحال كوجه أنثى الضبع.. لا أذكر كم مرة قررت فيها أن أرجوها ألا تبتسم، مقابل وعد مني

بألا أتأوه عندما تغرز سن المحقن في مؤخرتي مرة أخرى.. بيد أني أتراجع، وأكتفي بغضّ عينيّ كلما ابتسمت!

استقبلت أمي عماد عزوز وحنان المرشدي بترحاب شديد، وقد عبرت عن شكرها الجزيل لتعبهما وهداياهما.. باقة الورد التي أحضرتها حنان المرشدي، تؤكد أنها فتاة خلقت من القرنفل والياسمين، فالباقة مكونة من زهور مختلفة الأشكال والألوان، ولكن يؤلفها حسن التنسيق ورقة الأوراق ونضارتها. قدمتها لي وبريق الود يشرق من عينيها.. كدت أسألها عن نشوى فوزي، ولماذا لم تأتِ معهما، لكنني تراجعت حين قال لي عماد إنهما لم يخبرا نشوى بمرضي؛ لأنها قامت بإجازة لمدة أسبوعين.. إنها تبحث عن أدهم الشاذلي.. هكذا قلت لنفسي بقلب موجوع.

من جانبه، حاول عماد أن يلفت انتباهي إلى علبة الجاتوه التي اشتراها خصيصًا لي، حتى أطلب من والدتي أن تقدم لهما ما تيسر منه. وبالفعل، تولت أم السيد صنع الشاي، وتقديمه مع قطعة جاتوه واحدة لكل من عماد وحنان. أول مرة ضحكت فيها منذ تعرضي لهذه الوعكة، كانت عندما اعترض عماد بعينيه وصوته ولهاثه على أن يكون نصيبه قطعة واحدة فقط من الجاتوه، الذي أهداني إياه قبل قليل.. طلبت من والدتي أن تأتي بالعلبة كاملة إلى هنا؛ فابتهج عماد وهتف بفرح طفولي: (هذه هي الصداقة الرائعة بحق).

جابت حنان بعينيها غرفتي من باب الاستكشاف، تأملت كوكبة الحيوانات والطيور المعلقة على الجدران دون اكتراث كبير.. سألتني وهي لا تنتظر إجابة:

- هل هذه نسخة من الصور نفسها، التي تزدان بها غرفتكما في الجريدة؟

قالت ذلك وهي تتصفح سريعًا مجلة أجنبية، كانت موضوعة فوق مكتبي رُصّع غلافها بصورة كبيرة لأسد يتأمل مملكته بكبرياء. لم تنشغل حنان بصورة الهدهد الضخمة، التي أضعها على الحائط قبالة سريري تمامًا، وهي أول صورة أطالعها في الصباح، وآخر صورة أغمض عينيَّ عليها حين يدقّ النعاس باب جفوني.. بعد أن التهم عماد نصيبه من الجاتوه، استأذن حنان في أن يسطو على قطعتها التي لم تقربها. كان يتحدث بكوميديا ظاهرة، ولكنها تنم عن رغبة جارفة في تناول الجاتوه الخاص بحنان، مادامت لا تنوي أن تأكله. ابتسمت حنان فأضاء وجهها خفر أنثوي رقيق انبثق من عينيها، وأشارت له أن يفعل ما يشاء، فما إن همّ بمد يده على الصحن، قرع باب شقتنا الأصدقاء الثلاثة، وهكذا التف حول سريري، في لحظات، زياد أبو سريع ومحمود أبو ماضي وفادي نجيب.

في البداية، طلب مني زياد تقديم واجب العزاء إلى فادي.. ارتبكت وهتفت:

- مَنِ الراحل؟

- خالي زكريا المقيم بالإسكندرية.

قال فادي ذلك، وهو يحدّق في وجه حنان المرشدي، بينما صرخ زياد بغضب:

- أولاد الكلب فجروا كنيسة القديسين ليلة رأس السنة؛ أي في عيد المسيحيين!

لم يرفع فادي عينيه عن حنان التي واسته بالعبارة التقليدية (البقية في حياتك)، فلم يرد، وظل متشبثًا بوجهها. في حين أعلن زياد أن الشرطة التي لا تحمي دور العبادة غبية ومتواطئة، فهزّ محمود أبو ماضي رأسه موافقًا.

لا أحد يعرف حتى الآن السر الذي جعل فادي نجيب يهيم بحنان المرشدي إلى هذه الدرجة؛ فينسى حزنه على خاله، ويهجر خطيبته التي تدين بدينه، ويخاصم أهله، ويصنع كل ما يمكن أن يسهم في اختراق قلب حنان.. لقد صافحها في غرفة نومي بمجاملة مشروعة، في مثل هذه المناسبات، مثلما فعل زياد ومحمود؛ إذ كانت هذه أول مرة يلتقي فيها أصدقائي مع حنان. ثم دار بينهما حوار قصير حول أدهم الشاذلي، ومتى يمكن أن يتحرر من الاعتقال، وقد شارك كل من بالغرفة في هذا الحوار، فماذا حدث بالضبط؛ ليتحول فادي نجيب إلى شاب مولع بحنان المرشدي حتى النخاع؟

بعد نحو عشرين دقيقة، استأذنت حنان المرشدي بالانصراف، وقد صحبها عماد عزوز. وحين حاولت أن أنهض من سريري لتوديعها، أعفتني شاكرة، وهي تتمنى لي الشفاء العاجل.. أكدتُ لهما أنني سأزاول عملي غدًا، لأني أشعر بتحسن واضح. وما إِن أغلق باب الغرفة، حتى انقض عليّ فادي نجيب مثل نمر سيبيري:

- هل بينك وهذه الفتاة أية علاقة؟

تعجبت من سؤاله، فعقبت باستغراب:

- مَنْ تقصد؟ ولماذا؟

بغضب واضح، وتعجل مريب، هتف فادي:

- حنان.. زميلتك.. أقصد هل بينكما علاقة غرامية تحديدًا!!

ابتسمت بيأس، وأنا أكتم في نفسي شعورًا بالوضاعة؛ لأن شبح أدهم الشاذلي استولى على الحديث الذي دار في غرفتي بين عُوّادي، ونسوا أنني أنا المريض الأحق بالاهتمام والتدليل.. تعجبوا كيف لم يفلح خاله عادل صالح،

وهو صحفي مرموق وشهير، في الوصول إلى معرفة مكان اعتقاله حتى هذه اللحظة. سبّوا جهاز أمن الدولة وجبروته، واقترح فادي نجيب أن نخرج في مظاهرة تتوجه إلى مجلس الوزراء رافعة شعار (افرجوا عن أدهم الشاذلي). تولّى زياد تسفيه الاقتراح، معتبرًا إياه محاولة علنية للانتحار؛ لأنهم سيعتقلون كل المشاركين في المظاهرة.. أعلنت حنان باهتمام وإعجاب أن هناك الآلاف قد انضموا إلى صفحة (كلنا أدهم الشاذلي)، التي دشنتها نشوى فوزي، وهو أمر جيد سوف يمثل ضغطًا على النظام. رقص قلبي في مكانه حين جاء اسم طيبة الذكر وفاتنة الفؤاد، لكنه يشبه رقصة طائر ذبيح؛ فقد أصبح ذكر نشوى فوزي مقترنًا على الدوام بأدهم الشاذلي.

- لا.. ليس بيني وبينها علاقة.

- لماذا تسأل؟

باستغراب ونبرة حادة تساءل زياد أبو سريع، فاكتفى فادي بغمغمة تشي بأن لا شيء هناك. لكن كلنا علمنا بعد ذلك أن فادي كان يكذب؛ فقد سقط الفتى في هوى الفتاة منذ اللحظة الأولى، بعد أن اخترق فؤاده سهم الحب في غرفة نومي! لم يضيّع فادي نجيب الوقت؛ حيث اصطحبني في اليوم التالي مباشرة إلى مقر عملي مستعيرًا سيارة والده. كذب عليّ حين قال لي إنه لا يصح أن أتنقل في المواصلات العامة في غضون فترة النقاهة، فتطوّع لتوصيلي إلى الجريدة وانتظاري حتى أنتهي من عملي؛ ليعود بي مرة أخرى إلى منزلي.

في مكتبي، لم يتمكن فادي من الجلوس، حتى فاض به الغرام، فسألني بلهفة حاول كتمانها، فلم يفلح:

- هل حنان المرشدي تأتي إلى هذا المكتب؟

هنا فقط أيقنت أن طائر الهوى يرفرف في قلب فادي، فأدركت لماذا يرتدي هذا الصباح ملابس أنيقة، عبارة عن بدلة كحلية وقميص أبيض ورابطة عنق حمراء.. تأملت توتره، وقلت بخبث:

– ليس كثيرًا.. فمكتبها هناك في صالة التحرير.

توجّه نحو باب الغرفة، وأمسك الأكرة، وضغطها إلى أسفل ليفتح الباب.. لكنه تراجع، وسألني بارتباك لم يحاول مداراته:

– هل مسموح لي زيارتها هناك؟

قبل أن أرد، قفز فوق رأسي صارخًا:

– أم أن الأفضل أن تدعوها إلى هنا، فأراها وأصافحها؟

حدقت النظر في ملامحه، كان أشبه بنمر سيبيري ملهوف على أنثاه الغائبة.. اندهشت كثيرًا، فالعشرون دقيقة التي جمعتهما في غرفة نومي لا تكفي لأن يتدله بها هكذا، خاصة أن لقاءهما لم يكن منفردًا. تراجعت عن خاطر مرّ سريعًا في بالي، وهو أن أكذب عليه وأخبره أنها مخطوبة؛ حتى يصرف النظر عنها، لكنني فطنت إلى أن اختلاف الأديان سيتولى إطفاء نار الغرام، التي اندلعت فجأة في قلب فادي. لم يكن عماد عزوز قد وصل إلى المكتب بعد، فاتصلت بحنان بحجة أن عليها مطالعة إخراج الحوار، الذي أجرته مع وكيل وزارة الثقافة.

ما لم أتوقعه أبدًا هو حجم الإهمال الذي لقيه فادي نجيب من قبل حنان المرشدي، فقد وصلت إلى غرفتي في أقل من دقيقة، وصافحتني بحبور شديد، وهي تقدم لي باقة أخرى من الزهور ابتهاجًا بشفائي وعودتي إلى مكان عملي.. فلما لاحظت أن فادي نجيب يتأملها واقفًا، ابتسمت وقالت:

– مرحبًا بك في جريدتنا أستاذ زياد!

كتمت ضحكة كادت تنفجر مني بصعوبة، أما فادي فقد همس لها بصوت، يملؤه انكسار مؤسف:

- اسمي فادي نجيب.. وليس زياد!

- سامحني.. لقد رأيتكم كلكم أمس لأول مرة، فاختلطت الأسماء في ذاكرتي.

ثم نبذته في الحال، وراحت تسألني باهتمام:

- ملامحك تقول إنك أفضل كثيرًا اليوم.. الحمد لله .. أليس كذلك؟

المذلة التي اكتست وجه فادي ذكرتني بملامح كلب ضال، تلقى علقة ساخنة من عائلة من الكلاب، حاول أن يتودد إلى إحدى إناثها، فنال نصيبه من العقاب في التو واللحظة. جلس فادي على مقعده يرنو إلى حنان، التي ظلت تتحدث معي وهي واقفة، فلما حاولت النهوض تأدبًا رجتني ألا أفعل؛ حتى لا أتعرض لتعب، وأنا مازلت في فترة النقاهة.

- في أي الموضوعات تكتبين أستاذة حنان؟

سألها فادي ليلفت انتباهها، فأجابته بلا اكتراث مركّزة نظرها نحوي:

- في كل شيء.. لكنني أحب قضايا الثقافة.

ثم فاجأتني بهذا العرض، وهي تكاد تثب وثبًا فوق أرضية المكتب:

- أنت ضيفي على الغداء اليوم.. من فضلك لا ترفض.. لك حق اختيار المكان الذي تفضله، وبعدها سنتوجه بسيارتي إلى منزلك.

انطلقت من فمها هذه العبارات بسرعة مذهلة، أصابت عقلي بتشويش مفاجئ، فلم أعد أعرف ماذا أقول لها.. لكن فادي نجيب، العاشق المنبوذ، حاول أن يلفت انتباهها لوجوده مرة أخرى، فسألها بارتباك ظاهر:

- ما آخر الموضوعات التي نشرت لك لأطالعها؟

- هه.. لم تجبني.. أي الأماكن تفضل أن نتناول فيه طعامنا؟

صفعة أخرى تلقاها فادي في قلبه في أقل من دقيقة؛ إذ لم تلتفت إلى سؤاله ولم تهتم بالرد عليه. نظرتُ نحوه بحسرة، فأشفقتُ عليه حين وجدته قد وضع رأسه كله بين كفيه، وراح يحدّق في الأرض بألم شديد.. ما أتعسك يا فادي! ألم تجد سوى حنان المرشدي لتستهويك؟ أين خطيبتك التي بذلت مجهودات لا بأس بها حتى تخفف من وزنك إرضاءً لها؟ وكيف ستواجه أفراد أسرتك حين تعلن لهم أنك مغرم بفتاة مسلمة متدينة، لا تصافح الرجال؟ حقًّا.. لن يُمنى الإنسان بمصيبة أشد إيلامًا من الوقوع في الحب من طرف واحد.

قررتُ أن أطلب من فادي أن ينصرف حتى أخفف من عذابات الإهمال الذي يتعرض له في مكتبي، لكنني تحرجت حتى لا يظن أنني بذلك قد وافقت على تلبية دعوة الغداء، التي عرضتها حنان قبل ثوان، فتجرح فؤاده أشواك الغيرة كما جرحت صديقًا له من قبل، حين هامت نشوى فوزي في ظلام الطرقات وفضاءات الإنترنت بحثًا عن غريمي وصديقي أدهم الشاذلي.. لكن فادي لم يمنحني الوقت الكافي لتدبر الأمر؛ إذ نهض فجأة، وأخرج من جيب سترته مظروفًا مغلقًا وناوله إلى حنان المرشدي، وهو يقول لها بصوت مسّه سحر الجنون:

- من فضلك أستاذة حنان.. أنتظر ردك على هذه الرسالة الليلة.

ثم استطرد بصوت حزين، كأنه انطلق من قاع بئر عميقة:

- بريدي الإلكتروني وأرقام تليفوناتي مدوّنة كلها في ذيل الرسالة.

جرأة لم تخطر على بالي قط، ومغامرة تليق بمن ابتلي بالعشق من أول نظرة.. تأملت فادي بإعجاب، وكأنني أراه للمرة الأولى. من أين أتى هذا العاشق الجديد بكل هذه الجرأة؟ وكيف احتاط لرد الفعل، إذا جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن؟ وما عساها قائلة عني حنان المرشدي؟ هل ستظن أنني قمت بترتيب هذا اللقاء؛ لتتسلم رسالة غرام من صديق محبوبها الغافل؟ هل ستتهمني بالبرود وانعدام النخوة؟ أم ستحسب أن فادي نجيب شاب مخبول، لا ينبغي محاسبته على جنونه؟ ولا معاملته بقسوة بسبب وقاحته وتجاوزه حدود الأدب؟

ظل فادي نجيب مادًّا يده برسالة غرامه فترة، بينما حنان المرشدي تنظر إليه بارتياب وغضب مكتوم، ولكن الخجل يمنعها من اقتراف سلوك جاف أو خشن، تجاه صديقي المتيم بها. استمر هذا المشهد ثابتًا لثوان: فادي يفرد ذراعه وفي كفه الرسالة المشبوبة، وحنان توزع نظراتها بالعدل بيني وبينه وبين الأرض، لا تدري ما العمل؟ وفي اللحظة التي رضخت لقوانين الخجل ومدّت يدها بتردد لتتناول الرسالة، فُتح الباب فجأة لتملأ فضاء الغرفة الفراشات الملونة الثلاث بأجنحتها المزركشة، ثم أعقبتها نشوى فوزي بوجه مكدود، وعينين خاصمتهما نعمة النوم العميق.

حتى هذه اللحظة، لا أذكر كيف انتهى هذا اللقاء المتوتر في مكتبي، وكل ما استقر فوق شاشة ذاكرتي أن حنان المرشدي استقبلت نشوى بفرح كبير، ثم انصرفتا بعد أن صبت نشوى في أذني بحياد عبارة (حمدًا لله على السلامة)؛ حين علمت من حنان أنني كنت مريضًا!

على مقهى شعبي في شارع صغير متفرع من شارع الجمهورية، جلسنا أنا وفادي.. استقبلتنا نسمات يناير الباردة بترحاب، فتاقت نفسي إلى الشاي

الساخن بالحليب. ابتاع فادي سندوتشات فول وطعمية من مطعم بجوار مقر الجريدة. ازدرد أربعة منها بشراهة، تنافي توتره وحزنه ونحن في مكتبي قبل قليل.. أما أنا فلم أستطع الإتيان على السندويتش الثاني، فتركت أكثر من نصفه. بعد أن ملأ بطنه، وجذب النفس الأول من الشيشة، حكى لي فادي عن هيامه بحنان المرشدي، الذي لا يعرف له سببًا منذ أن لفحه نسيم أنوثتها في غرفة نومي أمس مساءً. كنت أدرك تمامًا أنه يتحدث في هذه اللحظة بإلهام من الروح القدس، فهو لا يكاد ينظر إليّ، بل يتطلع إلى السماء، وهو يصف لي افتتانه بزميلتي.. صوته يرتعش كلما ذكر اسمها، وقلبه ينبض بقوة، وهو يسرد لي كيف صاغ رسالة العشق، التي ناولها إياها، خمس مرات قبل أن يرضى عنها. حكى لي فادي فحوى رسالته التي تشرح فوائد ومزايا الحب من أول نظرة، مؤكدًا لها أنه لا يوجد إنسان قادر على الوقوف ضد كيمياء الغرام، وأنه واثق تمامًا بأن عصفور السعادة سيرفرف في سماء قلبيهما إلى الأبد. طمأنها ألا تخشى شيئًا؛ فاختلاف الأديان لا يعوق أزهار الهوى من التفتح؛ لأن الحب موجود في الدنيا قبل موسى وعيسى ومحمد.

حقًّا.. حيل العشاق لا تنفد، وغرورهم ينمو كالأشجار، ففادي نجيب كان لا يشك لحظة في أن قلب حنان المرشدي سيهفو إليه فور انتهائها من قراءة رسالته؛ حيث قال لي بثقة يحسد عليها:

- لم تخلق فتاة بعد قادرة على مقاومة معسول الكلام.

ثم استطرد، وكأنه يحادث نفسه، بعد أن جذب نفسًا عميقًا:

- لقد رصّعتُ رسالتي بلآلئ الكلمات العذبة، وجواهر الأحاسيس الرقيقة.

كان يتحدث، وهو يرنو إلى قمم الأشجار الثلاث التي تستقر بشموخ على الرصيف المقابل للمقهى، وكانت دفقات البرد تغازل أغصانها فتتراقص بسعادة.. هالة من نور كانت تحافظ على نبرات صوته حيّة وطازجة ومتوترة. لم أشأ أن أفسد عليه حالة الهيام التي يسبح في نهرها العذب، فلزمت الصمت كعادتي، ولكنه حدجني بنظرة وهتف:

- معتز.. صدقني.. أنا لم أكذب في أية كلمة، كتبتها في رسالتي إلى حنان.

ثم أضاف بأسى:

- لقد أنستني هذه الفتاة الساحرة حزني على خالي وغضبي مما حدث في كنيسة القديسين!

كنت أعلم أنه لا يكذب، فجدتي «مآثر» ظلت تكرر أمامي في القرن الماضي أن (العاشق الصادق محاط دومًا بأسراب الطيور الرقيقة)، وبالفعل بعد أن بدأ فادي نجيب في البوح بما جرى له، راحت مجموعات صغيرة من الطيور تهجر أعشاشها في الأشجار المقابلة؛ لترفرف حول المكان الذي نجلس فيه، وكلما أفاض فادي في الحديث عن اللوعة التي تعتريه، زادت أسراب الطيور المحلقة حول جبين عاشق حنان المرشدي.. رنّ هاتفي فجأة، فأصاب حديث الهوى بالعطب، كان عماد عزوز يستفسر لماذا غادرت الجريدة، وهل أشعر بتعب؟ ولأني انصرفت قبل حضور عماد، فقد شكرته وطمأنته أنني بخير. وما إن أنهيت الاتصال مع عماد، حتى وصلتني رسالة على الموبايل من حنان المرشدي، تحدد فيها المكان والزمان، الذي سنلتقي فيه ظهر اليوم لتناول الغداء.. كان نص الرسالة كالآتي: (سأنتظرك في الثانية ظهرًا في مطعم الدهان بالحسين).

حجم التوتر الذي ملأ معدتي فاق كل حد، لدرجة شعرت معها أنه لم يحدث لي بهذه الشدّة من قبل؛ فقد خشيت أن يعرف فادي بفحوى رسالة حنان، فتمزقه خناجر الغيرة ويكرهني. أغلقت الموبايل على الفور دون أن أرد.. وتساءلت: ألم تقرأ حنان رسالة فادي؟ ألم تتأثر بعباراته الملتاعة التي تفوح رائحتها في كل سطر من سطورها؟ أم أنها لم تطالعها بعد، فظلت تخطب ودّي وتتقرب إليّ؟ أجل.. لقد لاحظت والدتي أمس اهتمام حنان المرشدي بي؛ إذ قالت لي بعد أن انصرف جميع العُوّاد: (زميلتك فتاة طيبة.. يبدو أنها معجبة بك)، ثم أضافت بتوسل: (لو كان قلبك يرتاح إليها، فتزوجها يا بنيّ.. فتسعد فؤادي وأطمئن عليك). كدتُ أبوح لها عن ولعي بصديقة الفراشات، ولكنني أمسكت لساني في اللحظة الأخيرة، وأنا أتمتم: (لا تقلقي عليّ يا أمي.. فالزواج قسمة ونصيب).

استأذن فادي في الذهاب إلى دورة المياه، بينما اكتشفت أنني لم أرتشف سوى نصف كوب الشاي بالحليب الذي طلبته.. اشتاقت أنفي إلى الشيشة، وفكرتُ في أن أطلبها، لكنني تراجعت خوفًا من تأثيرها السلبي، وأنا لم أتجاوز محنة المرض بعد.. فتحتُ الموبايل. لا أعرف بم أرد على دعوة حنان المرشدي.. لم تكن بي أية رغبة للخروج معها منفردين، فقررتُ أن أبعث إليها برسالة شكر واعتذار، لكنني تراجعتُ، حين جال بخاطري أنه من الممكن أن تصطحب معها نشوى فوزي، لأبتهج برفقتها. نما هذا الخاطر وترعرع في لحظات، فالعشاق حالمون، ويبصرون ما وراء الحُجُب.. وهكذا شرعت في كتابة رسالة شكر وتأكيد لحضوري في الموعد الذي حددته، ولكنني قبل أن أنتهي منها، ساورتني الشكوك في أن نشوى سترافق ابنة خالها، فاستسلمت إلى حائط اليأس، ومحوتُ ما كتبت.. ارتجفتُ قليلًا جراء نسمة هواء باردة

هبّت على المقهى، ثم رأيته قادمًا من هناك.. من فوق الشجرة الأولى على الرصيف المقابل. نعم.. إنه هو.. صديقي الهدهد الرائع.. كم أوحشني. أقبل نحوي مبتهجًا ومسرورًا.. كان قاب قوسين أو أدنى من جبيني. أصابتني رعدة لطيفة.. همس بصوت ناعم أهاج مشاعري: (ألف سلامة عليك يا معتز)، نهضت بسرعة لألمسه، فعاد إلى الخلف قليلًا، ثم ابتسم قبل أن يطير برفق في اتجاه الشجرة.. هتفت بصوت مبحوح: (انتظر من فضلك.. فأنا أحتاج إليك).

حين عاد فادي من دورة المياه، فوجئ بأنني ما زلت واقفًا أرنو إلى الشجرة، فقال على الفور:

- ما بك؟ لماذا تقف هكذا؟

لم أرد، لأنه قرر أن يجيب بسرعة عن أسئلته قائلًا:

- يبدو أن الإجهاد قد نال منك.. هيا بنا إلى المنزل.

تأبّط فادي ذراعي، وسحبني تقريبًا نحو سيارته، وهو يهمس بصوت ملوّن بأنفاس الحيرة:

- لن أذوق طعم النوم الليلة انتظارًا لرد حنان المرشدي.

بينما كنت أصوّب عينيّ نحو الشجرة، التي اختفى في أغصانها المتشابكة والكثيفة صديقي الهدهد!

* * *

20 | في حضرة اللاب توب

عزيزتي نشوى..

ربما لا تصدقين أن هذه أول مرة في حياتي أكتب فيها رسالة إلى فتاة، أو إلى أية امرأة.. صحيح أنني كتبت رسالة قصيرة للغاية إلى جدتي «مآثر» بعد أن ماتت، أستحلفها فيها أن تعود، إلا أنها كانت سيدة عجوز لم تستطع مقاومة غراب الموت، كما أنني كنت طفلًا صغيرًا، لم أقع بعد في غواية كتابة الرسائل إلى النساء. أما أنتِ، صاحبة الرسالة الأولى في شبابي، فتسكنين في المنطقة الصافية من القلب منذ اللحظة، التي أشرق فيها وجهك الآسر في غرفة مكتبي لأول مرة.

لا أعرف من أين أبدأ سرد الحكاية.. لكن ما أدركه يقينًا أن حضورك الملوّن في حياتي يمنحني مسرّات لا حدود لها؛ خاصة أننا نشترك في أشياء كثيرة، أولها وأهمها عشقنا الشديد لأشقائنا من الحيوانات والطيور، وولعنا بالهدهد تحديدًا. ثم والأهم، أنني متيقن بأن وجودنا معًا سيضبط إيقاع الحياة، وسيجعل المياه أكثر عذوبة، وسيسهم في نمو الورود وازدهارها، وسيحافظ على صغار الطيور من غدر الأفاعي المتربصة.

نشوى الرائعة..

اسمحي لي أن أخاطبك هكذا، بلا ألقاب، فاسمك يكفي لإسعادي، وملامحك الرائقة كنز لناظريّ، وصوتك الهامس يعزف في أذني موسيقى

ناعمة وضّاءة، حين تستبد بي ظلمة الليل، فخمّني كم يعتريني الحبور لأنك في الفؤاد ساكنة، وبين شراييني وأوردتي تمكثين. لا أدري يا نشوى حجم إحساسك بي وعمقه؛ فنحن لم نتصارح قط، لكنني أزعم أن ما بيننا من تناغم روحي، يتجاوز في عنفوانه شعر شوقي ونزار، وأن أشعة شمس يناير الدافئة تنبثق من هذا التناغم المذهل، فاقتربي مني يا نشوى، وتذوقي عسل روحي، وهي في روحك تسبح وتهيم.. اقتربي مني يا نشوي واستنشقي مسك غرامي، ودعي مياه النهر لتنساب بيسر؛ لأننا معًا على شاطئه سنقيم. أقسم لك يا نشوى أنني على ثقة تامة بأنك منذورة لي، وأنني مرصود لإسعادك.

أدرك يا نشوى أن بيننا خلافًا جوهريًّا وعجيبًا، فأنتِ ملحدة، (عندما كتبت هذه الكلمة اعترتني رعدة مخيفة، فاعذريني)، لا تؤمنين بدين ولا بملّة، ولا أدري مَنْ من شياطين الإنس وضع في رأسك هذه الأفكار الشاذة؟ من فضلك لا تغضبي مني، أجل.. إنها أفكار شاذة لا يطمئن إليها إنسان منحه الله للتفكير عقلًا، فإذا كنتِ قد تأثرت بعبارة هنا أو برأي هناك، فلا تثريب عليكِ، ما دمت ستهبينني فرصة للإبحار بك نحو شاطئ الإيمان والسكينة.. تعالي يا نشوى نقرأ معًا في كتاب الله وسنة نبيه الكريم.. تعالي جرّبي لذة الوقوف بين يديه سبحانه وتأملي عظمة صلاة الفجر؛ حيث تهجر الطيور أعشاشها بحثًا عن الرزق، ثم ينفض البشر عن أنفسهم غبار النوم؛ ليخوضوا عباب بحر الحياة المتلاطم الأمواج. تأملي من فضلك يا نشوى المشهد المذهل الذي يتكرر كل يوم، عندما يتسلل ضوء الشمس البكر ليدكّ آخر حصون الظلام، فتشرق الدنيا بنور الخالق الأعظم، وتدب الطيور والحيوانات والناس في السماء والأرض، كل يسعى إلى قدره المحتوم.. لا تسخري من كلامي يا نشوى رجاءً، فالمسافة بينك وبين متعة الإيمان

ما زالت بعيدة، نعم يا نشوى، فالإيمان متعة لا تُحد، وحين يصفو الزمان، لنعيش معًا سوف أذلل لك الصعوبات التي تعترض طريقك نحو النور.. نور الحق - جلّ جلاله - حتى تظفري بمتعة الإيمان.

نأتي يا عزيزتي نشوى إلى موضوع شائك ومعقّد، أعني أدهم الشاذلي وطبيعة علاقتك به. هل أخبرك أنني رأيتكما وأنتما تدلفان إلى تريانون؟ ثم تابعت لحظة القبض عليه.. سامحيني إذا كنت لم أطلعك على هذا الأمر من قبل، المهم أريد أن أذكّرك بأن أدهم الشاذلي يعد أعز الأصدقاء، فهو أليف الروح، وهو بالنسبة لي أخ كريم وأكثر. كما أنني، وأقسم، أدعو له أن ينقذه الله من غمّ الاعتقال، ونكد الحرمان من نعيم الحرية.. دعيني أعدد أمامك بعض المواقف التي أثبت فيها أدهم أنه للشهامة أهل، وللمروءة صديق، وأنه..

توقفتُ عن الكتابة عند هذا الحد، فقد شعرت بإنهاك شديد، وتصبب مني عرق غزير على الرغم من أن برودة يناير تتسلل بقوة من ثقوب نافذة غرفتي. احتفظت بما كتبته على الديسكتوب، على أن أكمل، بعد أن أتناول سندويتش جبن مع الشاي بالحليب؛ لأنني أشعر بجوع غريب. وضعت اللاب توب جانبًا، ونهضت متجهًا نحو الصالة. كانت والدتي تتابع آخر أخبار الثورة التونسية على قناة الجزيرة.. انسابت مني نظرة على صورة أبي المعلقة في الصالة، فوخزني حزن لثانية، فقد تذكرت كم كان شغوفًا بمتابعة الأحداث السياسية، ولا يتوقف عن مناقشة آخر مستجداتها وتحليلها مع والدتي، التي كانت تشاركه الاهتمام بدرجة لا بأس بها. أما الآن، فمسكينة أمي.. فهي تطالع التليفزيون بنصف التركيز، أو هكذا تبدو لي؛ فالرجل الذي يقضي نحبه يخطف معه نصف زوجته الحيّة إلى القبر، تاركًا نصفها

الثاني تائهًا في بيداء الوحدة، حتى لو تحول هذا الرجل فجأة إلى أسد، قبل رحيله بسويعات!

انتبهت أمي لوقوفي بجوارها، فسألت عن صحتي الآن.. أكدت لها أنني أخطو بسرعة نحو الشفاء، وأنني في حاجة إلى سندوتش جبن وشاي بالحليب، فقالت بتوسل:

- معتز.. الدجاج والحساء طعام أكثر فائدة، وأنت لم تتناول منه في الظهيرة إلا النذر اليسير.

شكرتها، وقلت برجاء:

- من فضلك أمي.. لا أريد سوى سندوتش جبن، فنفسي تعاف الدجاج حاليًّا.

لم تكن أم السيد في البيت حينئذ؛ فقد قالت لي أمي إن ابنها الكبير سيد اشتبك في عراك مع أحد زملائه في الورشة، وتعرّض لبعض الإصابات، فذهبت لتتابع الموقف وتطمئن على فلذة كبدها.. غمغمت بعبارة مبهمة، فلم يكن يعنيني سيد الآن ولا أمه، كنت مشحونًا بطاقة كبرى لمواصلة كتابة الرسالة إلى نشوى، بعد أن صبّ فادي نجيب محلول الشجاعة في روحي، عندما أقدم على كتابة رسالة غرام ملتاعة إلى حنان المرشدي، قبل أن تربطه بها أية علاقة. نعم.. العاشق الصادق يجب أن يتحلى بالشجاعة؛ ليقتحم قلاع محبوبته فيظفر بها وتستكين روحه.

عدتّ إلى غرفتي منتظرًا وصول الدعم الغذائي.. قررت أن أتسلى بمشاهدة أصدقائي وأحبائي وهم يمرحون ويتشاكسون في البريّة، لحين أملأ بطني، وأستعيد لياقتي العاطفية لأواصل كتابة أهم وأول رسالة في حياتي.

دخلتُ على موقع اليوتيوب؛ فمنذ أهداني شقيقي جمال لاب توب، وأنا أعده سلواي الوحيدة في هذه الحياة، فأقضي معظم أوقات فراغي بصحبته.. أطالع أغلب الوقت لقطات عن الحيوانات والطيور وصورها، وأقرأ عن سلوكها وخصائصها وعاداتها، كما يخيّل إليّ أنني من الناس، الذين يعتقدون أنه لا توجد فتنة تعادل الفتنة التي تمسك بهم، وهم يتابعون لقطات حية للحيوانات والطيور على اليوتيوب.

بحثتُ عن صور جديدة للهدهد.. تأملت إحداها بإعجاب، كان مزودًا بتاج بديع يشرح صدر من يتأمله، تذكرت مقولة جدتي «مآثر» (من يلمس تاج الهدهد، كأنه لمس النجوم)، ثم شاهدت لقطات عن كيفية صيد الأسود للجاموس في إفريقيا. كانت مشاهد مشحونة بالتوتر والإدهاش، فانفعلت بها، حتى طرقت أمي الباب حاملة عشائي الخفيف، ولم تنسَ أن تذكرني بضرورة تناول الدواء، بعد أن أنتهي من الطعام.

عدتُ إلى الرسالة، قرأتها من البداية وأنا أتلذذ بلقيمات من السندويتش. حذفت كلمة هنا، وأعدت صياغة عبارة هناك.. امتلأت غرورًا وأنا أعيد قراءتها للمرة الثانية؛ فقد شعرت أنني استطعت أن أعبر عن خلجات قلبي بطريقة متميزة، كما أنني اعتقدت أن اللغة الشاعرية التي أصوغ بها رسالتي ستفتح لي أبواب فؤاد نشوى فوزي؛ لأنه لا توجد فتاة يمكنها مقاومة معسول الكلام، كما ردد أمامي العاشق المنتظر فادي نجيب.

ما إن شرعت في الضغط على أول حرف من الكيبورد، حتى رنّ هاتفي المحمول.. للحظة خطر لي أن نشوى فوزي هي من تتصل، فاضطربت وأنا أحاول أن أقبض على الموبايل، فسقط مني على الأرض. لعنت توتري، وانكفأت فوقه.. كان فادي نجيب يخبرني أنه سيصل لزيارتي بعد عشر

دقائق. اختلطت في روحي مشاعر شتّى، فقد أزعجني حضوره؛ لأنه سيفسد عليّ متعة الكتابة إلى نشوى فوزي، ولكنني رحبت بمجيئه، فقد أطلعه على نص الرسالة لأستقصي رأيه وأستفيد من خبرته. ومع ذلك وجدتني أحتفظ باللاب توب في مكان بعيد حتى لا يراه، ولا أخضع لوسوسة كشف غرامي؛ فالعاشق المفتون يجب أن يظل كتومًا حتى يظفر بما يصبو إليه.

بدا فادي نجيب متوترًا ومرتبكًا، كما أنه فقد بعض الكيلو جرامات من وزنه في أيام قليلة، فشحُب وجهه.. ما أتعس الهيمان إذا لم يتلق ردًّا على رسائله. بادرني بسؤال تقليدي:

- كيف صحتك الآن؟

- الحمد لله.. أفضل كثيرًا.

تأمل فادي صور الحيوانات والطيور في غرفتي وهو واقف، ثم نظر إليّ بحزن، قبل أن يجلس قبالتي، ويغمغم بنبرة اعتراف يائسة:

- يبدو أنني تسرّعت.

ثم استطرد، وهو يجلد ذاته:

- تخيل يا معتز.. لم أتلق أية إشارة أو اتصال من حنان المرشدي حتى هذه اللحظة، على الرغم من مرور أربعة أيام على استلامها رسالتي.

لم أعلق، وقنعت بتأمل حاله المضطرب، واعترتني رجفة مفاجئة، أفسدت مزاجي للحظات. أنت المثل الأعلى يا فادي في مسائل الغرام، وأنت القدوة بين العاشقين، فكيف ستواجه هذا الصد؟ وهل أواصل كتابة الرسالة إلى نشوى فوزي، وكل هذا الخسران المبين يتجلى أمامي في شاب؟ أخرجني فادي من هواجسي بضربات متتالية من الأسئلة الملهوفة:

- ألم تتصل بك؟ ألم ترها في الجريدة؟ ألم تقم بزيارتك هنا؟

بسرعة، وإشارات نفي عشوائية من رأسي، هتفت:

- لا.. لم يحدث.. لم يحدث.

كنت أكذب عليه، فقد اتصلت حنان المرشدي بي مرتين، الأولى كنت نائمًا، فلم أرد، والثانية لم أشأ أن أتجاوب معها حتى لا أصبح عقبة كَأْدَاء، أمام تحول مشاعرها المأمول نحو فادي، أو هكذا طمعتُ. لكنها كانت تبعث لي رسائل محتشدة بدعوات؛ من أجل أن يمنّ الله عليّ بالشفاء في أقرب فرصة، فكنت أتجاوب مع بعضها من باب المجاملة، وأوافيها برسالة شكر.

قلت لفادي بهدوء، محاولًا امتصاص همومه:

- أنت تعلم أنني لم أذهب إلى عملي مذ كنا معًا آخر مرة، بسبب الوعكة التي تلازمني.

هزّ رأسه تأييدًا لكلامي، ولكنه عاد، وقال بثقة كانت غائبة قبل دقائق:

- علينا الانتظار قليلًا حتى تتسلل الكلمات العذبة في أوردتها، فتنفعل بها، ويخفت عنادها.

ثم أضاف بنبرة تمني:

- يجب أن أثني الرسالة بشقيقة لها، تضج بمشاعر متأججة، وعبارات ساخنة، يذوب عند قراءتها قلب الحجر.

حقًا.. الغرور والمذلة لصيقان بالعاشق المتيم، ومن يتأملك يا فادي، وينصت إليك قبل دقائق يظنك شابًا آخر الآن، فأي سطوة تملكها المرأة على قلب الرجل؟ وأي سحر تستخدمه ابنة حواء لشيّ ابن آدم على نيران الهوس؟

قلت لفادي بجدية، فاجأتني أنا شخصيًّا:

- أعتقد أن حنان المرشدي مرعوبة من فكرة التعلق بشاب مسيحي، فهي متدينة إسلاميًّا لدرجة ترفض فيها مصافحة الرجال، وفقًا لقناعتها الإيمانية!

بُهت فادي من كلامي،لا لأنه جديد عليه، بل لأنه شك أنني أمتلك معلومات بهذا الخصوص، وأخفيتها عنه.. كانت نظرات عينيه تشي بذلك، فسألني بعد فترة صمت منحها لنفسه؛ ليراجع نص ما قلت بالضبط:

- هل هي من أخبرتك بذلك؟

- لا.. أقسم لك أننا لم نتحدث في هذا الأمر قط.

نفيت ذلك بسرعة وحزم، وكأنني أدفع عن نفسي تهمة الإفشاء بسر حربي!

تنهيدة مخلوطة بالرجاء واليأس والاعتذار خرجت من صدر فادي؛ لتبدد بخار التوتر الذي عبق في فضاء الغرفة للحظات.. ألقى نظرة سريعة على مكتبي بالغرفة، وتناول ديوان (أحلى قصائدي) لنزار قباني. كان أدهم الشاذلي قد أهداني إياه قبل عدة أعوام، وكنت أستعيد قراءة بعض قصائده، قبل أن أشرع في كتابة الرسالة إلى نشوى، حتى أشحن روحي بحلو الكلام. قرأ فادي نجيب الإهداء الصغير الذي كتبه أدهم لي، وتمتم (مسكين أدهم.. لقد طالت فترة اعتقاله). أطرقنا معًا للحظات، ثم نهض فادي ليستأذن بالانصراف، وهو يقول بإلهام من الروح القدس:

- لو أعطتني حنان فرصة، سأثبت لها بجدية أنني سأشهر إسلامي، إذا وعدتني بأننا سنزرع ورود القرنفل معًا.

ثم أضاف بصوت جاد:

- ليس إيمانًا بالإسلام، أو كفرًا بالمسيحية، بل إيمان بالحب!

ضحكت وصحت:

- أنت مجنون.

- الجنون فضيلة رائعة إذا ابتلي بها العشاق الصادقون.

تبادلنا الضحكات بعمق، ثم توجّه فادي نحو الباب، وما إن فتحه حتى اخترقت سماء غرفتي الفراشات الثلاثة الملوّنة، التي تسير في معية نشوى فوزي. ارتجف قلبي بشدة، وصدحت ضرباته بموسيقى فرح صاخبة طرب لها حي مصر الجديدة كله، حين وقفت نشوى بكامل فواكهها على باب غرفتي تبتسم بألق.. المكافآت السخية للرسالة هلّت حتى قبل أن أرسلها أو تقرأها.. تأملتها مذهولًا ومنتشيًا، قبل أن يهوى القدر بمطرقة التعاسة على سندان قلبي.

من أعلى ظهر نشوى فوزي، انبثق وجه أدهم الشاذلي مبتسمًا، مثل هلال هتك ظلمة الليل. دفعها أمامه برفق فصارت وسط غرفتي، ثم دخل وراءها وتبعته حنان المرشدي، تحمل بين يديها باقة ورد زاهية الألوان.. المفاجآت تتوالى، ورائحة احتراق أعصاب العاشقين المخذولين، فادي وأنا، تنتشر بسرعة البرق في غرفتي.

هتفت حنان:

- ما رأيك في هذه المفاجأة.. لقد أفرجوا عن أدهم الشاذلي قبل ثلاث ساعات فقط، وحين علم أنك مريض، قررنا أن ننقض عليك دون أن نخبرك، فلعل الفرح بتحرر أدهم يسرع من شفائك!

كان الإجهاد قد هدّ مني الحيل حين وصلت إلى ميدان الإسعاف.. لم أعرف كم من الوقت ظللت سائرًا هكذا منذ تركت البيت غاضبًا وكارهًا. كل ما أذكره أنني شتمتهم وطردتهم كلهم من غرفتي، وأنني كنت أنصهر بنار الغيرة، وأنني قذفت أدهم بديوان نزار قباني، وألقيت باقة الورد في وجه نشوى فوزي وحنان المرشدي، وأن الفراشات الثلاث اضطربت وانتحبت وفرّت هاربة، وأنني دفعت فادي نجيب بعنف فانكفأ على الأرض، فارتطم رأسه بقائم المقعد، حين حاول أن يحوطني بذراعيه؛ ليسيطر عليّ ويطفئ سعير هياجي. وأن شهقة أمي المرتعبة لم توقفني عن كيل السباب إلى أدهم ونشوى، وأن صراخها المخيف لتمنعني من الخروج لم يُجدِ نفعًا.

جلست على الرصيف أمام صيدلية الإسعاف من فرط الإنهاك.. اكتشفت أنني لا أحمل ساعة ولا موبايل، وأنني غادرت منزلي منتعلًا شبشب البيت. لم أكن أعرف الوقت، ففكرت أن أسأل أحد المارة عن كم الوقت الآن؟ لكنني تراجعت وخمنت أنه قارب منتصف الليل أو تجاوزه بقليل. مرقت نسمة باردة فارتجفت، وتاقت نفسي إلى كوب شاي ساخن بالحليب مع الشيشة.. فتشت في جيبي، فأدركت أنني لم أحمل المحفظة، ولا أية أوراق رسمية تثبت شخصيتي، وتذكرت أنني هرولت من منزلي خاوي الوفاض، لا ألوي على شيء. لم أقلق، ولم أكترث، بل فرحت حين وجدت عشرة جنيهات ضالة في الجيب الخلفي للبنطلون.. شطرت قلبي نصفين اللقطة، التي وضع فيها أدهم الشاذلي ذراعه على كتف نشوى فوزي في غرفة نومي، فبكيت وأشحت المشهد الموجع من ذاكرتي بعصبية. نهضت بسرعة وعبرت الشارع في اتجاه العتبة، ولكنني لمحت رتلًا من سيارات الأمن المركزي، تقف أمام دار القضاء العالي.. توقفت.. ثم انخلع قلبي رعبًا حين رأيت الرجل الذئبي

بأناقته المعهودة يقف في منتصف شارع رمسيس بعنجهية بغيضة، وقد التف حوله مجموعة الأقزام، وهم يؤدون حركات منذرة. أذهلني أن السيارات تتفاداهم، وهم لا يأبهون بها.. انقبض فؤادي، فآثرت الابتعاد سريعًا، وتوجهت نحو ميدان التحرير، مواصلًا السير في شارع رمسيس، وأنا أكابد تدفق الأدرينالين في جسدي بكثافة.

بحثت في ميدان التحرير عن مقهى شعبي، فلم أجد.. اخترقت شارع التحرير قاصدًا باب اللوق، ولكنني عثرت على مقهى في أول الشارع جهة اليسار.. ألقيت جسدي المنهك على أقرب كرسي. غزتني نوبة سعال سخيفة أزعجتني عشر دقائق متواصلة.. نصحني النادل بتناول اليانسون، لكنني طلبت شايًا بالحليب، وحين وضع صينية الشاي على المنضدة أدهشتني ملامحه الغريبة، فهو مزود بأنف معقوف وحاد مثل منقار ببغاء أمازوني ملوّن، بينما عيناه ساجيتان وطيبتان كوعل شائب قليل الحيلة، بعد أن فقد حريمه في معركة شرسة أمام وعل شاب، تحرقه الرغبة في التزاوج.

لاحت مني نظرة على الساعة المعلقة على الحائط، فكانت تشير إلى الواحدة صباحًا.. اكتشفت أنني جرجرت ساقي أكثر من أربع ساعات في شوارع القاهرة، وهمست بأسى: (الوقت كلب ضال عند العاشق المنبوذ لا يعنيه في شيء). دخل أربعة شبان تسبقهم ضحكات عالية، وقصدوا المنضدة التي بجواري.. ارتفع صوت أحدهم منبهًا زملاءه إلى متابعة قناة الجزيرة، التي تعرض لقطات من بطش الأمن التونسي في تعامله مع المتظاهرين. صفعت فؤادي نظرة حالمة دحرجتها هذا المساء نشوى فوزي في عيني أدهم الشاذلي داخل غرفة نومي.. اعتدلت في مقعدي محاولًا التخلص من خنجر هذه النظرة الدامي، وندمت على كتابة رسالتي المشبوبة. توقف الشباب عن

متابعة قناة الجزيرة، عندما انتهى خبر الثورة التونسية، وراحوا يتهامسون بصوت خفيض.. آلمتني نظرة ذل مخلوطة باتهام، رشقها في صدري فادي نجيب حين أهدتني حنان المرشدي باقة الورد في غرفة نومي. صاح أحد الشباب طالبًا من النادل تجديد جمر الشيشة.. تذكرتُ كيف كانت النيران تستعر في جوفي، كلما رنّ صوت أدهم الشاذلي طالبًا مني أن أهدأ، فطفرت دمعة من عينيّ مسحتها على الفور.

اقتحم المقهى رجل ضخم أصلع الرأس، أفطس الأنف، ألقى نظرة غادرة على الشباب، وانصرف سريعًا مثل عقرب جبان.. لا أذكر هل عضضتُ كف فادي نجيب أم لا حين وضعها على فمي؛ لأتوقف عن كيل السباب الذي أطلقته في وجه الذين احتلوا غرفة نومي ليتبادلوا نظرات الغرام؟ رنّ هاتف أحد الشباب، فرد قائلًا بصوت هامس وصلتني ذبذباته بصعوبة: (نحن جاهزون، وشباب تونس ليس أفضل منا). غيمة من أسى مرقت أمامي، حين تبعثرت أوراق الورد في أرجاء غرفة نومي، بعد أن قذفت الباقة في وجوههم. لاحظت أن رءوس الشباب الأربعة تقاربت حتى تلاصقت أو كادت، فبدوا لي كمجموعة من الصقور المتلاحمة في مواجهة قبيلة من الضباع الغادرة.. عاودتني نوبة السعال بشدة أكثر، فتركت الشيشة وغادرت المقهى.

جرجرتُ ساقيّ نحو ميدان التحرير بصعوبة، فقد تبددت طاقتي في هذا المساء المشحون. وقفت عند أول شارع طلعت حرب، لا أعرف ماذا أفعل.. عبرت الشارع حتى وصلت إلى الصينية التي تتوسط الميدان. جلست على العشب مهدود القوى، أعجبني ملمس العشب ورائحته المبللة برذاذ خفيف يبدو أنه تسّاقط قبل قليل.. تمددت على العشب وتأملت السماء الملبدة بغيوم

كثيفة.. ثملت بروعة النجوم المتناثرة، وظننتها تتأملني من ارتفاعها الشاهق، ولم أشعر بهدير السيارات التي تجوب الميدان، فالعشب تحتي والسماء فوقي.. يبدو أننا ننسى التكنولوجيا في حضرة الطبيعة. لاح لي وجه أمي المذهولة، وهي تحاول إثنائي عن الخروج العنيف، فحزنت. أعجبني شكل غصن يتدلى من الشجرة الصغيرة عن يميني.. فجأة.. سمعته.. إنه هو.. صديقي الغائب.. هدهدي الساحر.. اقترب مني حتى استقر على العشب؛ بحيث أصبحت المسافة بيننا لا تزيد عن مترين. أسكرتني رؤيته، واطمأن فؤادي، ولكنه قال لي بصوت تسيل منه نبرة عتاب: (ما الذي فعلته الليلة يا معتز؟)، لم أعرف ماذا يعني بالضبط، فحاولتُ النهوض، ولكنه رجاني أن أبقى، حيث غمغم بصوته الناعم: (هوّن عليك.. تصبح على خير يا معتز)، ثم طار من حيث أتى. تابعته بقلب ملهوف وروح وثابة حتى اختفى في دياجير الظلام.. ناداني سلطان النوم، فاستجبت له في الحال، وهكذا كنتُ أول شاب يبيت في ميدان التحرير، قبل الثورة بأسبوعين اثنين فقط!

* * *

21 | مع عمر عبد الفتاح

بدا لي عمر عبد الفتاح شخصًا آخر، وهو يرفل في ثياب العرس، فقد تورّد خداه بأزهار الثقة بالنفس، وزالت عن جبينه ألوان النقمة السوداء، التي لازمته طويلًا قبل أن يغادرنا إلى دبي، وأخذ يتهادى في القاعة مثل طاووس يافع، وكأنه أول عريس يُزف على وجه الأرض!

لقد لخص لنا عمر عبد الفتاح تجربته في الغربة بعبارة ذات دلالة صاعقة (دبي مصنع السعادة).. كان قد زارني قبل موعد زفافه بيومين، عندما أخبره عماد عزوز أنني مريض. المفاجأة بدت مدهشة؛ فعلاقتي بعمر عبد الفتاح لم تكن عميقة، كما أننا توقفنا منذ زمن عن تبادل الرسائل الإلكترونية. فبعد سفره ظل يتواصل معنا، عماد وأنا، بانتظام أول الأمر، ثم سرعان ما تاهت الرسائل في صحراء البعد والغياب.

طرق عمر عبد الفتاح وعماد عزوز باب غرفتي برفق؛ خشية أن أكون نائمًا، كما قالت لهما والدتي. لكنني كنت أتابع على اللاب توب بتوثب الحيلة التي يصطاد بها الدب القطبي الفقمات الهائمة في المياه تحت طبقة الجليد.. كانت مشاهد مؤثرة وممتعة، فالدب الجائع قد ينتظر ساعات طويلة أمام فتحة في الجليد، ستطل منها برأسها الفقمة الموعودة لتتنفس، ثم تعود لتنزلق في المياه العميقة. آنذاك ينقضّ عليها بسرعة البرق صاحب اللون الأبيض الناصع، وينتزعها من المياه ليمزقها ويلتهمها في الحال. للحظات كنت أشفق على

الفقمة سيئة الحظ، لدرجة أنني أهتف أحيانًا محذرًا إياها، كلما اقتربت من الفتحة، ولكنني كنت معجبًا بالدب ومهاراته في اقتناص وجبة غدائه في هذا المناخ القاسي. وعلى الرغم من أنني أعلم أن الدب، بألوانه المختلفة، صيّاد فاتر، وهذا الأمر يستفزني كثيرًا، فقوة الدب هائلة، ووزنه يصل إلى سبعمائة كيلو جرام، أي ضعف وزن الأسد تقريبًا، إلا أن الحال مختلفة مع الدب القطبي تحديدًا؛ أي إن انتظاره الطويل أمام الفتحات المائية يجعلني أتعاطف معه، ولا أنزعج من فتوره، ولا يغيظني بروده.

لا أذكر عدد المرات التي أضبط نفسي فيها، متلذذًا بحلم يقظة عجيب، ملخصه أنني أصطحب نشوى فوزي لنتجول في غابات إفريقيا، أو نجتاز صحراء الثلج في القطب الشمالي، أو نعبر الأدغال الكثيفة في غابات الأمازون الساحرة، وكنت أسيرًا لأحد تلك الأحلام الشهية حين دلف عمر وعماد من باب غرفتي في مساء رائق من يناير.. بادرني عمر صائحًا حين ألقى نظرة سريعة على غرفتي:

– كما أنت يا معتز.. صور الحيوانات في كل مكان!

تلقيتُ ملاحظته بحياد، ولكنني احتضنته بقوة مثلما فعل، حين قال عماد عزوز، وهو يتأمل صورة الهدهد:

– والله لو سافرت إلى الهند، وليس دبي، ستعود لتجد الوضع كما هو: الحيوانات والطيور مصلوبة على الحائط، ومعتز هائمًا في فضاء اللاب توب بحثًا عنها!

– هذه هدية بسيطة.

مدّ عمر عبد الفتاح يده ليناولني كيسًا ورقيًّا فاخرًا.. شكرته بصوت هادئ، ووضعت الكيس جانبًا، ولكن عماد عزوز نصحني قائلًا:

- افتح الكيس كي نرى الهدية.

تحرّجت قليلًا، وحركت رأسي ارتباكًا بحركة لا إرادية لا تنطوي على شيء محدد.. وجدت بالكيس كتاب (العدالة في عالم الحيوان.. الحياة الأخلاقية للحيوانات). أثار الكتاب فضولي بشدة، تصفحته سريعًا، بعد أن قرأت اسمي المؤلفين مارك بيكوف وجيسيكا بيرس.. أعدته إلى مكانه، وأنا أطري عمر قائلًا:

- واضح أنه كتاب مدهش.. أشكرك جدًّا، لم يكن هناك داعٍ لهذه التكاليف.

غمغم مبتسمًا:

- لا شكر على واجب، فأنت أخ عزيز وصديق حميم.. لقد اشتريته من معرض أبو ظبي للكتاب. كنا في زيارة إليه لنقتني بعض المجلات الأجنبية؛ لنقتبس منها أفكارًا جديدة في التصميم والإخراج الصحفي، فرأيته وتذكرت شغفك بالحيوانات، فقررت إهداءه لك.

ثم ألقى سؤاله فجأة بنبرة جدية، ناسيًا الكتاب والحيوانات والتصميم:

- ما بك؟ يخبرني عماد أنك تتعرض لوعكات صحية متتالية، تمنعك من الذهاب إلى العمل.

ثم استطرد غامزًا، وهو يرمقني بنظرة ماكرة:

- هل تحبّ يا معتز؟

سحب الارتباك كلها تجمعت في فضاء غرفتي، فارتجفت خشية أن يكون عماد قد أشار له عن ولعي بنشوى فوزي الذي بات يفضحني كلما هلّت

بفراشاتها المزركشة.. لكن أمي أنقذتني من الإجابة؛ إذ اقتحمت الغرفة حاملة أكواب الشاي وقطع الجاتوه، قائلة، وهي ترحّب بالضيف:

- ما أخبار دبي؟ إننا نسمع عنها كل ما هو طيب.. فهل هذا صحيح؟

لم تكن أمي قد رأت عمر عبد الفتاح من قبل، وإن كنت قد ذكرتُ أمامها طرفًا من سيرته التعيسة، حين اقتنص عقد عمل مغرٍ، وقرر مغادرتنا إلى دبي، فدعت له بالنجاح والتوفيق، وتمنت لي فرصة مثله، ولكنني أخبرتها بأنني لست في حاجة إليها، فأيدتني ولاذت بالصمت.

- حقًّا يا خالة، فدبي مصنع للبهجة والسرور؛ فهي تكافئ المجتهدين والموهوبين بسخاء، لكنها لا تغفر للكسالى والخطائين.. الحمد لله، فقد أثبتُّ حضوري هناك على مستوى لا بأس به.

هنا هتف عماد عزوز صائحًا:

- اللهم اوعدنا بعقد عمل في جنتك الجديدة!

لم تفوِّت والدتي الفرصة، وقالت لعمر بصوت عميق، لا يخلو من نبرة توسل:

- ليتك تسعى إلى توفير فرصة عمل لائقة لكل منهما.

بأدب جم، أجاب عمر سريعًا:

- سأسعى جاهدًا بإذن الله يا خالة.

فعقبت أمي شاكرة:

- لعلك تعلم أن أحوال معتز بعد وفاة والده ليست على مايرام، وأظن أن السفر سيفيده كثيرًا.

فوجئت بتوسل أمي، وتعجبت لَمَ لَمْ ترجُ، أو تأمر، أخي جمال أن يوفر لي عملًا معه بالكويت. أخذت الأفكارَ تتلاطم في رأسي؛ بحثًا عن سبب مقنع، منعها من أن تطلب ذلك من جمال ولا تتحرج من أن تتوسل إلى صديق لي لم تره من قبل. وقنعت بتفسير مريح: ربما تكون قد طلبت ذلك من جمال، فأبى واستصعب الأمر، أو تخاذل في التعامل مع الموضوع بما يليق، أو أن زوجته الإنجليزية أبدت امتعاضًا أو.. أو.. أو.

- هيه.. أين أنت؟

كنت مصوّبًا نظري على تاج الهدهد المعلق أمامي، حين لكزني عماد عزوز في كتفي، وهو يسكب في أذني هذا السؤال، فانتبهت، وأصابتني الحيرة وأنا أتساءل سرًا: متى غادرت أمي الغرفة؟ فجلست على حافة سريري وأنا أتنهد قائلًا:

- أنا في دبي!

ضحك عماد بصوت مرتفع، فتجاوبْ معه عمر عبد الفتاح، قبل أن يعلن بأداء واثق، وكأنه الحاكم بأمره داخل دبي:

- سأوفر لكما فرصتي عمل في دبي حتمًا، فسوق الصحافة هناك واسعة وتستوعب الكثير، وعلاقاتي الآن أكثر من ممتازة بفضل كفاءتي وإخلاصي.

لقد صار للغرور أجنحة يا ابن الشرابية، فطرْ وحلق في الأعالي مزهوًا بنجاحك وأموالك! ها قد أصبح بإمكانك أن توفر عقود العمل للمساكين، أمثالنا في جنتك الجديدة، وقبل ثلاث سنوات فقط كنت لا تستحي أن تقترض مني أو من عماد عشرة جنيهات، تقهر بها جوعك، وتطفئ نيران معدتك. حقًّا.. الأيام دُوَل!

بعد أن التهم عماد عزوز جميع قطع الجاتوه، التي جاءت بها والدتي لنا، طرح هذا السؤال بدرجة لا تخلو من مكر:

- يقولون إن كل شيء متاح بدبي وبأسعار رخيصة، حتى الجنس اللطيف!

تلقّى عمر عبد الفتاح السؤال بمكر أشد؛ إذ صاح بتيه ذميم:

- أجل.. لقد تذوقت كل ما هو شهي بدبي.. ما لذّ وطاب من أنواع الطعام المختلفة، علاوة على أنني مررت على أسرّة نساء كثيرات أحلى من فاكهة الصيف؛ فمنحتني كل منهن بسخاء ما لم أحلم به قط في حياتي، لدرجة أنني كنت أتذكر بأسى كيف كنت أقضي الليل هنا حائرًا ومكتئبًا، أفتش عن ملمس فتاة ساخن وناعم وطري، دون جدوى!

غيوم الحرمان من المرأة تتكاثف في سماء حجرتي، فتزيد من هبوب رياح التوتر، وعماد عزوز فغر فاهه سائلًا:

-كم امرأة ضاجعتها يا عمر؟

ثم استدرك آسفًا:

- اعذروني يا جماعة على هذا السؤال الفج، فحتى هذه اللحظة لم تغمرني الأمطار الدافئة لعلاقة كاملة مع فتاة.

ثم همهم بصوت يائس:

- أستغفر الله العظيم.. ارحمنا يا رب من عذابات الجسد المحروم!

بعد ذلك بيومين، كان عماد عزوز يقسم لي إنه إذا لم يتزوج خلال عام، فسوف يرتكب أكبر كبيرة في الإسلام بعد القتل؛ لأنه بات غير قادر على

احتمال الحرمان من مضاجعة امرأة أكثر من ذلك! حيث قال لي بحزم وهو يسدد بصره في مؤخرة فتاة محجبة، ترتدي بنطالًا جينزًا ضيقًا مرقت أمامنا بدلال:

– لا يليق أن يخاصم الإنسان رغبات جسده بعد أن عبر الثلاثين!

كنا في دار الدفاع الجوي بشارع النزهة؛ حيث أقيم حفل زفاف عمر عبد الفتاح على عروس اختارتها له والدته.. كان المكان يعجّ بفتيات يبحثن عن أولاد الحلال، كما لاحظ بحق عماد عزوز. وكانت كل فتاة منهن تتهادى في قاعة الحفل بإيقاع أنثوي، يبغي لفت الانتباه أمام عشرات الشباب من أقارب وأصدقاء العريسين، الذين توافدوا على المكان يسبقهم توق شديد إلى المرح والمغازلة.

طيور البطريق.. نعم إنها طيور البطريق، وقد ضجّ بكثافتها الشاطئ.. هكذا قلت لنفسي، وأنا أتابع حركة العشرات من الجنسين داخل القاعة.. صخب وفوضى وهياج جنسي عارم هو العنوان الأنسب لحفل الزفاف هذا. أحببت ضجيجهم وروائح لهفتهم ذكورًا وإناثًا، وقلت: اضطرام المشاعر هو جوهر الحياة، ولهيب الشهوة هو الذي يجددها.. أما الفرقة التي ستزف العروسين فقد بدأت برنامجها الصاخب بقراءة الفاتحة بإيقاع خاص، أصبح سمة مميزة لأفراح هذه الأيام. ارتدى عمر عبد الفتاح ابن كمساري في الشرابية، بدلة إيطالية سوداء أنيقة، اقتناها من دبي فوق قميص أبيض وببيونة حمراء، فبدا لنا كأنه نجم خرج توًّا من مهرجان دولي للسينما. في عينيه ابتسامة مشرقة، وفي جبينه انبساط مريح، وفي ذقنة حفرة تزيده جاذبية. لونه الخمري يشعّ ببريق آسر تحت أضواء الكاميرات، التي أطلقت أنوارها على وجهه كلما تحرك.

- تخيل يا معتز.. لقد كلف عمر عبد الفتاح ثلاث استوديوهات مختلفة بتصوير حفل زفافه!

- مَنْ أخبرك بذلك؟

أجاب عماد بفخر:

- هو الذي أنبأني بذلك قائلًا: (إننا لا نتزوج إلا مرة واحدة فقط، فعلينا الحفاوة بها إلى آخر مدى).

لم يتوقف عماد عزوز عن ازدراد الطعام والعصائر طوال الحفل، كما لم تتوقف عيناه عن مطاردة أجساد البنات والنساء الغاديات الذاهبات في القاعة بدلال وغنج أحيانًا. وكان كلما التهم المزيد من الطعام، بثّ لي الكثير من الشكوى؛ لأنه محروم من مسرات المرأة وثراء بدنها! وأنه أصبح ينزعج من طول المكوث في سجن العادة السرية.. عيناه تتراقص في محجريهما كفيل هائج، كلما رشق بصره في نهد بارز أو مؤخرة مكتنزة.

إني أغبطك يا عماد، فكلهن متساويات بالنسبة إليك، وكل مشكلاتك تذوب إذا أطفأت سعير جسدك في حضن أية امرأة.. نعم أية امرأة، فما بالي أنا لا أروم سوى نشوى فوزي! ولا أتوق إلا لرؤية عينيها الساحرتين والتمتع بلفتاتها الأخاذة، وتأمل فراشاتها الرقيقة والسباحة في أريجها الفوّاح.. ترى.. هل من الممكن أن تطل علينا في هذا الحفل؟ لقد كانت جدتي «مآثر» تردد: (رغبات العاشق مجابة، إذا كان على علاقة طيبة مع هدهد جميل)، وقلت لنفسي بفرح: لا يوجد في هذا العالم شاب يحظى بنعمة اللقاء مع الهدهد بصورة شبه منتظمة مثلي! ووجدتني أرنو نحو مدخل القاعة بفؤاد ملهوف، عسى أن تهل صديقة الفراشات، فأبتهج وأنتشي، لكن ماذا أنا فاعل إذا

جاءت بصحبة أدهم الشاذلي؟ سيكون كيّ القلب بنار الغيرة نصيبي في هذه الحالة!

فجأة اقتحمتني رياح توتر شديد، فقد رأيته يقف هناك في الجانب الأقصى من القاعة.. إنه هو.. الرجل الذئبي بملابسه كاملة، بالضبط كما رأيته على الشاطئ في الساحل الشمالي: بدلة سوداء أنيقة فوق قميص أبيض ورابطة عنق زرقاء اللون بخطوط كحلية مائلة.. إنه لا يتحرك، ويكتفي بنثر نظراته المخيفة على من بالحفل. ولكن أين أقزامه؟ دُرتُ بعينيّ في زوايا وأركان المكان، فلم أجد لهم أثرًا.. تفرست فيه جيدًا، وتأكدت أنه هو، حتى لو كانت أذنه اليسرى لم تشرع في إطلاق الدخان الأبيض بعد. همس عماد في أذني، محرّضًا إياي أن أتأمل الفتاة التي تجلس في المنضدة التي على يساري.. لم أهتم، وظللت أحدج الرجل الذئبي بعينين قلقتين وقلب يرتجف. لكزني عماد في كتفي راجيًا أن أرنو إلى جميلة الجميلات كما وصفها. مِلتُ برأسي نحوها، فأدهشني جمالها الباهر، ولكن الشرر الذي ينطلق من عيني الرجل الذئبي أفسد عليّ نعمة التأمل في الوجه الحسن؛ ففكرت أن أتوجه إليه لأخاطبه، ولكنني ترددت واعترتني رعشة مفاجئة، حين رأيت عمر عبد الفتاح يهرول نحو الرجل الذئبي ويصافحه باحترام.. هنا نهضت وهممت بالتحرك نحوه، لكن المفاجآت تتوالى ورئيس التحرير كريم المرشدي يقترب بكرشه من الرجل الذئبي ويصافحه بحرارة، ويدخلان في حوار جاد. أنياب العبوس تطل من وجهي الرجلين، بينما تزداد النيران، التي تندلع من الكف اليمنى لرئيس التحرير اشتعالًا.. صحتُ مناديًا عمر عبد الفتاح، فأتى مسرعًا، سألته وأنا أشير نحو المكان المعتم، الذي يقف فيه الرجلان:

– مَنْ هذا الرجل؟

بعقل مشوش، واضطراب واضح، أجاب:

- إنه نائب مأمور قسم الوايلي.. خال عروسي!

يا نهار أسود.. خال عروسك! خرجت مني هذه العبارة بصوت شبه مسموع، ولكن عمر الذي يوزع ابتسامته على الجميع بسعادة حقيقية لم يتنبه لها، فعدت أكرر سائلًا:

- أنا أعني الرجل الذي يقف مع رئيس التحرير.

- نعم.. نعم.. الرجل ذو البدلة البيضاء!

ندّت مني شهقة دفعت عمر إلى أن ينظر إليّ بارتياب، وأنا أصيح:

- بيضاء!

التفتُّ مرة أخرى إلى ناحية الرجل الذئبي لأتأكد من لون بدلته، فلم أجده.. إنها بدلة سوداء ولست من المصابين بعمى الألوان. شققت طريقي بصعوبة في زحام القاعة بحثًا عنه، فلم أعثر له على أثر، كأن القاعة التهمته.. اقتربت من رئيس التحرير، ووجدته يقف واجمًا مثل خنزير بري يفقد شيئًا مجهولًا غاليًا، والنار لا تهدأ في كفه اليمنى. تتبعتُ بعينيّ تحركات عمر العشوائية في القاعة، حتى سنحت لي فرصة عندما اقترب مني، فقبضت على يده، وسألته:

- أين المأمور الذي كان يرتدي بدلة سوداء!

قهقه عمر بصوت عالٍ، جعل حشدًا من المدعوين القريبن مننا يحاكونه من باب المداعبة ويضحكون، ولكن عمر تجاهلهم، وهمس في أذني:

- الرجل نائب المأمور وليس المأمور، ويرتدي بدلة بيضاء وليست سوداء، وكان يتجاذب أطراف الحديث مع رئيس التحرير، ولم ينصرف بعد، ولا أعرف أين هو الآن، فالقاعة كبيرة.

ثم بنبرة ضجر:

- دعني من فضلك أذهب إلى عروسي!

- ولكنه كان يرتدي بدلة..

لم أكمل عبارتي لأنني شعرت بيد تربّت على كتفي من الخلف.. جفلت والتفت مسرعًا. استقبلتني حنان المرشدي، بوجه متألق وروح متهللة هاتفة:

- زين العابدين بن علي هرب من تونس!

ماذا يحدث؟ رئيس يهرب ومأمور يتلاشى! ولكن هل أنعمت عليّ المقادير بنظرة من نشوى فوزي في هذا المساء الغريب؟ سألتها وأنا أمسح المكان بعيني، باحثًا عن الفراشات المزركشة:

- هل أنتِ بمفردك؟

ثم استطرت حتى أداري لهفتي:

- متى هرب؟

- هرب قبل قليل!

لم تجب بعد عن السؤال الأهم.. فتخابثت وأعدت السؤال بصيغة أخرى؛ فنار الشوق إلى رؤية نشوى فوزي تشوي كبدي:

- هل أتيتِ مع والدك؟ لقد رأيته يقف هناك!

قالت محتجة، ونور الثقة بالنفس يشع من صوتها:

- لا.. لقد وصلت إلى هنا بمفردي!

ثم أضافت تأكيدًا للثقة:

- صحيح أنني من أهل المعادي، وعلاقتي بأحياء مصر الجديدة وشوارعها ضعيفة، إلا أنني نجحت في الوصول إلى هنا بسيارتي في أقل من أربعين دقيقة!

لا نشوى ولا فراشات ولا أمل يلوح في الأفق.. وعماد عزوز ما زال يطارد النساء بعينيه الجائعتين، ويلتهم الطعام بشهية لا مثيل لها. تناهى إلى سمعي همهمات مذهولة عن هرب بن علي، موشاة بعبارات إعجاب ببطولة الشعب التونسي. لاحت مني نظرة عفوية إلى رئيس التحرير، فوجدته عابس الوجه، وهو يتحدث في الموبايل بعصبية، والنيران تستعر كالعادة في كفه اليمنى، ثم تحرك فجأة نحو باب الخروج يسبقه كرش عظيم مثل خرتيت.. اقتربت مني حنان المرشدي وهمست بصوت ضعيف تلقيته بصعوبة، لأن الضجيج يصرع أي صوت آخر:

- ما رأيك لو أدعوك لتناول الشاي في مكان أهدأ؟

بعد أن فتشت عن الرجل الذئبي بعينيّ في القاعة، قلت بابتسامة روتينية:

- هذا واجب عليّ، فأنت ضيفتنا في مصر الجديدة!

تهلل وجهها بالإشراق، وعقبت بسرعة:

- أنا موافقة، على الرغم من أنك رفضت دعوتي للغداء في الحسين، ولم ترد على رسالتي آنذاك!

لم أعرف بم أجيب، فابتسمتْ، ثم أكملت، وهي تحثني على الذهاب:

- هيا.. فالصخب هنا لا يحتمل!

عند خروجنا من القاعة رأيتهم.. مجموعة الأقزام التي تتحرك في معية الرجل الذئبي.. كانوا يقفون في صفين عند نهاية سور دار الدفاع الجوي، وكل واحد منهم يمسك بيده شيئًا لم أتبينه جيدًا. تأملتهم للحظات.. كانوا متربصين، وكأنهم ينتظرون شيئًا معاديًا مجهولًا. لمحت الرجل الذئبي يتوجه إليهم مسرعًا من الاتجاه الآخر.. هرولت نحوهم، فتلقيت عاصفة من الدخان الأبيض انبثقت من الأذن اليسرى للرجل، فأعمتني مؤقتًا لثوان، ولما فتحت عيني لم أر شيئًا. وقفت حائرًا يقتلني غيظ شديد.. أين اختفوا؟ وكيف ذابوا في فضاء مصر الجديدة في لمح البصر؟ تسمرت في مكاني فاقد الحيلة؛ حتى رنّ في أذني صوت حنان المرشدي، وهي تصيح:

- معتز.. تعال هنا من فضلك، فالسيارة تقف على الجانب الآخر!

دون تفكير، أرشدتها إلى الطريق نحو كوستا، حيث لقائي الأول والأخير مع نشوى فوزي.. كانت تقود سيارتها بثقة تحسد عليها، وكان صوت محمد منير يصدح من جهاز التسجيل مترنمًا (الليلة يا سمرة يا سمارة). شعرت بسهام نظراتها تخترق جسدي، فلما التفتُ إليها، سألتني بريق مبحوح:

- هل أنت من عشّاق محمد منير؟

- إلى حدٍّ ما، لكنني لست مفتونًا بأحد.

في كوستا، كان جميع الرواد يتابعون هروب بن علي على قناة الجزيرة، وكان اللغط شديدًا والفرحة غامرة، وترددت في أرجاء المكان عبارات سريعة، تتمنى أن ينهض المصريون ويصنعوا ما صنعه التونسيون؛ فأيدت حنان ما يقال بحبور شديد، ولم تتوقف عن متابعة قناة الجزيرة إلا بعد أن وضع النادل الشاي بالحليب وعصير البرتقال اللذين طلبناهما.. حينئذ اقتربت بجذعها نحوي وسألتني بهمس ممزوج بحنان:

- ما بك يا معتز؟

بعفوية، خرجت إجابتي:

- لا شيء!

راحت سحب الحيرة تتجمع في عينيها، ولكن بريق الإصرار لا يشحب ولا ينطفئ، فاعتدلت في مقعدها، وألقت السؤال الثاني بنبرة تحد:

- حسنًا.. لماذا طردتنا من منزلك؟ ولماذا ألقيت الزهور في وجوهنا؟ ولماذا وجّهت لأدهم كل هذا السباب؟

عمَّ تتحدثين يا ابنة رئيس التحرير؟ طرد.. زهور.. سباب! أنا لا أذكر شيئًا مما تقولين. لكن هناك أشباح من التوتر تزحف نحو ذاكرتي فتؤلمني، وصور غائمة تقفز من المجهول لتقرع باب خاطري فتوجع قلبي، ثم تختفي مرة أخرى في المجهول.. أحاول الإمساك بها فتنزلق من فوق حرير ذاكرتي مثل الزئبق، فلا أستطيع أن أقبض عليها؛ فأكتئب وأرضخ لقوانين القدر. وأول أمس قال لي عماد عزوز إن نشوى فوزي معاتبة عليّ كثيرًا، فلم أفهم.. وجدتي «مآثر» كانت تردد دومًا: (إذا عجزت عن إدراك شيء، فاستعن بالله، وتأمل مخلوقاته، وقل: سبحان الله). استعنت وقلت وتأملت.. ولم أفهم!

- لم ترد على أسئلتي!

كانت تصوّب نظراتها نحوي بجرأة لا تتوافق مع خفرها الدائم، فأشحت ببصري عنها نحو شاشة التليفزيون؛ هربًا من رصاصات عينيها، حيث أنهار السرور تتدفق في شوارع تونس، فتغمر كل الجالسين في كوستا بمياه الحبور والسعادة.

- أنا لا أذكر شيئًا مما تزعمين.

غمغمت بصوت لم أتبينه، وتناولت رشفة من عصير البرتقال، ثم رجعت بجذعها إلى الخلف يأسًا فيما يبدو. وراحت تتابع أحداث تونس على الشاشة بشغف، ثم محت أسئلتها السابقة بسؤال جديد مفاجئ:

- هل تتوقع أن يثور المصريون، ويطردوا حسني مبارك؟

قبل أن أعلق، رنّ هاتفها المحمول، فاكتشفت أن الرنين عبارة عن مقطع من أغنية محمد منير (الليلة يا سمرة)؛ فابتسمت، لكن قلبي غاص في صدري، حين هتفت حنان: (أجل يا نشوى.. علمت بما حدث.. أنا سعيدة جدًّا، فقد نجح شعب تونس في طرد طاغيتهم.. عقبى لنا). للحظة فكرت أن أطلب من حنان أن تدعوها لتنضم إلينا، فنأتنس بوجودها بيننا، ولكنني تراجعت خوفًا من أن تأتيني بصحبة الغريم، فتتلظى مشاعري، وتتأجج بغضب مسعور.

حين أوصلتني حنان المرشدي أمام مدخل العمارة التي أسكن بها.. دعوتها للصعود لتتناول الشاي، فأبت شاكرة لأن الوقت قد تأخر. لم أكن متحمسًا للمكوث في البيت؛ فبرد يناير هذا المساء حنون ومنعش يغريني بالبقاء، وزحام مصر الجديدة يخف بصورة لافتة، أما أسئلة حنان المرشدي فغريبة ومفاجئة وصادمة.. تاقت نفسي إلى تناول الشيشة، فقررت أن أسير في اتجاه ميدان الجامع؛ لأجلس على أقرب مقهى يقابلني. اكتشفت أنني ارتكبت حماقة كبيرة حين اصطحبت حنان المرشدي إلى كافيتريا كوستا، فقد نفاجأ بوجود فادي نجيب هناك؛ لأنه يرتادها أحيانًا، فيحترق قلبه بلهيب الغيرة، وتقع الكارثة، ثم حمدت الله أنه لم يكن من روادها هذه الليلة.

قبل أن أصل إلى ميدان المحكمة، انطلق رنين هاتفي المحمول، كانت أمي تطمئن عليّ وتستفسر عن موعد عودتي ذاكرة لي بسعادة أن (بن علي) هرب،

ثم تلا ذلك اتصال من عماد عزوز يسألني أين أنا لأن الزفة قد بدأت، ورئيس التحرير غادر الحفل مضطربًا. كنت أقف تحت شجرة مورقة أمام مبنى حي مصر الجديدة، حين جاءني اتصال من فادي نجيب، يخبرني فيه بضرورة أن نلتقي صباح الغد لأمر يخصني وحنان المرشدي!

خيوط مأساة تتجمع في الأفق لا محالة.. هذا اتصال غير بريء، ونبرة صوته متسربلة في غشاء من غضب مكتوم. ترى.. هل رآنا ونحن جالسان في كوستا؟ أم أن هناك من أبلغه بذلك؟ ليس لديّ أية رغبة في التشاحن والدفاع عن نفسي؛ لأنني لم أرتكب جريمة في الأصل. ليتني أبلغته بأنها تتواصل معي باهتمام منذ زمن، وأن مشاعري نحوها لا تتعدى مشاعر الزمالة؛ لأن ورود الغرام خطفتها كلها ابنة عمتها منذ وقت طويل.. سخافات لم تكن بالحسبان.

غامت عيناي، فأصاب تركيزي تشويش كبير، وشعرت بوطأة البرد تفرض نفسها في عظامي. أربكني بوق سيارة حاد ومزعج.. توقفت عن المسير، وعافت نفسي الذهاب إلى أي مكان، استدرتُ إلى الخلف وقررت العودة إلى البيت. فجأة طار بمحاذاة رأسي هدهد عجيب واتجه إلى الشجرة القريبة، لم يكن صديقي، فمنقاره أطول قليلًا، وتاجه مختلف كثيرًا، ولكنه ساحر ومدهش وجميل، ثم تبعه هدهد ثان وثالث ورابع حتى بلغ عددها ستة، تجمعت كلها فوق الشجرة القريبة مني، وراحت تتأملني بحنان مستعرضة تيجانها المبهرة بزهو. وبعد لحظات، انبثق من بطن السماء فجأة صديقي الحميم.. هدهدي البديع.. رفرف بعفوية ونشاط. ألقى التحية على رفاقه، وبدا لي أنه كبيرهم الذي علمهم الجمال والعذوبة.. اقترب مني بصورة لم تحدث من قبل. أنفاسه لفحت وجهي.. خفق قلبي بشدة. شكمتُ

رغبة جارفة في لمسه بيدي، حتى لا يهرب.. دعا رفاقه لتلتف حول جبيني مشرعة أجنحتها بحرية، وهي تصنع دائرة ملونة ومبهجة، لم أر مثل روعتها من قبل. ظلت هكذا نحو دقيقة من الزمان توازي دهرًا باذخًا من المسرّات، ثم انصرفت واحدًا تلو الآخر في مشهد فاتن نحو الشجرة القريبة، ولما جاء دور صديقي، آخر المغادرين، صاح بصوت أرق من النسيم:

- أبشر يا معتز!

ثم ابتسم قاذفًا في روحي فاكهة الغموض اللذيذ!

* * *

22| بصحبة

فادي نجيب

عند الساعة الثامنة صباح اليوم التالي، كان فادي نجيب يجلس في غرفتي، يتلو عليّ رسالته الثانية والأخيرة، التي سيحاول إرسالها إلى حنان المرشدي.. تنفست الصعداء حين فتحت له باب الشقة؛ إذ لم ألمح أي عناقيد للغضب تطلّ من عينيه، فتيقنت أن خبر لقائي أمس بحنان المرشدي لم يصل إلى مسامعه، فحمدت الله.. كان ودودًا، وقد صافح أمي بمحبة تليق بمصري مسيحي طيب يعرف الأصول، وقد بكته فيما بعد كثيرًا جدًّا. تبادل معها حوارًا قصيرًا عن هروب الرئيس زين العابدين بن علي أمس، وعن عظمة الشعب التونسي وجسارته المفاجئة.

لم أكن قد بدلت ملابسي، التي ارتديتها الليلة البارحة بمناسبة حفل الزفاف.. فقط نزعت رابطة العنق التي تشعرني باختناق، وألقيتها جانبًا. أعدّت لنا أمي سندويتشات بيض ولانشون مع الشاي بالحليب.. اكتفيت بتناول قضمتين منها وتركت الباقي، أما فادي فلم يقرب الطعام، وقال لي بأسى:

- منذ هبّت عليّ رياح أنوثتها بقوة، وأنا زاهد في أي شيء!

لاحظت بحق أنه لم يكن حليق الذقن كعادته، كما أنه فقد كثيرًا من وزنه وشَحُبت نضارته، ولكنه لم ينسَ نصيبه من اللون الساخن المفضل لديه،

قميصًا أحمر تحت جاكت جلد أسود. جلس على حافة سريري، وأخرج عدة أوراق مطوية من جيب الجاكت، الذي دسّ نفسه بداخله من شدة برد هذا الصباح، كما قال لي.. كنت منهكًا من عذابات الأرق وخسارات الغرام وبؤس النوم المتقطع وفوضى الأحلام الغامضة، وكان فادي متعبًا من لوعة الحب ومكابداته وضمور الأمل ومراوغاته. في البداية راح يقرأ لي بصوت مرتعش نص رسالته، الموجهة إلى حنان المرشدي. كانت الرسالة مصاغة في ست صفحات بخط اليد، سألته بتعجب قبل أن يشرع في القراءة:

– لماذا لم تكتبها على الكومبيوتر؟

أجاب بغرور أجوف، غالبًا ما ينتاب العشاق الخائبين:

– يا جاهل.. خط يدي مشحون بطاقة عاطفية جبارة، سوف تتسلل إلى شرايينها وهي تقرؤه، فتلين وتذوب وتستجيب!

ابتسمت، وأنا أغالب روحًا تهكمية تسري في بدني عادةً؛ إذا لم أحظ بنصيب وافر من النوم:

– من أنبأك بهذا أيها العاشق المحروم؟

وكأن كرة من نار ألقيت في جوفي؛ إذ قال بحزن ممزوج بسخرية مرة:

– أدهم الشاذلي.. أدهم يا فالح.. أدهم الذي طردته بعد أن غمرته بشتائمك!

مرة أخرى، يتكرر الحديث عن الشتائم والطرد، بينما الصور غائمة ومتداخلة على شاشة خاطري، فلا تظهر ملامح ولا تتضح وقائع.. لكن أن يعطي أدهم نصائح غرامية لفادي، فهذا يعني أنه غارق في بحر العسل مع صديقة الفراشات، وأنه يتمتع بصحبتها وفراشاتها بمفرده، وأنني أمضغ

الحنظل هنا وحيدًا، لا أدري ماذا يحدث خارج غرفتي أو خارج غاباتي التي أرتادها داخل اللاب توب. حقًّا ما أتعس الحب من طرف واحد، ولكن كيف سمحت لقلبي أن يسقط في هذا المطب المؤلم؟ وقديمًا قالت جدتي «مآثر» بشجن: (العاشق مسكين.. ليس له على قلبه سلطان)، فهل انضممت أنا إلى طائفة العشاق المساكين دون أن أدري؟ وأمس أكدت لي حنان المرشدي أن نشوى وأدهم قررا أن يعلنا خطبتهما في شم النسيم المقبل؛ لأنه عيد مصري صرف لا تقاسمنا فرحته شعوب أخرى، كما أنه أقدم عيد يتم الاحتفال به على وجه الأرض.. يا الله.. حتى الاعتقال في سجون مصر لم يقلل من هوس أدهم بمصر وتاريخها. ما العمل؟ ومجرد ذكر سيرة أدهم الشاذلي يجعلني أتضور غمًّا!

- ما رأيك؟

سألني فادي بلهفة:

- رائع.. رائع!

قلتها بعفوية، وبسرعة مذهلة، لأداري عدم انتباهي؛ حيث لم أسمع سوى جملة (العزيزة الغالية حنان المرشدي)، التي استهل بها رسالته، وبعد ذلك ضعت منه في ضباب الهواجس المتناقضة والخيالات الغرائبية.. فكرت أن أسأل فادي: هل أطلع أدهم على هذه الرسالة؟ وهل استعان به ليعيد صياغتها بأسلوبه الأدبي المتميز؟ ثم هل عنده أية معلومات عن نية أدهم إعلان خِطبته على نشوى فوزي في شم النسيم؟ ولكنني تراجعت، وحاولت الخروج من نفق الحديث عن العشق المعطل إلى فضاء القضايا العامة، فسألته باهتمام مزيف:

- كيف ترى ما حدث في تونس أمس؟

يبدو أنني طرحت السؤال بجدية أكثر من اللازم؛ لأن فادي عقب متفاجئًا وساخرًا:

- ما عهدناك مشغولًا بأمور السياسة إلى هذا الحد؟

استفزني جوابه، فأطلقت رصاصة سؤالي الثاني بحدة، تعمدت أن تصل إليه:

- وهل أصبحت أنت المحلل السياسي الخطير؟

قهقه فادي، ربما لأول وآخر مرة منذ أن انغرزت في صدره أشجار الافتتان بحنان المرشدي، فبدت ملامحه أرق من الزهور، وقال مخففًا لهجته من باب طي صفحة السخرية:

- يا عزيزي معتز.. أنا لا أفقه فيها شيئًا ولا أريد!

ثم استدرك بجدية:

- بصراحة.. كلنا لسنا على دراية بشئون السياسة وخباياها وألاعيبها، باستثناء أدهم الشاذلي، أما محمود أبو ماضي، فقد بدأ اهتمامه بها إلى حد ما مؤخرًا!

مرة أخرى يطل أدهم الشاذلي بقوة من بين ثنايا العبارات، فأشتعل غلًا وكمدًا، فأنهض لأعبث ببعض الجرائد والكتب، التي في غرفتي؛ حتى أطفئ سعير الغيرة الذي يتقد في فؤادي، فور أن يتردد أمامي اسم سارق محبوبتي.. أسدلت ستائر صمت حزين للحظات، هتكها رنين هاتفي المحمول، معلنًا عن وصول رسالة، (صباح القرنفل يا معتز.. كيف أحوالك اليوم؟) كانت حنان المرشدي، فغاص قلبي في صدري، وأطفأت الموبايل ووضعته في جيبي؛ حتى لا يغري فادي بتفحصه، فيعرف عن طريق مصادفة مشئومة بأن معشوقته المستحيلة ترسل لي تحية الصباح، مشمولة بالرقة والورود.

- على أية حال.. الشعب التونسي بطل وكفى، دعنا من السياسة وانتبه لي جيدًا!

بهذه العبارة، أوصد فادي نجيب باب السياسة، ليفتح باب الهوى، ويكمل حديثه بنبرة هامسة:

- لديّ رجاء.. أتمنى أن تحققه لي!

تعجبت وتساءلت ماذا يريد مني؟ وقبل أن أبدي اندهاشي، سدد لي رصاصة في القلب حين هتف بتوسل:

- معتز.. من فضلك.. أوصل هذه الرسالة إلى حنان، وناولها إياها يدًا بيد!

ثم استدرك بذل يلوّن وجوه العشاق المخذولين عادة:

- وليتك تحثُّها على الرد بإيجابية.. وبسرعة!

مباغتة لم تكن في الخاطر، وأمس كادت تصرح لي بأنها تحبني، لولا حرير الحياء الذي تتسربل به.. هذا رجاء لا يقدر على تلبيته إلا إنسان غليظ الإحساس خشن الطباع؛ فكيف أهرب من هذه المهمة الثقيلة. لم يترك لي فادي فرصة لأتلذذ بالإبحار في خيالي؛ إذ نهض فجأة، واقترب مني حتى كاد أنفه يلامس أنفي وهتف:

- أعلم أنه طلب بائخ وثقيل، وأدرك أيضًا أنك في إجازة الآن، ولكن صدقني.. سوف أصطحبك بسيارتي حتى مقر جريدتكم، لتسلمها الرسالة، وأنتظرك لتعود أدراجك في الحال وترتاح!

لا يقدر أحد على صد رغبة عاشق ملهوف، ولا يستطيع إنسان إطفاء الأمل في قلب مُحب جاد، حتى لو كان من أبناء السيد المسيح، وكانت محبوبته

من أمة النبي محمد.. ولكن ما الحيلة، والتي يهواها فادي مشغولة بي، وأنا مشغول بنشوى المفتونة بأدهم! سلسلة مهترئة من العشق الخائب. أي عبث في هذه الحياة. حقًّا.. ما أسعد الحيوانات والطيور، فهي ترضى بنصيبها من الأليف، ولا تتعرض لمآسي الحب من طرف واحد وآلامه! يا الله.. ليتك خلقتني هدهدًا بديعًا، أرفرف بحرية في السماء، وأعاشر أنثاي بمودة، أنجب الأبناء وأرعاها، أنثر البهجة بألواني وتاجي في نفوس كل من يراني!

- هيا يا معتز.. أسرع!

لكزني فادي في كتفي برفق وهو يحثني على النهوض.. كنت أحدق في صورة الهدهد على الحائط متأملًا تاجه وألوانه وابتسامته، نظرت إليه بإشفاق، وقلت صارخًا ومحتجًا:

- هل تريد أن أسلمها الرسالة اليوم؟

بسرعة البرق، هتف:

- الآن.. هيا يا معتز أرجوك!

لا مناص من الكذب، ولا مفر من الكتمان والمداراة.. هكذا كنت أخاطب نفسي، ونحن في الطريق إلى مقر الجريدة. كانت شمس يناير خجولة هذا الصباح؛ فخيوط أشعتها تتسلل برحمة في أجسادنا فتمنحها قدرًا لا بأس به من الدفء. وكانت الطريق من مصر الجديدة إلى ميدان رمسيس هادئة نسبيًّا؛ فلم يعترضنا زحام مزعج إلا فوق كوبري أكتوبر ولفترة قليلة، ولمسافة أقل، وكان فادي نجيب قد وضع في سيارته سي دي لفرقة أجنبية، تردد أغنيات ناعمة نسبيًّا؛ حيث راح يدندن معها بصوت خفيض.

ما إن دخلت غرفة مكتبي، حتى امتلأ قلبي رعبًا؛ فانفجر الأدرينالين في أوردتي وشراييني بغزارة، إذ وجدت مجموعات متنوعة وكثيرة من

الحشرات، تتحرك بجنون فوق ورقة وضعت على مكتب عماد عزوز.. أغلبها من الصراصير، وبعضها بشع المنظر مجهولة ماهيته. نعم.. أعشق الحيوانات والطيور.. ولكنني أكره الصراصير وأتقزز منها.. حدقت فيها من بعد، وتعجبت من أين أتى هذا الجيش اللعين من الصراصير؟ ألقيت بصري في أرجاء الغرفة، فلم أر حشرة واحدة، ظننت أن هناك بقايا طعام فوق هذه الورقة، التي تأوي تلكم الحشرات البغيضة. لم أحاول أن أقترب منها أو أن أطردها، وتسمّرت بعيدًا بقرب الباب.. فكرت أن أستعين بحسنين الفكهاني الفراش، فهو منهم وأدرى الناس بالتعامل مع هذه الصراصير المفزعة. تساءلت بضيق: إلى متى سأظل أواجه القرود في القطارات والصراصير في المكاتب؟ سمعت طرقات خفيفة على الباب.. دخلت حنان المرشدي بوجه صبوح وروح شفافة، ألقت عليّ تحية الصباح، وهي تمد يدها لمصافحتي لأول مرة سائلة:

- كيف أحوال صحتك اليوم؟

ثم استدركت قبل أن أجيب:

- الحمد لله.. واضح أنك أفضل كثيرًا!

ملمس يدها وهبني مذاقًا خاصًا وغريبًا ذكرني بملمس حمامة صغيرة، ذات زغب بني ناعم، كانت ضمن مجموعة الطيور التي تربيها جدتي «مآثر». وكنت مهووسًا بلمس هذه الحمامة تحديدًا في الزمن الخالي؛ حيث ينتقل تيار دافئ وممتع من جسمها الصغير إلى بدني، فأنتشي وأشعر بالأمان.. ولكن ألم تصدمها رؤية الصراصير؟ ألا تخشى منها؟ هل أخبرها؟ إنها في مرمى بصرها الآن، ومع ذلك لا تفقد حنان ابتسامتها، ولا تضطرب مشاعرها، ولا يعتريها خوف أو وجل.

- الحمد لله.. أشكرك!

قلت ذلك، وأنا لا أدري ماذا أفعل أمام كارثة الصراصير التي تعبث في مكتبي، ولا برسالة الغرام المشتعلة في جيبي، ولا أدري ماذا أقول للعاشق المنتظر في المقهى؟

- هل قطعت إجازتك وستعود إلى عملك؟

- في الحقيقة..

لم تجعلني أكمل، وحسنًا فعلت؛ لأنني لم أكن أعرف ماذا أقول، بينما إصرار الصراصير على ممارسة حياتها الطبيعية، في وجودنا أنا وحنان، يعد إهانة بالغة لبني البشر، وتذكرت عبارة جدتي «مآثر»: (إذا تجرّأت الصراصير على الناس، فاعلم أن هذا نذير شؤم).. أوقفتني حنان بإشارة من يدها وهتفت:

- رائع جدًّا.. العمل خير وسيلة للتغلب على وحش المرض.. العمل سر الحياة!

هل أصبحت فيلسوفة يا ابنة رئيس التحرير؟ سر الحياة هو القضاء على هذه الصراصير في التو واللحظة.. سر الحياة هو التحليق في الفضاء بحرية.. سر الحياة هو الاندماج بالطبيعة.. سر الحياة هو التآلف مع حبيب.. سر الحياة هو أن أضم نشوى فوزي إلى صدري بقوة!

بعصبية، دفع عماد عزوز الباب، فبهت حين رآني وهتف:

- هل قمت بقطع إجازتك؟ رائع جدًّا.

الكل يتحدث عن قطع الإجازة.. ملعونة الإجازة أمام وقاحة الصراصير.. وقبل أن أنطق بحرف، توجّه عماد نحو مكتبه، وألقى بجسده

الضخم فوق المقعد، غير عابئ بكرنفال الصراصير المقام فوق مكتبه، وصاح بصوت لاهث وعاتب، موجهًا حديثه نحو حنان المرشدي:

- هل يرضيك ما كتبه الأستاذ كريم.. والدك؟

الصراصير لا تولي عماد أي اهتمام، ولا ترتبك أمام جسده المهول.. ولا ترتجف أمام ذكر رئيس التحرير.. سلسلة إهانات متتالية، لا يستطيع صدّها أحد!

- ماذا تقصد؟ مقاله عن الفساد في محافظة الغربية!

- لا.. لا.. أعني هذا المقال الذي سينشر في عدد الغد!

ثم مدّ عماد يده نحو مكتبه بتشنج، وسحب الورقة الملعونة، وناولها إلى حنان بصراصيرها وحشراتها وقرفها.. استلمتها بهدوء، فلم تنزعج ولم تشمئز، بينما فؤادي يخفق بعنف من فرط التوتر. قرأت حنان عنوان مقال أبيها بصوت مسموع (لأن الشعب يحب الرئيس مبارك.. مصر غير تونس)، فارتسمت على صفحة وجهها آيات الغضب نفسها، التي أطلت منها يوم انحشرنا قرب الميدان، بين الكلاب والرصاص. الصراصير ما زالت تسخر من البشر، وآيات الغضب، التي ترتسم على الوجه المشرق لا تخيف الصراصير؛ فمازالت تمارس هواياتها في القفز والعبث بالورقة البغيضة. واضح جدًّا أن الصراصير لا تهاب رؤساء الدول ولا رؤساء التحرير! فها هي تتحرك بحيوية فوق صورة حسني مبارك، ثم تترك فضلاتها على اسم كريم المرشدي!

فجأة أغلق الباب بعصبية؛ فاكتشفت أن حنان المرشدي غادرت الغرفة، بعد أن ألقت الورقة بصراصيرها وحشراتها ورؤسائها على الأرض احتجاجًا وسخطًا.. هتف عماد:

- برافو عليكِ.. فتاة بمائة رجل بحق!

ثم انحنى بصعوبة، وأخذ الورقة من الأرض بكائناتها المقززة، ووضعها بقرف فوق مكتبه!

سألته بريق جاف، وأنا أتوجه ناحية الباب:

- عماد.. ألا تخشى الصراصير؟

نهض متحاملًا على كوم لحم مكتنز، وقال بيأس:

- أية صراصير تعني؟ البلد كلها صراصير!

ثم أشاح بيده؛ لأبتعد عن طريق الخروج، قائلًا:

- عن إذنك.. أريد الذهاب إلى الحمّام.

لم أحتمل أن أبقى وحدي في حضرة صراصير تستخف ببني البشر، فلا تهرب حين تراهم، ولا تختبئ عندما تسمع أصواتهم.. هرولت في أعقاب خروج عماد. لم أستخدم المصعد، وقفزت على الدرج بسرعة، تاركًا خلفي الجريدة المشئومة بصراصيرها وحشراتها. عند مدخل العمارة رنّ هاتفي.. كان فادي نجيب، فلم أرد، وقررت أن أتوجه بخطى سريعة نحو ميدان رمسيس لا أعرف لماذا، لكن ما إن انحرفت يسارًا في شارع الجمهورية، حتى تلقيت إشارة غامضة من مجهول تدفعني أن أسير في الاتجاه المعاكس. وبالفعل يممتُ وجهي نحو ميدان العتبة، وشرعت في التحرك، قاطعًا شارع الجمهورية بحماس لا أعرف سببه، ومخترقًا الحشود التي تتدفق إلى الشارع بغير حساب.. بهرتني ملامح الآلاف، ورأيتها مترعة بحب الخير والإصرار والعزيمة، كانوا كمن يسيرون نحو شاطئ السعادة التي حرموا منها منذ عقود.

رأيت فتاة جميلة ترنو إلى السماء بأمل، فوقفت أراقبها للحظات.. عبرتْ الشارع بسرعة؛ لتلحق بصديق لها ينتظرها في الجانب الآخر.. سارا متشابكي الأيدي، تكتسي ملامحهما بالحبور والانشراح. ذابا في غابة البشر عند أول شارع ٢٦ يوليو؛ فالتفتُّ نحو اليسار لأواصل مسيرتي.

لمحت رجلًا غريبًا يقف بهدوء في زاوية قصيّة.. وددتُ لو منحني هذا الرجل فرصة لأتحدث إليه، كان بسيطًا على الرغم من أنه مزود بعينيّ نمر سومطري، يشع منهما بريق جريء ومغامر. كان يقف أمام محل لعب أطفال ينتظر شيئًا ما. وقفت بالقرب منه أنتهز الفرصة لأملأ وجداني بملامحه العجيبة، أطلق هاتفي رنينه مرة أخرى، فكان عماد عزوز، فلم أرد. ثم تلاه اتصال آخر من فادي نجيب، فتذكرتُ رسالته المشبوبة، وتحسست جيب الجاكت لأتأكد من وجودها.

عند مدخل شارع الألفي، لمحتُ موكب الفراشات الملونة قادمًا من عمق الشارع، فارتج قلبي وتزلزل كياني.. اختبأت خلف كشك صغير يحتل الناصية اليمنى. لمحت فتاتي من بعيد تتأبط ذراع أدهم الشاذلي، ويتحركان في اتجاه مقر الجريدة. تفتت فؤادي وانكوى بلهيب الغيرة.. وجدتني أقاوم شعورًا بالوضاعة، مثل ذكر ماعز مهزوم.. رأيتهما يضحكان.. يتحدثان.. ينفعلان.. يسرعان.. فيما تزفهما الفراشات الملونة بحبور ورضا!

* * *

23 | مع أمـــي

الحادث المؤسف الذي تعرضت له أمي دفعت شقيقتي رسمية إلى أن تترك ابنيها وزوجها بالإسكندرية، وتهرول إلى القاهرة في أول قطار.. بينما اكتفى أخي جمال بأن تمنى لها أن تسترد صحتها في أقرب فرصة، وهو يصر على المغادرة فورًا إلى الكويت، عصر 25 يناير، مع اندلاع الشرارة الأولى للثورة.

أذكر جيدًا كيف سقطت والدتي على الأرض؟ وكيف شطر ارتطامها بالمنضدة قلبي نصفين؟ وكيف غابت عن الوعي للحظات، ظننتني خلالها أنني ابن آخر وأنها أم أخرى، حين رأيت الدم يسيل من أنفها وفمها؟ آنذاك كنت أسبح في بحر الرسالة الثانية التي أكتبها إلى نشوى فوزي. صحيح أنني لم أُنْهِ رسالتي الأولى، ولم أسلمها لها، فمازالت كما هي على سطح المكتب في اللاب توب.. لكنني كنت مشحونًا في ذلك الصباح برغبة جارفة في أن أضع أمامها، ملخصًا لما حدث بيننا منذ أن تأملنا معًا صور الحيوانات والطيور المعلقة في غرفة مكتبي، مؤكدًا لها أن ما يجمعنا أكبر وأمتن مما يربطها بأدهم الشاذلي، وأن تقاسمنا محبة الهدهد تحديدًا يكفي لزرع بساتين الغرام في قلبينا إلى ما لا نهاية.. كنت أتعارك مع اللغة ومفرداتها لأنتقي أجمل العبارات، وكنت أحارب القواميس لأستخرج أرق المعاني، وكنت أغوص في نهر الكلام لأصطاد أعذب الصياغات. لا أدري مدى نجاحي في هذه المغامرات

اللغوية، وإن كان شعورًا بالرضا قد غمرني، فتعجبت لماذا لم أحاول أن أمارس الصحافة، أو أن أقرض الشعر وأغزل القصص، أو أحيك الروايات؟

تكومتُ في غرفتي فوق السرير، أفكر في جملة موحية تشرح لها ما وراء دلالة الغرام بالهدهد، وموضحًا لها فحوى النبوءة، التي كانت ترددها جدتي «مآثر» قديمًا من أنه (إذا اجتمع رجل وامرأة على عشق الهدهد، فإن أزهار البهجة ستزدهر في صدريهما، وسيعيشان في رغد كل نهار، ويبيتان في مسرّة كل ليلة، ويُبعثان يوم القيامة معًا)! كنت أحدّق في صورة الهدهد، وأنا أحاول صياغة هذه النبوءة، حتى تناهى إلى سمعي صوت ارتطام عظيم بالأرض، ممزوجًا بصرخة تمزق الأحشاء!

هُرِعتُ نحو الصالة.. رأيت أمي غارقة في دمها، وتنظر إليّ باستغاثة.. الصدمة شلّت عقلي للحظات، ولكن الدم السائل أعادني إلى عقلي، فانحنيت لأرفع أمي، وأنا أصرخ مناديًا أم السيد. قالت والدتي بصوت موجوع:

- إنها في السوق تبتاع الخضروات.

لا أعرف كيف واتتني القوة لأحمل أمي وأضعها فوق سريرها، ولا أذكر متى جاء الطبيب ولا من الذي استدعاه، ولا أعلم من أخبر شقيقتي رسمية بالواقعة، التي كسرت ساق والدتي، فرأيناها تجثو وتبكي على صدرها، ولا أدري منذ متى بالضبط تثابر خالتي تريزا وزوجها عم خليل على القيام بالواجب، ومعاودة المريضة يوميًّا، غير آبهين بالوهن البادي على صحتيهما! كل ما أعيه أن الحادث المفجع زلزل كياننا قبل اندلاع الثورة بثلاثة أيام فقط، وأن أول ما خطر ببال أمي وهي ما زالت مخضّبة بدمها هو ألا نخبر أخي جمال بما حدث لها؛ حتى لا نفسد عليه وزوجه رحلتهما السياحية في الأقصر وأسوان. كما أتذكر أن عماد عزوز وعمر عبد الفتاح وفادي نجيب ومحمود

أبو ماضي وحنان المرشدي جاءوا إلى زيارتها والاطمئنان على صحتها، فور علمهم بالمصيبة.. الكل غدا حريصًا على القيام بالواجب وإتمام الزيارة، حاملين هدايا صغيرة وقيمة، تليق بوالدتي عند دخولهم إليها. وقد قال زياد أبو سريع وهو يقاوم عبرتين: (إنها أمنا جميعًا.. فليشفها الله).

أما حنان المرشدي، فأضحت مثالًا للرقة والشهامة والإنسانية في التعاطي مع هذا المصاب المباغت؛ إذ أنبأت الجميع بما حدث، حين اتصلت بي واكتشفت من نبرة صوتي حجم الحزن الذي يسري في أوصالي، فأصرّت على معرفة الحقيقة، ثم واظبت على الحضور لزيارة أمي يوميًّا، والجلوس معها ساعة أو بعض ساعة، علاوة على تطوعها لمساعدة أم السيد في إنهاء بعض الأعمال المنزلية. وفي كل مرة، كانت أمي تستقبلها بترحاب ومودة، وتودعها بدعوات معطرة بالشكر والامتنان على تعبها. وبعد انتهاء إحدى هذه الزيارات، فوجئت بوالدتي تستدعيني، لتخبرني بصوت واهن يخالطه حسم كبير:

– معتز يا بني.. لن تجد أفضل من حنان تقترن بها، فتوكل على الله!

أمام وقع المفاجأة، لم تسعفني سرعة البديهة كي أعلق؛ قبل أن تستدرك أمي بنصيحة ممزوجة بنبرة رجاء وتسليم:

– والله.. هذه الفتاة تحبك، وتتمناك زوجًا لها، وأنا لن أعيش لك إلى الأبد!

أعرف يا أمي أعرف، لكن ما الحيلة وللقلب قوانينه التي لا ندركها، فأنا مفتون بابنة عمتها منذ جمعنا معًا عشق الطيور والحيوانات.. صحيح أن نشوى فوزي لم تعِ بعد أحوال العشاق وسلوك المحبين؛ حيث منحت فواكه

أنوثتها باستعجال لصديق حميم، لن يعرف كيف يتذوقها ويتفاعل معها، وينفعل بها، لكنني أراهن على ذكائها، وعلى نبوءة جدتي «مآثر» الخاصة بعشق الهدهد. نعم.. يا أمي فأنا ونشوى من المفتونين بالهدهد، ولكل منا وجهة نظر في تاجه الجميل، ولكل منا حلم قديم، يتجلى في الرغبة اللحوح بلمس هدهد وتقبيله. أما حنان، فلا تربطها بالطيور والحيوانات علاقة محبة، ولا يعنيها أمر الهدهد في شيء، ولا تلتفت إلى السحر المنبثق من تاجه الخرافي.

لا تقولي لي من فضلك يا أمي إن نشوى قد اختارت، وأن الحب مثل الزواج (قسمة ونصيب)، ولا تحاولي أن تحرميني من لذة الصيد، أجل يا أمي.. الحب بين البشر مثل الصيد في عالم الحيوانات؛ فكل حيوان أو طائر على هذه الأرض يكافح يوميًّا ليصطاد وجبات طعامه، يتعرض للإخفاق كثيرًا، لكنه يكافأ بالنجاح في آخر الأمر على قدر اجتهاده ودأبه وذكائه، فيأكل ويملأ معدته ويطفئ نيران جوعه. كذلك الحب يا أمي، على الرجل أن يصطاد فتاته من بين العشرات، وربما المئات اللاتي يقابلهن في حياته، ويشتبك معهن في معاملات يومية، فإذا أفلح في اصطياد ما يهفو إليها قلبه، فقد ضمن بذلك راحة البال والحبور الدائم.

وقد وضع الله نشوى فوزي في طريقي؛ ليمتحن قدراتي على ممارسة فن الصيد، وما ارتباطها بأدهم إلا ليزيد امتحانه صعوبة ومشقة، ويستنفر داخلي كل مَلَكَات الصيد ومهاراته؛ لأنتزعها من بين أنياب شاب لا يقدّر عظمتها ولا رقتها. هل تعلمين يا أمي أنها الفتاة الوحيدة في هذا الكون، التي خصص لها الله ثلاث فراشات رائعة التكوين والتلوين لتصطحبها أينما راحت أو غدت؟ هل من تكريم أهم وأفضل وأجمل من ذلك؟ أرجو ألا

تظنين يا أمي أنني بكلامي هذا أهين المرأة، وأعدّها مجرد فريسة يتصارع على اصطيادها كوكبة من الرجال الجوعى؟ الأمر مختلف تمامًا، بل أرى أن الكفاح من أجل الحصول على الحبيبة المرجوّة، سمّه اصطيادًا إن شئت الدقة، هو أكبر تبجيل للمرأة، فهي كائن جميل وعزيز، يسكن في الفضاء مع القمر والنجوم، ولا ينبغي أن يطاله الرجل دون نضال ومكابدة؛ لذا فالصيد هنا أعتبره حفاوة بالمرأة لا إهانة لها، ذلك أن..

- معتز.. أين أنت؟ ردّ على والدتك!

سحبني الصوت الحاد الذي أطلقته حنجرة رسمية من فضاء الخيال، ومحاولات التحليل إلى أرض الواقع والمرض والاقتراحات المزعجة والحوادث المدلهمة.. قلتُ بحياد:

- الحب (قسمة ونصيب).. أقصد الزواج (قسمة ونصيب)!

فهتفت رسمية على الفور، لتمارس هوايتها المفضلة:

- إنها عروس مناسبة جدًّا، فهي لطيفة وذكية وخبيرة بالشئون المنزلية!

لكن مفاجآت هذا النهار لم تنتهِ بعد، إذ في تمام الساعة الخامسة عصرًا سمعت طرقًا خفيفًا على الباب. حينئذ كنت أجلس وحيدًا في الصالة، أتابع على قناة ناشيونال جيوجرافي وقائع معركة شرسة بين قبيلة من الأسود اليافعة، تحاول اصطياد ذكر فرس النهر، وهو يرعى خارج بركته المائية.. كانت الأسود قليلة الخبرة في التعامل مع ألفي كيلو جرام من اللحم مزوّد بفكين مخيفين.. ظلت تلف وتدور حول الفريسة تارة، وتقفز فوقها تارة أخرى، دون أن تحقق نجاحًا يذكر في السيطرة عليها أو طرحها أرضًا. وكان فرس النهر، بارد الملامح، يقاوم هذه القبيلة المحرومة من مهارات الصيد

الحقيقية بقلب ثابت وعزيمة لا تلين. وفجأة، ونظرًا لفوضى الأسود المراهقة، قليلة الخبرة، تمكّن فرس النهر من القبض بفمه على رأس لبؤة سيئة الحظ، وراح يضغط بفكيه العظيمين وأسنانه الخرافية على رأس اللبؤة، وهو يدفعها يمينًا ويسارًا حتى كاد يشطرها نصفين! الهجوم المباغت الذي شنّه الحيوان المكدّس باللحم أربك الأسود وأخافها، فعجزت عن التصرف، وخفّت قبضتها على جسده، فترك اللبؤة تدمي وتبكي ألمًا، وركض نحو بركته المائية مستمتعًا بالنجاة.. كنت مذهولًا مما أشاهد، فلما سمعت الطرق على الباب، ذهبت لأفتحه بنصف تركيز، ولكن ما إن فتح الباب عدة سنتيمترات حتى نفذت منه الفراشات الثلاث الملونة؛ لأجدني وجهًا لوجه مع نشوى فوزي وأدهم الشاذلي، وقد حضرا بصحبة حنان المرشدي.

لم تستمر الزيارة سوى أقل من عشر دقائق، حيث قدمت نشوى فوزي خلالها باقة زهور لأمي، بعد أن قبلتها في وجنتيها، في حين اكتفى أدهم الشاذلي بطبع قبلتين فوق جبينها الوضاح، متمنيًا لها سرعة الشفاء، وهو يقول باسمًا:

- هيا يا والدتي.. شدي حيلك لتستردي عافيتك، وتباركي لنا خطواتنا!

المدة القصيرة التي استغرقتها الزيارة لم تمنحني فرصة لاستيعاب أسبابها ودلالاتها، وما دار فيها من كلمات قصيرة تخللتها، فمازلت مشحونًا بمعركة الأسود الخاسرة مع فرس النهر المحظوظ، ومأخوذًا بقدرة فرس وحيد على مجابهة قبيلة من الأسود يمزقها جوع كافر. فلما هلّت الفراشات على غير انتظار، اعتراني تشويش فكري لا نظير له، فوجدتني عاجزًا عن فعل أي شيء، وكأن أدهم ليس غريمي الذي أكن له حقدًا باتساع الكون، وكأن

نشوى ليست فاتنتي، التي ينصهر قلبي هيامًا بها، وكأن حنان ليست زميلتي التي شغفتُها حبًّا دون إرادتي، وكأن أمي ليست أمي، التي انكسر ساقها في لحظة بائسة، فوضعت في الجبس ولزمت الفراش مجبرة!

(ألف سلامة على السيدة الوالدة).. هذه هي الجملة الوحيدة التي نطق بها أدهم وهو يصافحني بوجه جهم، وكررتها نشوى فوزي، وهي تصافحني أيضًا بحذر. أما حنان المرشدي، فقد اصطحبتها إلى غرفة أمي، بعد أن زالت حُجُب الحياء، وصارت تتعامل وكأنها صاحبة المنزل، وهو أمر لم يزعج أمي أو شقيقتي على الإطلاق، بل كانا يشجعانها على التحرك بحرية بين الغرف وفي المطبخ!

بعد انصراف أدهم ونشوى بدقيقتين تقريبًا، استرددتُ عافيتي العقلية، فهرولت وراءهما لأعرف أين سيذهبان.. قفزت درجات السلم بسرعة الصاروخ.. خرجت من باب العمارة لأتلقى نسمات باردة ممزوجة بروائح غريبة، كأن براكين غل تغلي في صدري، وصور موجعة تتلاطم على سطح ذاكرتي. الزحام المهول في شارع الحجاز أصابني بضيق وكدر. وقفت حائرًا عن توقع الطريق التي سلكاها، ومع ذلك قررتُ أن أتحرك في اتجاه المحكمة.. لاحظت أن الشمس كادت تخسر آخر معاركها في مواجهة غزو جحافل الليل الزاحفة بقوة، وأن الهموم القاتمة تكسو وجوه كل السائرين في الشارع.

بحثت عن أدهم ونشوى، فلم أجد لهما أثرًا.. لفت انتباهي ضابط برتبة عميد يقف أمام سيارة شرطة، تحتل نصف عرض الطريق أمام مبنى المحكمة، كرشه ممتد أمامه في تحد واضح لكل مقاييس وتعليمات الرشاقة. يتدلى من عنقه لُغد متين ومقزز.. وقفت في الجانب الآخر من الطريق لأتأمله، فهالتني درجة الشبه بينه وبين فرس النهر، الذي نجا من قبيلة الأسود قبل دقائق،

فضحكت. رنّ هاتفي، فكانت حنان المرشدي، فتذكرت أنها لم تغادر منزلنا مع أدهم ونشوى.. هممتُ بالرد عليها، لكنني تراجعت حين انخلع فؤادي فجأة مما حدث أمامي. لقد جرجر أمين شرطة رجلًا كهلًا، وذهب به نحو العميد، الذي بادر بصفع الرجل على وجهه على الفور، وهو يكيل له أقذع الشتائم وأفحشها! لم يستغرق المشهد سوى ثوان معدودات، وبعدها وضع زبانية العميد الرجل المسكين في سيارة الشرطة الرابضة على الناصية!

لم أعرف ماذا فعل المسكين ليتلقى كل هذه الإهانات، لعله سائق التاكسي الذي وقف أمام سيارة الشرطة قبل قليل، وأنه لا يحمل رخصة قيادة أو لم يجددها.. أو أنه قد تطاول على أمين الشرطة بلفظ خارج، وقد يكون متهمًا هاربًا في قضية ما، ولكن المؤكد أن صفعة من كف فرس نهر كافية لتهشيم أسنانه وإسقاط كرامته أمام الملأ!

قررتُ العودة إلى البيت بعد الاتصال الثاني من حنان المرشدي.. كنت ممتلئًا بسُخط شديد لأنني لم أدرك أدهم ونشوى. كما أنني عنّفتُ نفسي؛ لكوني لم أستطع أن أفعل شيئًا لرجل يصفع في الشارع العام، حتى لو أن من تجرّأ وأقدم على فعلته بفظاظة ضابط شرطة كبير ذو كرش أكبر! في طريق عودتي مرّ شريط الزيارة المفاجئة سريعًا، فأوقفتني عبارةِ أدهم لوالدتي (شدّي حيلك لتستردي عافيتك وتباركي لنا خطواتنا). ترى ماذا يقصد هذا الوقح سارق البنات؟ هل قرر أن يتزوج نشوى، ويريد أن يدعو أمي لحضور حفل الزفاف؟ مصيبة لم تدر بخَلَدي قط!

لعنته في سريرتي، وأنا مشحون بغضب متنام.. عدتُ إلى البيت. استقبلتني حنان المرشدي بابتسامة مشرقة، وهي تقول بمكّر أنثوي لم تستطع إخفاءه:

- أظنك لم تلحق بهما!

لا يوجد أسوأ من أن يكون جهازك النفسي مكشوفًا هكذا أمام شخص آخر؛ خاصة إذا كان هذا الشخص فتاة تهيم بك، وأنت عنها شارد ومتعفف! لم يكن مفر من الكذب، وأنا مدرك تمامًا أنها تعرف أنني أكذب، لذا قلت بأداء من يريد أن يطوي هذه الصفحة:

- كنت أريد شراء مجلة العربي، ولم أجدها!

ابتسمت حنان ولم تعلق، واستجابت لرغبتي في طي الصفحة المؤلمة بأن همست:

- ستتناول غداءنا معًا.. لقد قمت بإعداده بنفسي في مطبخكم العامر.

كلما نما وازدهر في فؤادك شجر الولع بي، انطفأت في قلبي زهور الاهتمام بكِ يا ابنة رئيس التحرير! فارحمي نفسك ودعيني مع طيوري وحيواناتي ونشواي! فأنا لست قادرًا على رؤية آيات الأنوثة في جسدك النحيل المكوّم، داخل ملابس فضفاضة، لا تكشف ولا تحض على البحث عن الجمال!

- لقد صنعت لك دجاجًا في الفرن ومكرونة سباجيتي.. خالتي مَنْ أخبرتني أنك تفضلها!

قالت ذلك، وهي تشير إلى الغرفة التي ترقد فيها والدتي. حسنًا.. لقد صارت أمي خالتك هكذا بكل بساطة يا ابنة رئيس التحرير. وقد يأتي يوم قريب، أجدني مجبرًا فيه على الزواج منك إرضاءً لخالتك.. هذا ما تخططين له فيما يبدو، ولو علم فادي نجيب بأنك تطبخين لي دجاجًا في الفرن، لاشتعل رأسه شيبًا من شدة الغم، وهو لم يكمل الثلاثين بعد!

- لماذا لا ترد عليّ؟

بصوت حاد ونبرة حاسمة سألتني حنان المرشدي، فأردفت مسرعًا:

- أبدًا.. أبدًا.. أشكرك.. هيا نأكل!

دون تفكير، وجدتني أدخل غرفتي مسرعًا، وأُخرج من جيب الجاكت رسالة فادي نجيب الملتاعة إلى حنان، وأدسّها بين الصور والأوراق داخل درج مكتبي؛ خشية أن تطلع عليها بالمصادفة. وحين عدتُ إلى الصالة، كانت حنان قد أعدت لنا مائدة عامرة، ولم تنسَ أن توزع الزهور، التي تكدست في منزلنا بعد إصابة أمي، في أماكن مختلفة في الصالة، وفوق المائدة.

كعادتي دومًا، تحرجني شهيتي المتواضعة في الحفاوة بالطعام، فلم أتناول إلا القليل مما أعدته حنان؛ الأمر الذي استفز الجانب (المطبخي) في شخصيتها، فسألتني بارتباك:

- لماذا لا تأكل.. ألم يعجبك ما صنعته؟

بسرعة قلتُ لها محاولًا ترضيتها:

- على العكس.. إنه شهي ولذيذ، ولكنني لا أتناول الكثير عادة!

المفارقة العجيبة أن أكثر شيء تفضله أمي وشقيقتي رسمية في حنان المرشدي يتمثل في كونها تحرص دومًا على القيام بغسل الصحون بعد تناول الطعام، حيث ما فتئت أمي تقول: (هذه فتاة تملك من رقة الإحساس الكثير)، كلما علمت أنها تصر على فعل ذلك، حتى في وجود أم السيد!

حين كانت حنان تستعد للمغادرة، انحنت لتأخذ حقيبة يدها من فوق الكنبة، التي شهدت تحول أبي إلى أسد كهل، فتأملتُ ردفيها باهتمام لأول مرة. لم تفصح الملابس الفضفاضة عن كنوز الأنثى الجسدية، ولكن خيالي الملعون تحمّس ورسم لي تصورًا عامًّا لشكل المؤخرة والردفين، فاقتحمني، لأول مرة تجاهها، تيار شهوة لاهب ومندفع، فارتجفت، ونهضت متوجهًا

نحو غرفتي مؤثرًا السلامة، ولاعنًا الزمن الشحيح، الذي يحرمني معانقة من أروم وأهوى!

بعد لحظات، كانت حنان المرشدي تطرق باب غرفتي برفق، لتسألني بعد أن فتحت لها:

- هل ستخرج معنا غدًا؟

لم أفهم ماذا تعني، فسألتها جادًّا:

- أخرج مع مَنْ؟ وإلى أين؟

قالت بمكر وجدية:

- سنحتفل بعيد الشرطة على طريقتنا!

ثم استطردت متعجبة:

- ألا تتابع الحوارات والاقتراحات بين الشباب على الفيس بوك؟

ابتسمت، وقلتُ لها معتذرًا:

- لا أظن، سأبقى مع والدتي رهين المنزل.

تذكرتُ أن هناك دعوات من بعض الشباب على الفيس بوك؛ خاصة «جماعة ٦ أبريل» وحركة «كفاية» وروّاد صفحة (كلنا خالد سعيد)؛ للتظاهر غدًا احتجاجًا على بطش الشرطة وجبروتها. لم أهتم لأنني لست متحمسًا لمثل هذه الأنشطة السياسية، التي لن تجدي نفعًا كما يقول بحق زياد أبو سريع. بعد انصراف حنان المرشدي مباشرة رنّ هاتفي المحمول.. كان الدكتور مصطفى غيث زوج أختي رسمية يسأل عنها؛ لأنها لا تجيب على اتصاله. أخبرته أنها نائمة، فطلب مني أن أعلمها أنه سيأتي غدًا إلى القاهرة، ولم ينسَ أن يستفسر عن صحة والدتي، داعيًا لها بالشفاء العاجل!

حتى هذه اللحظة، لا أعرف ما الذي دفعني لأن ألقي نظرة على والدتي في غرفتها، لأرى العجب العجاب، قبل أن أحصل على نصيبي من غفوة لذيذة، كنت في أمس الحاجة إليها؛ ذلك أنني حين توجّهتُ على مهل نحو غرفة والدتي، كانت شقتنا تقبع في سكون غريب، فشقيقتي رسمية تستسلم لسلطان النوم بعد العصر كعادتها في حجرتها القديمة، وأم السيد في زيارة لابنتها المريضة منذ الصباح، والصمت له ألف جناح في هذا الوقت. وما إن فتحت باب الغرفة، حتى غرقت في بحر الذهول.. سرب من الفراشات الملونة ترفرف بحيوية وحماس في فضاء غرفة والدتي، التي راحت في غياهب سُبات عميق. وقفت مشدوهًا؛ فالبهجة المزركشة التي تحوم في الغرفة تشبه تمامًا تلك التي تصطحب نشوى فوزي أينما سارت. فهل هجرت حبيبة الفؤاد لترافق أمي المريضة؟ ولكن نصيب نشوى من السعادة الطائرة حولها لا يتجاوز الثلاث فراشات، في حين أن والدتي تحظى بسرب كامل عجزت عن حصره وإحصائه.. رنوتُ إلى هذه اللوحة التي تتخلق أمامي بإعجاب.. فجأة وجدتني غير قادر على مقاومة الرغبة في النوم بجوار أمي، وهو ما فعلته في التو؛ حيث تمددت بجانبها، مسددًا بصري نحو الأعلى؛ وأخذت أحدق بفرح في السرب الجميل، الذي ينثر ألوانه الباذخة في أرجاء الحجرة!

* * *

24 | في غابات الأمازون الممطرة

آخر مرة رأيت فيها فادي نجيب كان صباح يوم جمعة الغضب، أثناء اندلاع الثورة؛ فقد مرّ على منزلي بصحبة زياد أبو سريع. لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحًا آنذاك.. كنت قد تأقلمت مع مكوثي في البيت بصحبة اللاتوب، بعد أن تقدمت إلى إدارة الجريدة بطلب إجازة لمدة أسبوعين. كان قلبي ينطوي على حزن كبير؛ ففقدت الرغبة في رؤية أي أحد، حتى نشوى فوزي بفراشاتها الساحرة، صارت تمثل لي عبئًا نفسيًّا ليس له علاج؛ فهي لم تكن تدري بكل أسف حجم الكارثة الغرامية، التي تثيرها منذ أن بهرتها الحيوانات والطيور، التي تتألق فوق جدران غرفة مكتبي. كما أنها لم تكن تعلم كيف زرعت حنظل الغيرة في صدري، منذ أن التقت بأدهم الشاذلي في يوم أسود داخل الغرفة نفسها. حتى الهدهد الجميل الذي عشقناه معًا، ما كان يرضيه هذا الصد المستمر من قبل فتاة مدججة بكل أسلحة الأنوثة الفتاكة.. أجل.. عليّ الاعتراف بأنها قادرة على هلاكي من أول همسة، أو من أول نظرة إعجاب بتاج الهدهد.

واليوم حين نهضت فجأة من سريري في الرابعة فجرًا، مبللًا بعرق غزير، اعتراني اكتئاب جليل ممتزج بحبور غامض، فقد رأيت نشوى فوزي تسير بصحبتي في غابات الأمازون المطرة.. لا أذكر كيف وصلنا إليها، ولكنني أذكر جيدًا أنني أخبرتها أن زيارة واحدة إلى غابات الأمازون؛ ستجعلك

تؤمنين بوجود الله الواحد الأحد، وأن الجنة الموعودة التي يحلم بورودها كل المؤمنين في العالم قد تجسدت هناك في البرازيل؛ حيث شيّدت إرادة الله الجبارة غابات الأمازون الممطرة، حتى يرى الناس المعجزات الإلهية في أبهى صورها.

قبل اجتيازنا مدخل الغابة، اكتشفت أن الفراشات الثلاث التي تصطحب نشوى فوزي قد زاد نشاطها بشكل ملحوظ، فهي تحوم وتدور وترفرف بطريقة أكثر فتنة وجمالًا، كما أن ألوانها البهيجة تزداد تألقًا، كلما توغلنا أكثر في عمق الغابات.. كدت أخبرها أنني تركت بقية عائلة هذه الفراشات، ترفرف في حجرة أمي وتؤنسها في رقادها المرير، ولكنني تراجعت. تلقينا نفحات من روائح عشب طازج غارق في ندى أبيض ومضيء، فامتلأ صدرانا بنشوة باذخة. كانت نشوى فوزي مذهولة مما تراه وتشمه وتسمعه، بيد أني أشعر أنني تجولت في هذه الغابات من قبل، لا شيء غريب عني، فلما سألتني رفيقتي عن سر هذا الضباب الكثيف قلت لها مستعرضًا خبراتي بغابات الأمازون: (إن 43٪ من الأوكسجين في العالم ينبع من هذه الغابات نهارًا خلال عمليات التمثيل الكلوروفيل)، فلما أبدت دهشتها، وهي تتأمل مجموعة أشجار ضخمة ذات ارتفاع شاهق، أكملت معتدًا بمشاهداتي وقراءاتي عن هذه الجنة الآسرة: (هناك شاعر برازيلي يقول: إذا أردت علاج أمراض التنفس، تجول في الأمازون).

لمحت حيوان الكسلان يخرج من جدول صغير بالقرب مني، فأشرت إليها بسرعة كي تتأمله. حركته البطيئة خارج الماء تستفزني بشدة، وبلادته في التعامل مع ما حوله تثير حفيظتي، ومع ذلك لا أمل من معاينة وجهه الغريب.. كانت له ملامح طفل حزين هجرته أمه، يتلفت حوله بكسل

مقرون بذعر مشروع، فاللئام في الغابة بغير حصر، والمتربصون في الأرض والسماء بغير عدد، وهو مسكين وضئيل الحجم. تسلق أقرب شجرة فور خروجه من جنته المائية، وراح يتناول وجبته من أوراقها وحشراتها بكسله التاريخي.. قالت لي نشوى، وهي تتأمله بذهول: إن له تصميماً تشريحيًّا بالغ الغرابة. حركت رأسي بالموافقة، وأضفت: أطرافه طويلة ورأسه صغير جدًّا، وقبل أن أكمل وقعت الكارثة أمامنا فارتعبنا، وغشينا حزن جليل؛ ذلك أن نسرًا غليظ القلب مرق فوقنا كالسهم وخطف الكسلان بسرعة خارقة، وصعد به نحو السماء.. اختفى الكسلان من أمامنا تاركًا شجرته الجديدة تبكي رحيله المفاجئ، وزارعًا في قلبينا نخيل حزن عظيم، لازمنا فترة في رحلتنا التاريخية.

ضحكت نشوى بشدة حين لاحظت قردًا أحمر اللون يفلّي أنثاه برفق، ثم يرمقنا من فوق شجرته، وهو يقذف وجهينا بابتسامة ساحرة. تعجبت نشوى وسألتني: هل تفرح القرود مثلنا وتبتسم؟ انتابني شعور بالتيه والزهو لأنها أيقنت أخيرًا أنني، وأنني فقط، من يلبي أشواقها نحو المعرفة. هززتُ رأسي بالإيجاب، وأنا أهتف: القرود، والحيوانات والطيور، جميعها بشكل عام، مزوّدة بشبكة معقدة جدًّا من الأحاسيس المتنوعة، ومتخمة بعواطف متعددة وجياشة، فهي تحزن وتفرح، تحنو وتقسو.. تختصم وتتصالح.. تعاقب وتسامح.

لقد كانت جدتي «مآثر» تقول عن حق: (ينبغي أن يكون البشر فخورين بانتمائهم إلى مملكة الحيوان).. ليتك تقرأين كتاب (العدالة في عالم الحيوان)؛ لتتأكدي مما أقول.. باختصار يا نشوى.. الحيوانات والطيور ممالك مثلنا، كما يقول القرآن الكريم الذي تعاندين نفسك وترفضين الإيمان به. قهقهت

نشوى فوزي، وهي تتكئ على جذع شجرة قصيرة ذات أوراق خضراء ومرصّعة بأخرى حمراء. ثم قالت بصوت واثق وأداء حاسم: وهل قرآنكم هو فقط من اكتشف هذه الخصال، التي تسري في دماء الحيوانات؟ راجع يا معتز كتابات المصريين القدماء ومنجزات علمائهم، الذين بهروا العالم بقدرتهم المذهلة على التحنيط، وذلك على سبيل المثال لا أكثر، ثم تقدمت نحوي حتى اختلطت أنفاسها برائحة أوراق الشجرة التي تستند إليها، وهتفت: ينبغي أن تعرف يا معتز أن الناس قبل الإسلام كانوا يمتلكون المعارف والعلوم المتنوعة، ولك في الحضارة المصرية القديمة أسوة حسنة، وهي كائنة ومدهشة قبل أن يظهر النبي محمد بآلاف السنين!

المشكلة تكمن في أن المسلمين، من فرط غرورهم، يعتقدون أن الحياة بدأت حين ظهر الرسول قبل 1400 سنة فقط، وأن البشرية قبله كانت غارقة في ظلام دامس، لا تعرف عن أمور السماء شيئًا، حتى جاء محمد فنقل خبر السماء إلى الأرض. وهذا غير صحيح بالمرة؛ فحضارات مصر واليونان والرومان والصينيين والسومريين والآشوريين قدمت للبشرية منافع بغير حصر، قبل أن يلوح في الأفق هؤلاء، الذين زعموا أنهم فقط من يعلمون أمور السماء، وأن الله الذي اخترعوه، اصطفاهم هم فقط لينقلوا إلى الناس تعاليمه وأوامره.. أخباره وصفاته، فأخافونا وهددونا بناره وجبروته.. وأغرونا وطمّعونا بجنته وفردوسه.. ثم لك أن تدرك يا معتز أن عدد سكان الأرض يقترب من سبعة مليارات نسمة، نصفهم لا يؤمنون بأي دين، فكيف يمكن أن.. عند هذه العبارة الأخيرة أصبحتُ على شفا حفرة من الشهوة، فقد صارت نشوى تتحدث بانفعال، وكلما نضج انفعالها على نار الفكر، اقتربت مني أكثر حتى لمسني جسدها أو كاد. وكان أريجها الفوّاح الممزوج

بروائح غابة ممطرة يفتت أعصابي، فَمِلتُ بوجهي نحو وجهها، باحثًا بشفتي عن شفتيها، وأنا مغمض العينين.. استقبلت فمي بترحاب ومودة، وكافأته بسخاء ومحبة، فأشعلت حرارة القبلة بيننا أحراش الغابة بنيران عشق مجنون ومستحيل.

سمعنا صوت خرير مياه مقبلًا من الجهة اليسرى.. سألتني نشوى إن كان من الممكن أن نتوجه نحو الماء، عسى أن نرى جدولًا رقيقًا نستريح عنده بعض الوقت. كنا نسير متشابكي الأيدي، فبعد أن أضاءت قبلتنا ظلمة الغابة، باتت نشوى فوزي تلتصق بي، ولا تعترض على محاولاتي الخبيثة لملامسة جسدها ونحن سائران، حيث لا توجد لذة تضاهي لذة لمس النساء، كما يقول زياد أبو سريع. وقفتُ فجأة وأنا أرتجف بعد أن مُلئت روحي رعبًا؛ فقد انبثق من خلف أكمة قريبة ثعبان الأصلة السام ليقطع طريقنا، ويغوص كشريط زئبق ليّن في سجادة العشب، التي افترشت أرض الغابة نحو اليمين. نشوى التي تحجل وتقفز بجواري رافعة يديها في الهواء بهجة وحبورًا لم تنتبه أول الأمر إلى الخطر الزاحف بقربنا، فلما سكتَ عني السرور بغتة، اكتشفت المرور المميت للأصلة، فندّت عنها صرخة مكتومة، وألقت بجسدها في حضني؛ محاولة الاختباء من القاتل المحترف وسمومه.

باختفاء الأصلة رُدّت الروح إلينا، فتخلصت نشوى من دفء صدري بتردد؛ إذ لاحظت تباطؤها في الابتعاد عني حين أخبرتها أن الأصلة عادت إلى وكرها. ومع ذلك ظلت نشوى تقبض على يديّ بقوة طوال تجوالنا فيما بعد. فلما رأينا قبائل الببغاوات ذات الألوان المبهجة، أفلتت يدي وركضت نحو الشجرة، التي بنت هذه القبائل أعشاشها فوق أغصانها.. المذهل أن نشوى حاولت أن ترصد درجات الألوان، التي تزدان بها هذه الببغاوات، فراحت تصيح: (أحمر.. أخضر .. أزرق.. أصفر.. بنفسجي.. يا إلهي.. كل

هذه الألوان البديعة في ببغاء واحد؟). لم أشأ أن أعلق على نداداتها (يا إلهي)، وقلت لنفسي باطمئنان: إنها سترسو آخر الأمر على شاطئ الإيمان لا ريب. شاهدنا الجدول الصغير أمامنا، بعد أن تجاوزنا قبيلة الببغاوات المزركشة.. جلسنا على حافته، وبحركة عفوية خلعت نشوى فوزي حذاءها الرياضي الأزرق، وتركت قدميها تتدليان في الماء الذي ينهمر بقوة.

كانت طيور سعادة لا نهائية ترفرف في صدرها، وهي تداعب المياه بقدميها. فعلت مثلها، ثم أحطتها بذراعي، ورحنا في قبلة طويلة ساخنة، لم تعرف لها الغابة الممطرة شبيهًا من قبل. فلما نشف ريقنا انفصلت شفتانا بصعوبة بالغة، ونحن نلهث من فرط السخونة وشدة الولع.. بعد ذلك مباشرة سمعت نشوى تدندن:

لَم أدرِ مَا طِيبُ العِناقِ عَلَى الهوَى   حَتَّى تَرَفَّقَ سَاعِدِي فَطَوَاكِ

ثم التفتت نحوي سائلة: هل سمعت هذه القصيدة من قبل؟ أجبت بسرعة: إنها لفيروز، فقفزت فوق لساني محتجة وهي تصيح: لا.. إنها لعبد الوهاب أولًا. ثم سرحت في قمم الأشجار التي تتسامق أمامنا، وقالت بهمس: لقد كان أبي من عشاق عبد الوهاب؛ خاصة إذا ترنم بقصائد أمير الشعراء. ثم وضعت رأسها بين كفيها، وهي تقول بنبرة متأسية مشحونة بحسرة كبيرة: لقد أوحشني أبي كثيرًا.. قلت بتلقائية: الله يغفر له ويرحمه. فعلقت: الله يرحمه.

هكذا ضبطتها متلبسة بذكر الله – جلّ شأنه – مرتين في أقل من عشر دقائق.. كيف تزعم إذن أنها ملحدة؟ وهل الإلحاد قناعة فكرية أم ثرثرات لغوية؟ أذكر أن أدهم الشاذلي كان يصر على القول أمامنا ما تردده نشوى: (إن الإلحاد فرضية فلسفية، والإيمان أيضًا فرضية فلسفية، لأنه لا يوجد

إنسان يقدر على إثبات وجود الله من عدمه).. ترددت كثيرًا في أن أبوح لها بهذه الخواطر عن أفكارها الشاذة، التي تطابق أفكار أدهم تقريبًا؛ حتى لا أفسد عليّ متعة الجولة المدهشة في غابات الأمازون، كما أنني توليت تقريع نفسي بشدة؛ لأن شبح أدهم تمكن من اقتحام خاطري، وأنا مشمول بنعمة الجلوس إلى نشوى فوزي!

فجأة.. رأيته يهبط بحركة رشيقة على الشاطئ الآخر للجدول، ومكث غير بعيد.. إنه صديقي الهدهد. تأملنا بهدوء ورضا، ثم قال لي قبل أن يختفي في فضاء الغابة الشاسع: (معتز.. في هذه الدنيا لا يوجد أجمل من الحب). هبّت نشوى مذهولة، وهي تعاين الهدهد أثناء طيرانه، وهتفت: (كيف عرف هذا البيت الشعري؟). لم أفهم، فنهضت لأحاذيها وملامح دهشة كبيرة تتشكل على وجهي، فشرحت ما غَمُض عليّ قائلة: (إن ما قاله الهدهد عبارة عن شطر من بيت شعر لحافظ الشيرازي.. أهم شعراء بلاد فارس.. إيران حاليًّا).

واضح أن علاقتها بالشعر أمتن مما أتخيل.. يا نهار أبيض.. هكذا صرختُ وقلبي يخفق بشدة، إنه يجلس هناك على تبّة مرتفعة. ارتجفت نشوى وسألتني: مابك؟ قلت لها دون أن أرفع عينيّ عن الكائن المهيب، الذي يستوي على عرشه: إن هذا الأسد.. أبي! تأملته بذهول، فمعلوماتي تقول إن غابات الأمازون المطرة لا تستضيف الأسود ولا ترحب بها، كما أن ملك الغابة يفضل الحياة في غابات إفريقيا بصورة رئيسية، فكيف وصل أبي إلى هنا؟ لاحظت أنه تبادل مع نشوى نظرات ابتسام، كما أدهشني أن والدي بُعثَ أسدًا شابًّا عفيًّا، تهتز له جنبات الغابة، مثلما كانت جدارن منزلنا تنكمش من هيبته وعنفوانه حين كان رجلًا متألقًا، بعكس الحالة التي رحل عليها؛ إذ صار أسدًا كهلًا مهدود القوى قليل الحيلة!

بلا مقدمات نهض والدي، والتفت بثقة الملوك يمينًا وشمالًا، غير عابئ بالحيوانات والطيور، التي تتسكع في أرجاء الغابة وفضاءاتها، ولا مهتم بمكابدات ابنه الحائر والحزين. ثم أطلق زئيرًا مخيفًا خلع فؤادي من فرط الرعب، وهبط أسفل التبّة وسار على أربع في اتجاه الشمال، يحرك ذيله بخيلاء. تابعته بقلب يخفق بعنف، وروح ملتاعة حتى اختفى بين أدغال الغابة!

المذهل أنني لم أنشغل قط بكيفية أن يُبعث حيوان، في حين أن ديننا الحنيف يؤكد أن البشر فقط هم من يُبعثون! كما أن نشوى فوزي لم تتعجب من حكاية أبي وتحولاته البيولوجية، عندما أفشيت لها سر الساعات الأخيرة في حياة والدي المسكين؛ إذ تعاملت مع الأمر باعتباره حقيقة طبيعية، ينبغي الانصياع لها؛ لذا حين جلست على العشب يائسًا بعد انصراف أبي معتزًا بذيله، جلست نشوى بجواري، وألقت برأسها في حضني، وهي تغمغم: (ما أجمل عالم الحيوان). شاءت مواساتي بهذه العبارة لا ريب؛ إذ طبعت قبلة ناعمة على خدي وهي تنطق بها.. لكنها انتفضت فجأة حين لمحت أنثى نمر مرقط تتأوه على بعد أمتار قليلة من جلستنا.. ضممتها بقوة، وقلت لها: لا تخافي.. إنها تبحث عن زوج مجهول وتدعوه أن يقترب؛ لأن نيران الغريزة تشتعل في جسدها، ولا يمكن لأنثى أن تخاصم نداء الأمومة.

الانبهار الذي اكتسى وجه نشوى فوزي أضاء روحي بنور الثقة بالنفس إلى الأبد.. لم تتكلم نشوى، ولم تعلق على حديثي عن شبق النمرة، لكن عينيها أباحت بما يجول في خاطرها؛ فآيات الإعجاب بي تزداد من شجرة إلى شجرة، ومن حيوان إلى آخر. فجأة ظهر الزوج المجهول من بين الأدغال مستجيبًا للوعد الأنثوي الجميل، لقد عرف مكان مستودع المتعة من رائحة الشهوة، التي تطلقها النمرة الملتاعة لتغوي حبيبًا بعيدًا عنها. كان ذكر النمر

صاحب السمعة السيئة، على مر العصور، جميلًا قوي البنيان حاد الطباع، ودون مقدمات امتطى الأنثى النمرة وضاجعها فورًا بلا كلمة حب واحدة؛ فالتودد ليس من ثقافة النمر كما يقول العارفون بشئون الجنس عند أشقائنا من الضواري. وحين وصل إلى ذروة النشوة، عضّها في عنقها وهو ينتفض؛ فقاومته بعنف وانفصلا في ثانية!

لم أكن أتخيل لحظة أن أول مرة سأمارس فيها الجنس، في حياتي، ستكون بتحريض مباشر وحاسم من نمر هائج، وهكذا فور أن انصرف الزوج الملهوف، وغابت أنثاه بين الأحراش بعد أن نال كل منهما نصيبه من اللذة.. وجدتني أقترب من نشوى حتى التصقت بها، وقمتُ بفك أزرار قميصها البرتقالي بهدوء. لم تحتج، بل ساعدتني في التخلص من ملابسها كاملة، فنزعتُ عنها البنطال الجينز بسهولة، ثم شرعت في تقبيلي بجنون. على العشب تمددنا عاريين، تباركنا أشجار الغابة السامقة، وتعلونا غيوم ناعمة، وتحفّ بنا طيور تطلق تغريدًا بديعًا يعلو ويحلو ويصفو، كلما نهل كل منا من عذوبة جسد الآخر. أكثر من ساعة قضيناها ونحن في عناق جميل، أقتحمها وأخترقها، فتتأوه وتتلذذ، بعد أن أطلقت كل مدخرات حواء الجنسية بين ذراعي، فكانت تمنحني بسخاء، وتحتضنني بقوة، حتى عزفت كائنات الغابة الممطرة موسيقى الحبور مترافقة مع انتفاضاتنا الجسدية المدهشة، ودون أن أشعر، وجدتني أعضّها في عنقها مع كل زلزلة جسدية، مثلما كان يفعل شقيقي النمر قبل دقائق!

الطرافة التي أسعدتنا، ونحن نرتدي ملابسنا تمثلت في المشهد الآتي: مجموعات متنوعة من القرود والطيور شرعت في الدخول في حلبة الجنس العنيفة والممتعة في وقت واحد، وبشراهة منقطعة النظير، تأثرًا بما كنا نفعله

أنا ونشوى قبل قليل فيما يبدو. ضحكنا آنذاك وتأملنا المشهد الجنوني بمحبة، ثم قلت لنشوى وملء روحي بهجة صافية: (انظري يا حبيبتي.. وتأملي جوهر الحياة وسرّها المكنون).. لم نشأ أن نزعج الأحبة بنظراتنا، فنفسد عليها التمتع بمسرات الجسد؛ لذا تركنا القرود والطيور هائمة في بحر الجنس، واتجهنا غربًا، ولكن ما إن تحركنا عدة خطوات قليلة حتى رأيته يقف هناك تحت شجرة جرداء خالية من الأوراق.. كانت هذه هي الشجرة الوحيدة، المصابة بأنيميا حادة حرمتها من التزين باللون الأخضر. لم يكن سواه.. الرجل الأنيق، الذي يطلق الدخان الأبيض من أذنه اليسرى، في حين اصطف أقزامه في نصف دائرة أمامه. رمقني بنظرة غاضبة أخافتني كثيرًا، ولكنه أشار بيده الطويلة إلى أحد الأقزام، فاقترب منه، ثم سرعان ما انطلق ليتسلق الشجرة الجرداء. ماذا يجري؟ ومن أين ظهر الرجل القرد الذي يخترق دائرة الأقزام الآن؟ إنه ينصت باهتمام إلى ما يقوله الرجل الذئبي، ويبتسم.. لم أقوَ على التحرك قيد أنملة، فنظرت إلى نشوى لأحثها على السير سريعًا في اتجاه آخر، فلم أجدها. جُنّ جنوني.. أين اختفت نشوى فوزي؟

التفت يمينًا ويسارًا وأنا أصيح: (نشوى.. نشوى.. أين أنتِ؟).. لم أتلقَّ أي رد، بل يبدو أن استغاثتي بنشوى استفزت الرجل الأنيق وأقزامه والرجل القرد؛ لأنني وجدتهم جميعًا قد اتجهوا نحوي بخطوات منتظمة شبه عسكرية. أصدرتُ أوامر لا تحصى لقدميّ كي تنطلق وتفر بلا فائدة.. إنها تنغرز في أرض الغابة بعمق، وكلما اقتربت مني الجوقة الملعونة انغرزت قدماي أكثر فأكثر. فجأة انهالت عليهم كميات من الطوب والزلط، قذفتهم بها نشوى التي توارت خلف شجرة معمّرة.

تهللت روحي حين رأيتها تقذفهم بحماس وتلعن أجداد أجدادهم، ثم انتبهت إلى أنها لم تكن بمفردها، فقد لمحت بجوارها الفتاة، التي كان العنب

ينمو في كفها داخل قطار الإسكندرية، فيلتهمه القرد، فتعجبت ونسيت أن قدميّ مازالتا تنغرزان في الأرض، ورأسي يوشك أن يلامس سطحها. على بعد عشرة أمتار مني، شرع الرجل الأنيق في إطلاق الدخان الأبيض من أذنه اليسرى بكثافة مزعجة، فاختفت الأشجار وولولت الحيوانات وبكت الطيور. تذكرت تحذيرات جدتي «مآثر» (معتز.. إذا ولولت الحيوانات وبكت الطيور، فاعلم أن السماء غاضبة، وأن ساعات قليلة تفصلنا عن يوم القيامة)، فارتجفتُ ولعنت الحظ البائس، ولكن الدخان الأبيض يكاد يعميني ورائحته المقبضة أهاجت خياشيمي، فصرخت : أنقذوني.. النجدة.. النجدة..

أظن أن أكبر كمية عرق أفرزتها في حياتي، كانت حين أفقت من نومي في تلك الليلة العجيبة، ولم يقاربها سوى العرق الذي كساني حين تحسست ذيلي لأول مرة، فأضواء الحلم الجميل في بداياته أضاءت روحي بنور صاف وإشراق دائم، ولكن ظلمة الشرور التي خيمت علينا في نهاياته دفعت الأدرينالين والعرق إلى التدفق بغزارة، ويبدو أن كثافة الدخان الأبيض عجلت بمعدل إفراز العرق. ومع ذلك حين تخلصت من التشويش، الذي يرافق الفترة بين النوم والصحو عادة، وجدتني مشمولاً بحبور غامض، فاستعدت سريعًا ما جرى في الحلم منذ قليل، وقبل أن يتحول إلى كابوس.. وتوقفت كثيرًا، وأنا أصنع لنفسي شايًا بالحليب عند المشهد الجنسي الساخن، الذي جمعني بنشوى فوزي فوق عشب الغابة. هنا فقط اكتشفت أن ملابسي الداخلية قد تبللت، وتعجبت كيف يكون لفرض خيالي، وهو الحلم، أثر مادي ملموس وهو مياه الجنس في هذه الحالة؟

بعد أن استحممت وأديت صلاة الفجر، سمعت لغطًا قادمًا من غرفة أمي، توجهت نحوها، فكانت تتحدث مع رسمية في أمر لم أتبينه، لكنه محل خلاف وجدل فيما يبدو.. ألقيت عليهما تحية الصباح، ولم تنسَ رسمية أن

تكرر عليّ ضرورة الإقدام على الزواج. ابتسمت ولم أعلق.. سألتني أمي إن كنت أرغب في تناول الإفطار، فأخبرتها أنني تناولت شايًا بالحليب مع قطعة بسكويت. هنا هبّت رسمية محتجة:

- وهل شاب مثلك تكفيه قطعة بسكويت؟

ثم استطردت بعصبية، لا تناسب هذا الوقت المبكر من الصباح:

- ألم تلاحظ أن نحافتك في ازدياد، وأن صحتك ليست على ما يرام؟

لم أعلق مكتفيًا باتسامة يمكن تفسيرها بعدة طرق، وسألت أمي:

- كيف حال صحتك اليوم؟

أجابتني بصوت واهن:

- بخير والحمد لله.

ثم عقّبت:

- دعيه وشأنه يا رسمية؟

وقبل أن أغادر الغرفة سألتني والدتي:

- هل من جديد في المظاهرات والوقفات الاحتجاجية؟

أنقذني رنين جرس الباب من الإجابة؛ لأنني لم أكن أتابع ما يجري في مصر منذ ثلاثة أيام بما يمكنني من تقديم شرح وافٍ لها، وهرولتُ نحو الباب.. دلف فادي نجيب منشرح الصدر وبصحبته زياد أبو سريع يسبقه حماسه اللانهائي، وقبل أن أنطق بكلمة ترحيب واحدة، عنفني زياد قائلًا:

- ألم ترتدِ ملابس الخروج بعد؟

ثم أتبعه فادي نجيب مكملًا:

- لا تحمل معك سوى بطاقة الرقم القومي فقط، وموبايلك، وقليل من الأموال.

ثم أضاف زياد بصوته الجهوري:

– هات معك زجاجة مياه كبيرة، ولا ترتد سوى تيشرت وبنطال. هذا ما يؤكده المنظمون والداعون للخروج اليوم.

أكمل فادي بنود النصائح قائلًا بسرعة، وكأنه يحفظ ما سيقوله:

– لا بأس في أن تحمل معك بلوفر ثقيلًا، فقد نضطر إلى المبيت في الميدان، ولا تنسَ أن الأوباش قطعوا شبكة الإنترنت!

وزعتُ نظري بينهما بتوتر؛ لأن كلًّا منهما أطلق رصاص تعليماته بسرعة مذهلة.. كنت أدري أن الحكومة أقدمت على قطع شبكة الإنترنت؛ في محاولة لمنع التواصل بين الشباب الثائر، فأزعجني ذلك بشدّة. لاحظت أن فادي لم يمارس هوايته المعتادة في ارتداء أي شيء أحمر اللون؛ فقد اكتفى بتيشرت بني فوق بنطال جينز أزرق، وقد حمل في يده بلوفر بنيًّا.. فلما لم أستجب إلى أية نصيحة، وظللت ساكنًا في مكاني، هبّ زياد صائحًا:

– هيّا.. البلد مقلوبة.. البلد في ثورة.. وأنت هنا تتسلى مع حيواناتك وطيورك؟

لم أرتح لهذا الغمز واللمز، وقلت لنفسي: هل أصبح زياد أبو سريع جيفارا مصر، وأنا لا أدري؟

لم أستجب للتعليمات والنصائح، وجلست في الصالة على أقرب مقعد، ثم سألتهما ببرود: إن كانا يرغبان في تناول الإفطار؟ قبل أن يفقد زياد صوابه وصلت رسمية إلى الصالة، فرحبتْ بهما كثيرًا. سألها فادي عن صحة والدتي، ولكن زياد طلب من رسمية أن يلقي عليها تحية الصباح بنفسه لو أمكن ذلك.

اعتراني ذهول حين لمحت عائلة الفراشات الملونة تحوم في فضاء غرفة أمي؛ ذلك أنني لم أنتبه إلى وجودها حين كنتُ بداخلها قبل قليل، فمن أين أتت هذه اللوحات الطائرة؟ وكيف لم تنتبه والدتي ولا رسمية إلى موسيقى السيمفونية العذبة، التي تعزفها عشرات الأجنحة فوقهما؟ انتهز فادي إقدام زياد أبو سريع على تقبيل يد أمي، وسألني: إن كنت قد أعطيت رسالته إلى حنان المرشدي؟ تولت رأسي الإجابة بالنفي، فامتعض قليلًا وأقدم نحو والدتي، مقبّلًا إياها، ومتمنيًا لها الشفاء السريع.

- هيا يا معتز.. ارتدِ ملابسك واذهب معهما.

بنبرة حازمة أمرتني أمي.. يبدو أن القرارات الحاسمة تنطلق عادة من فوق سرير المرض! ثم أكدت قرارها المفاجئ بسرعة قائلة:

- لا تخذل أشقاءك.. فشباب مصر كلها يشارك في المظاهرات الآن!

صاح زياد أبو سريع مهللًا للقرار، متغاضيًا عن الاحتجاج الذي أبدته أختي رسمية لنزولي معهما، بعد أن سمعنا كلنا كلمات التوبيخ المنهمرة من فم أمي نحو رسمية.

بتثاقل خرجت معهما.. تلقينا نسائم باردة تنذر بيوم شتوي قوي، ولكن ما إن عبرنا شارع الحجاز في الاتجاه الآخر، حتى اكتشفت أنني نسيتُ إحضار بطاقة الرقم القومي، فاستأذنت منهما لأحضرها. أمام العمارة رأيته يحط على الشجرة القريبة من المدخل.. كان صديقي الهدهد بألوانه المدهشة، يتلفت حوله بقليل من الذعر، فلما رآني استعاد عافيته وثقته بنفسه، وقال بصوت ناعم مثل الحرير: (تصحبك السلامة يا معتز).

* * *

25| على مشارف ميدان التحرير

لم أعرف أبدًا سرّ العلاقة المريبة بين فقدان صديقي فادي نجيب في الظهيرة، وظهور ذيلي لأول مرة في المساء، ولم أعِ أبدًا أن المسافة البيولوجية بيننا نحن البشر وبين الحيوانات قصيرة إلى هذا الحد، إلا حين تحسسته بعد منتصف ليلة جمعة الغضب 28/ 1/ 2011. كما لم أنتبه قبل ذلك إلى أنه من السهل جدًّا أن نستيقظ في الصباح أطفالًا وشبابًا وكهولًا؛ لنجد أنفسنا في المساء، وقد صرنا فئرانًا وكلابًا ونمورًا! حقًّا.. إن الرحلات المكوكية التي يقطعها البشر؛ لينقلبوا إلى حيوانات، ليست أقل من تلك التي تتحول فيها الحيوانات إلى بشر! ولي فيما حدث لأبي أسوة حسنة؛ لذا ليس عندي ذرة شك واحدة في أن كثيرًا من الحيوانات والطيور التي نلتقيها في طريقنا كانت بشرًا مثلنا في يوم من الأيام. وأنها تمتلك فرصًا واسعة لتستعيد إنسانيتها المفقودة في أية لحظة. ولكنني لا أستطيع أن أجزم هل بقاؤها في مملكة الحيوانات أفضل لها، أم أن عبورها إلى عالم البشر يظل هو الحلم والأمل؟

في تلك الليلة، عانيت كثيرًا من نوم متقطع ومشوش ومخيف، فالدماء التي سالت من رأس فادي نجيب في هذا اليوم الغضوب كانت تلطخ وسادتي كلما تقلبت يمينًا ويسارًا. كنت أشمها وأرتجف. وكنت أتحسسها وأنصهر تحت نيران الرعب التي انطلقت من ميدان التحرير في هذا النهار الحزين. وكان حريق يندلع في عينيّ من جراء الدخان، الذي أطلقه الرجل

الأنيق من أذنه اليسرى، محاولًا طمس معالم الميدان التاريخي؛ حتى يتسنى لقوات الشرطة الاعتداء بسهولة على المتظاهرين المحتشدين، فوق كوبري قصر النيل. في البداية، رفض أكثر من سائق تاكسي أن يصطحبنا من أمام المحكمة في مصر الجديدة إلى وسط البلد؛ حيث كرر كل منهم هذه العبارة بغضب: (البلد تحترق والشرطة تطلق الرصاص بغباء).

سائق شاب فقط هو الذي وافق على توصيلنا بحماس عجيب، لدرجة أنه أخبرنا أنه يقوم بهذه المهمة مجانًا منذ الرابعة فجرًا؛ إذ نقل إلى ميدان رمسيس والدقي شبابًا من شبرا والمطرية والقلعة وإمبابة والسيدة زينب والطالبية ومدينة نصر، ولكنه أكد أن الوصول إلى ميدان التحرير من رابع المستحيلات، فقوات الشرطة تتكدس على مداخله بالآلاف. كان هذا السائق يتحدث بإلهام من السماء؛ لأنه أكد لنا أن الحكومة مرعوبة، والرئيس خائف وابنه جبان، وأن خروجنا إلى الميادين بالملايين سيجعله يفرّ ويهرب كما هرب بن علي! طوال الطريق لم يتوقف الحوار لحظة بين فادي وزياد والسائق، كلهم منهمكون في الحديث عن السياسة والثورة والاحتمالات المتوقعة.. كنت أنصت إلى زياد فيعتريني الذهول، ألم يكن أكثرنا بلادة ونفورًا من عالم السياسة؟ ألم يكن أكثرنا تطاولًا على المصريين؛ حيث لم يتورع عن كيل السباب لهم لأنهم، وفقًا لكلامه، كانوا ومازالوا خنوعين ومهزومين، لذا ضُربت عليهم الذلة إلى الأبد؟ ألم يسخر زياد من الخطوة التي أقدم عليها أدهم الشاذلي، بالانضمام إلى جمعية البرادعي، التي تطالب بالتغيير؟ وأنت يا فادي يا عاشقًا بغير أمل: كم مرة أخبرتني أنك على استعداد لأن تغادر الكنيسة، وتهجر دينك، وتشهر إسلامك لتنال رضا معشوقة الفؤاد التي لم تشعر بوجودك أصلًا حتى هذه اللحظة؟ ترى هل انطفأ غرامك حين اتّقدت

الثورة؟ أم أن نور الغرام شاحب، كما أن نيران الثورة مآلها إلى رماد؟ ماذا حدث لكما يا صديقيّ؟ وهل من الممكن أن تنقلب مشاعر الإنسان هكذا بين ثورة وضحاها؟

انتبهت إلى توقف التاكسي فجأة عند ميدان رمسيس، ولكن زياد طلب منه مواصلة الطريق إلى ميدان الدقي عن طريق كوبري أكتوبر، مؤكدًا أن الأفضل لنا هو الوصول إلى ميدان التحرير عن طريق كوبري قصر النيل من جهة الدقي. لاحظنا ازدياد حافلات وسيارات الشرطة المتجهة إلى ميدان التحرير.. سيرتكبون مجزرة اليوم، هكذا توقع فادي وهو يحصي عدد مدرعات الشرطة، فأيدناه جميعًا. (عيب يا أساتذة.. لا تهينوا ثوريتي المتواضعة) بهذه الجملة، رفض السائق أن يتناول أجرة المشوار، مؤكدًا ما قاله حين ركبنا معه التاكسي أنه يقوم بهذه المهمة؛ مجانًا من أجل الشعب المطحون.

رأيت مجموعات متناثرة من الشباب تعبر ميدان الدقي في اتجاه مسجد أسد بن الفرات. كما تبينت وجود أعلام مصرية كبيرة، مرفوعة في شرفات بعض المباني التي تحيط بالميدان. اقترح زياد أن نتناول سندويتشات فول وطعمية قبل أن نؤدي صلاة الجمعة، ونغرق في بحور التظاهر؛ لأننا لا نعرف طبيعة المفاجآت التي تكتنف يومنا هذا. عند مطعم صغير في شارع جانبي وقفنا ليبتاع زياد بعض السندويتشات.. لم أكمل سوى سندويتش واحد، على الرغم من تقريع زياد، واحتجاج فادي بزعم أن نهارنا طويل وملامحه غائمة. تردد زياد قليلًا قبل أن يحسم أمره ويشتري كمية من الخبز الأفرنجي من مخبز قريب؛ مؤكدًا أنها خاصة بأصدقائنا الذين سنلتقيهم في ميدان التحرير، بدلًا من سندويتشات الفول والطعمية؛ لأنها ستفقد طزاجتها مع مرور الوقت، ثم ابتاع عدة علب من الجبن النستو من سوبر ماركت بجوار المخبز، بعد أن ناولناه فادي وأنا ما تيسر من جنيهات.

مع رفع أذان صلاة الجمعة، خرج العشرات ثم المئات من الشوارع الجانبية والحارات الضيقة متجهة إلى مسجد أسد بن الفرات. بعض المجموعات كانت تحمل أعلامًا لمصر ترفعها عاليًا، وهي تهتف تحت كوبري أكتوبر. عقب الصلاة مباشرة، اعتلى المنبر شيخ معمم ذو لحية كثة شديدة السواد، وخطب محذرًا الجميع من مغبة الخروج في مظاهرات، ضد وليّ الأمر صارخًا: (هذا حرام.. حرام.. حرام). علت أصوات حادة تطالبه بالسكوت والنزول متهمة إياه بالنفاق. حين اقترب مني فور نزوله مخذولاً من فوق المنبر، تبيّن لي أنه يشبه أحد أقزام الرجل الذئبي الأنيق.

عند خروجنا من المسجد، حمل المصلون شيخًا شابًّا له ملامح طائر رقيق، يهتف بحماس مطالبًا بسقوط النظام، فرددنا الهتاف وراءه بقلوب تنبض بعشق الوطن، وتعجبت كيف لهذه القسمات الرقيقة أن تمتلك حنجرة قوية هكذا؟ ثم انطلقت الآراء تنصح الجميع بالتوجه نحو ميدان التحرير.. اجتزنا شارع التحرير، وسط عدد من البشر لا يتجاوز الألف.. كانت أمامنا مظاهرة أضخم بكثير، يلتحق بها الطالعون من الشوارع الجانبية، والقادمين من كنيسة أبو سيفين بالمهندسين، كما أكد لنا فادي، حين لمح أحد قساوسة الكنيسة يتقدم العشرات من شعبه. دبّت موسيقى الانفعال في روح زياد، فحثنا على الالتحاق بهذه المجموعات، ثم شرع يقود إحداها عند عبورنا كوبري الجلاء، مرددًا بصوته الجهوري الهتافات الحماسية.. لم أشعر بأية لحظة أمان فور وصولنا إلى أول كوبري قصر النيل في حدود الثانية ظهرًا، كما أن انقطاع خطوط الموبايل أصابني بتوتر شديد، فقد كنت أطمع في اتصال من نشوى فوزي، يستفسر عن سبب غيابي وعن صحتي.

لم أتخيل لحظة أنني سأشاهد كل هذه الحشود تتجه نحو ميدان التحرير يومًا ما.. إنه يوم الحشر، هكذا قلت لنفسي، ونحن محشورون بين الآلاف

فوق كوبري قصر النيل. أخبرنا أحدهم أن حافلات الأمن المركزي تقف متحفزة تحت كوبري أكتوبر، وفوقه عند ميدان عبد المنعم رياض، وكثير منها يحتل عددًا من مداخل ميدان التحرير من ناحية المتحف المصري.. أصابتني حشود قوات الأمن هذه بانزعاج شديد، فانقبض قلبي وقلت لنفسي: ليتني كنت ما زلت في غابات الأمازون، ثم ندمت لأنني استيقظت من الحلم الجميل، ورغبت في العودة إلى المنزل!

(الشعب يريد إسقاط النظام)، هذا أول شعار رفعه زياد، ونحن نلتحم مع الجموع عند مدخل الكوبري تقريبًا.. كان قد أصبح فوق الأعناق لا أعرف كيف. ولكن صوته الجهوري جذب إلى هتافاته المئات، الذين كانوا يحتلون الميدان الصغير أمام مدخل دار الأوبرا. لاحظت سربًا من طيور بيضاء ترفرف حول تمثال سعد زغلول.. أجهدت عيني بحثًا عن صديقي الهدهد، فلم أفلح في رؤيته.. انهمرت الهتافات والشعارات، التي رفعها آخرون بانفعال شديد من كل صوب. وارتفعت لافتات في كل ناحية تندد وتفضح وتسخر وتطالب.. بعد فترة وجيزة، هبط زياد من فوق الرؤوس، تاركًا هتافاته تصدح فوق مياه النيل وانضم إلينا.

أعرف نفسي جيدًا.. في الزحام أتوتر وأضطرب وأنزعج، فألتصق بأقرب صديق، وهكذا وجدتني ممسكًا بقبضة كل من فادي وزياد، فكنا نحن الثلاثة نشكل كتلة لحم واحدة، محشورة بين عشرات الآلاف من الكتل البشرية، التي تحتشد وتتوافد على كوبري قصر النيل بسرعة مذهلة. لم أهتف مع الهاتفين، ولم أطالب مع المطالبين، ولكني ارتجفت مع المرتجفين، حين انهمرت فوقنا رصاصات الغدر من عدة أماكن مختلفة.. هرولنا نحو مدخل الكوبري هربًا من الطلقات الطائشة.. رأينا حافلة شرطة تدهس

أحد الشباب ببرود، فانخلع قلبي، واصطكت أسناني وأنا أرتجف وجلًا. صرخ زياد لاعنًا أجداد أجدادهم.. حذا فادي نجيب حذوه، وأفرط في سب الرئيس والحكومة والشرطة. تقدمت نحونا قوات الشرطة بعناد وفظاظة، وراحت تضربنا بالعصي بقسوة.. اشتبك معهم الشباب ببسالة وقذفوهم بكل ما تلتقطه أياديهم من على الأرض. رأيت العسكر يمسكون بأحدهم يصفعونه بالأكف، ويركلونه بالأقدام، ويجرجرونه وسط صياح وصراخ ونحيب؛ ليحشروه بالقوة داخل ميكروباص، يقف بجانب سور جامعة الدول العربية.

سقطت بجواري فتاة محجبة؛ بسبب الفوضى الناجمة عن محاولات تفادي الرصاصات المجنونة، وهياج سيارات الشرطة الموتورة.. انحنى فوقها زياد وآخرون؛ ليحملوها نحو الرصيف بعيدًا عن الأقدام المروّعة. نزع فادي نجيب البلوفر البني بسرعة وغطى به ساق الفتاة وفخذها اللذين تعرّا حين ارتطمت بالأرض، فانسال منهما دم غزير أهاج مخاوفي.. حدقت في وجه الفتاة، فتذكرت أنها كانت تجلس في كافيتريا الكاشف، يوم ألقوا القبض على أدهم في تريانون، ولمحت صديقها الأسمر يصرخ ويتوعد ويسب.. لاحظت أن ورودًا حمراء وبيضاء وبرتقالية تتساقط من بين نهديها لتختلط بدمها النازف، فانحنيت على الأرض بشكل لا إرادي، لأجمع ورودها الصريعة!

فجأة رأيته يقف هناك بكامل بؤسه وخشونته.. قريبًا من أسد قصر النيل الحجري.. خلف دبّابة عسكرية يتيمة تلف وتدور بحثًا عن موقع مميز لتستقر فيه.. إنه هو الرجل الذئبي الأنيق، صاحب الأذن الملعونة التي لم تتوقف عن إطلاق الدخان الأبيض الحارق. كانت نيران جهنم كلها تستعر في عينيه،

وكان كثير الالتفات والحركة.. أقزامه يتقافزون ويتحلقون حوله بسرعة مخيفة. يشير ويأمر ويهدد ويتوعد، وأذنه تعمل بكفاءة منقطعة النظير.. لمحني من بعيد، فأشار بيده الطويلة نحوي آمرًا أحد أقزامه بشيء لم أتبينه. خفت، واختبأت خلف فادي، الذي كان يتحدث في تلك اللحظة مع أدهم الشاذلي ونشوى فوزي! جُنّ جنوني: متى ومن أين ظهرت نشوى وأدهم؟ لاحظت أن فراشاتها مضطربة للغاية، فهي ترفرف بعصبية وتدور حول جبينها مذعورة. صافحني أدهم على عجل وبحياد، وكذلك فعلت نشوى.. صرخ أدهم آمرًا الواقفين أن يحملوا الفتاة المصابة بسرعة إلى المستشفى المنصوب، في الجانب الآخر من الكوبري لتلقي العلاج. يد حانية لكزتني في كتفي برفق، جفلت، فلما التفت كانت حنان المرشدي مشرقة بوجه مثل القمر المكتمل. اكتشفت أنها ترتدي الملابس نفسها، يوم نُشر لها أول تحقيق صحفي في جريدتنا.. إيشارب أخضر مزدان بورود صغيرة زرقاء، وبلوزة ذات لون أخضر فاتح فوق جيبة سوداء تمتد حتى قدميها. ابتسمتُ لها، ولكن أحد الأقزام خطف ابتسامتي عندما رأيته يتلصص علينا. كان مختبئًا خلف شاب يضع الكوفية الفلسطينية الشهيرة على عنقه، محاولًا تجنب موجات الدخان الأبيض المنطلقة من الأذن البغيضة للرجل الأنيق.. فجأة صاح أحد الواقفين من الثوار:

- انتبهوا.. إنهم يستعدون لهجوم مباغت.

وقال آخر:

- النظام غبي وقاس.. ولن يرحمنا.

وهتف أدهم:

- احذروا رجال الشرطة المدنيين، فهم أكثر خبثًا وغلظة وبطشًا.

وقالت نشوى:

- يجب وقف ضرب النار بأية وسيلة.

واستطرد أدهم:

- جسارتنا أربكتهم.. تفاءلوا يا شباب.. سنطردهم ونصل إلى قلب ميدان التحرير.

وصرخ زياد:

- كفانا ثلاثين سنة من الذل المنظم!

وأكملت حنان المرشدي:

- المهم أن نحافظ على روحنا المعنوية مرتفعة على الدوام.

وصاح شاب قريب بفرح:

- الجيش بدأ ينزل إلى الشوارع.. الله أكبر.

وقال فادي:

- الحمد لله.. كلنا فداء لمصرنا الحبيبة.

كان يقول ذلك، وهو يملأ عينيه بوجه حنان المرشدي البشوش.. أظن أن هذه آخر جملة سمعتها من فادي، قبل أن تخترق الرصاصة البائسة رأسه النبيل؛ ذلك أن الهجوم المباغت لقوات الشرطة أفقدني توازني تمامًا، فشعرت بأن الأرض تميد تحت قدمي، وأن رجال الشرطة يتحولون بسرعة البرق إلى ذئاب وكلاب برية، (كأنني في سرينتيجي).. هكذا صرخت، وأنا أركض متجهًا نحو أقرب مجموعة باحثًا عن الحماية في أحضان الآلاف من البشر. تهلل وجهي بالبشر، حين رأيت الأستاذ عبد الخالق حمادة، رئيس تحريرنا السابق، وهو يلقي خطبة حماسية ضد مبارك ونظامه وسط حشد من الشباب

التفوا حوله شاخصين.. دفعني أحدهم في ظهري بعنف، فكدتُ أنكفئ، لولا أنني تماسكت بصعوبة.

نظرتُ خلفي، فرأيت الكلاب تنهش وتعض وتمزق وتطلق الرصاص، يرافقهم الرجل الأنيق وأقزامه المشبوهون، وبصحبته رئيس التحرير كريم المرشدي يضحك باضطراب، على الرغم من أن الصراصير كانت تتسكع في أخاديد وجهه.. أدهشني أنهما لاحا لي كصديقين حميمين. كانت هذه أول مرة أرى فيها الرجل الأنيق يعدو هكذا، بينما رابطة عنقه تطير في الهواء. بالقرب من أسد قصر النيل.. رأيتها تجلس على الرصيف، تتأمل موسيقى الكر والفر بين المتظاهرين والشرطة بهدوء.. إنها فتاة القطار التي ينبت العنب في كفها، ابتسمت لها، فبادلتني الابتسام، ونهضت لتصافحني.

وقبل أن أمدّ يدي انشقت الأرض وخرج منها القرد الملعون، الذي مارس هوايته البائسة في التهام العنب من كف الفتاة.. تعجبت وصرخت، فانتبهت حنان سائلة إياي بلهفة (ما بك؟)، أشرت إلى المشهد الذي أذهلني سابقًا في قطار الإسكندرية، ولكن حنان تعاملت مع المشهد المثير دون اهتمام، وهي تجذبني لننضم إلى كتلة بشرية، تهتف منددة بنذالة النظام وعدوانيته.. رأيت الأستاذ عادل صالح، خال أدهم الشاذلي، يتوسط دائرة صغيرة من الشباب.. كان يتحدث عن احتمالات تدخل الجيش لطرد حسني مبارك من عرين الرئاسة.. اقتربت لأتنصت على ما يقال، فتناهى إلى سمعي صوت جاد يتحدث بسرعة:

- ليت الجيش يقهر عناد هذا الرجل، ويزيحه عن السلطة يا أستاذ عادل!

- أظن أن الجيش سيحسم الأمر، إذا حافظنا على هذا الزخم الثوري، ولكن الخطر أن مصر عانت كثيرًا من حكم العسكر!

- ماذا تقصد أستاذ عادل؟

- لذة السلطة تسكر من يتناولها بلا حدود، وإذا تذوقها العسكر، فمن الصعب أن يتنازلوا عنها!

ثم أضاف، وهو يلتفت يمينًا ويسارًا، بتوتر فرضته طلقات الرصاص وسحابات الدخان:

- تفاءلوا يا شباب.. مصر تتغير إلى الأحسن!

عاينت ملامحه بتركيز شديد، فبدا لي أن درجة تشابهه مع الحصان الأبيض تزداد في تلك اللحظات.. حاولت اختراق الدائرة حوله، والتي اتسعت بصورة كبيرة في ثوانٍ، لأدنو منه وأصافحه، ولكن أحدهم صرخ فينا منبهًا الجميع إلى أن الشرطة، بدأت تقذف علينا القنابل المسيلة للدموع.. ساد هرج ومرج واحتكاك وتصادم.

لمحت زياد يمسك قنبلة ألقوها علينا، ولم تنفجر وأعاد إلقاءها على رجال الشرطة.. أخافني نباح الكلاب وعواء الذئاب، فأغرقني الأدرينالين في بحوره. أمسكتني حنان المرشدي من يدي، وهي تصرخ: (من هنا.. من هنا)، ثم قادتني نحو الوقوف خلف حائط جامعة الدول العربية؛ هربًا من النيران المندلعة في كل مكان. كدتُ أقول لها لقد رأيت والدك يسير مع الرجل الذئبي الأنيق، ولكنني تحرجت من علاقته مع الصراصير.

تقرع أذني موسيقى حماس وهتافات وصرخات، يتردد صداها في الميدان بقوة مع مرور الوقت.. رأيت زميلنا الصحفي الـمُقَال حامد ياسين، يلقي قصيدة حماسية بصوت مبحوح وسط الحشود، فيتنزع الهتافات وصيحات الإعجاب.. طرقت أذني ضحكة مميزة ذات رنين معدني مختلف، فالتفت

نحو مصدرها، فرأيت الشاب الطويل أسمر البشرة، الذي أثار انتباهي، عندما التقيت نشوى فوزي في كوستا. كانت صديقته البيضاء القصيرة تقف بجواره مع مجموعة من الشباب الثائر يرفعون لافتة كتب عليها (إذا الشعب يومًا أراد الحياة.. ييجي ميدان التحرير).. ابتسمت له، وتمنيت لو صافحته.

(انتبه يا زياد.. انتبه)، هكذا صاح أدهم محذرًا زياد من كلبين بريين بملابس مدنية ينقضان عليه.. دفعهما زياد بقوة وحش أسطوري، فسقط الكلب الأول على الأرض، بينما لاذ الرجل الثاني بالفرار عائدًا إلى تجمع قواته وكلابه. هللت نشوى، وأمسكت يد أدهم لترفعها عاليًا فرحًا بما فعله زياد، فانقبض قلبي واحترق.. تيار من الهواء البارد يلسع عظامنا ويدحر الدفء الذي كنت أشعر به قبل قليل. أتلفت حولي بحثًا عن فادي، فلا أعثر عليه. يزداد وجيب قلبي خفقانًا.. تخترق خياشيمي رائحة احتراق مبنى الحزب الوطني، فتعتريني رجفة ممزوجة باشمئزاز من الحزب ورجاله. وأعاود السؤال عن فادي بعصبية وقلق.. تبثّ حنان في روحي مياه الاطمئنان، قائلة: (لا تتوتر.. فهو يقف على الرصيف المقابل، بجوار أسد قصر النيل.. إني أراه يتحدث مع أصدقاء هناك).

أشم رائحة غريبة وطيبة.. أتذكر جيدًا أنها رائحة الهدهد صديقي، أرفع عينيّ إلى السماء بحثًا عنه. أخفق في الوصول إلى مكانه؛ فدخان الرجل الملعون يسطو على فضاء الكوبري والميدان ويحجب الرؤية.. تختلط الأصوات والهتافات في مسامعي، فألعن الشرطة والكلاب البرية والأذن البغيضة، التي سممت الجو بدخانها المتواصل. يشطر روحي أنين موجع. يوخز ضميري ألم حاد. يا خبر أسود.. صديقي الهدهد جريح ينزف دمه على الأرض.. أصرخ.. أطأطئ رأسي وأنحني لألمسه؛ عسى أن أخفف آلامه..

أجلس بجواره. (لا تحزن يا معتز.. أنا بخير) يقول لي بمنقاره الرقيق، وهو يتأوه.. أبكي.. ألمسه.. أواسيه.. يواسيني بنظرة حالمة.. أتذكر عبارة جدتي «مآثر» (إذا جرح طير في السماء، فاعلم أن غضب الله قادم على الأرض يا معتز).

نتبادل نظرة طويلة وعميقة.. يا إلهي.. لماذا تعذبني بهذا المنظر.. أستغفر الرحمن، وأقرأ آية الكرسي بسرعة.. أعاين خيط الدم الرفيع، الذي يسيل من عنقه وجناحه الأيمن، فأبكي.. (لا تبك يا معتز.. سألملم جراحي وأعود إلى سماواتي.. حافظ على روحك يا صديقي).

تشدني حنان المرشدي من ياقة القميص بعنف طالبة مني أن أنهض، فالخطر مازال جاثمًا.. إذا أصيب صديقي الهدهد فكل شيء مباح يا أولاد الكلاب.. (لماذا تبكي يا معتز؟) تسألني حنان بمودة بالغة وهي ترنو إليّ.. انظري إلى الهدهد يا عزيزتي من فضلك لتعرفي لماذا أبكي؟ تأملتني حنان باستغراب، ثم عاينت الأرض بحياد، وكأنها لا ترى طائري الجريح، لأنها قالت بتعجل: (هيا.. هيا.. فيما بعد .. فيما بعد).

أثناء عبورنا السريع نحو مقر وزارة الخارجية القديم، انهمرت علينا موجة أخرى من الرصاص الجبان، مترافقة مع سيل مندفع من المياه، انطلقت من خراطيم ثعبانية مثبتة فوق حافلات شيطانية.. تحالف مشبوه بين الأذن اليسرى والقنابل المسيلة للدموع، يجعلنا أسرى للاختناق والدخان والعبرات. حاولنا تفادي الماء والرصاص والدخان بحيل متباينة، فقزفنا وركضنا وصرخنا.. لمحت أدهم الشاذلي يطير فجأة على ارتفاع متوسط، مخترقًا فضاء الكوبري في اتجاه مجمع التحرير، وقد ضم نشوى فوزي تحت جناحه. انخلع قلبي حزنًا وأسى، وأنا أتابع رشاقتهما في فنون الطيران. وتساءلت بحسرة:

لماذا لا أحظى بنعمة التحليق في الفضاء مثلهما؟ قالت حنان بحماس، وهي تحاول تجفيف دموعها: (لن يقهرونا.. إنهم يهربون، والجيش سيساعدنا).. أقبل علينا فادي نجيب متهللًا رافعًا يده بعلامة النصر، وقبل أن يصل إلينا بثلاثة أمتار تقريبًا، صادته رصاصة جبانة في جبينه أردته قتيلًا في الحال!

لم أعرف أبدًا كيف وصلت إلى البيت في هذا اليوم البغيض، ولم أدرِ كم من الوقت مرّ عليّ، وأنا منكمش هكذا تحت اللحاف في سريري، أطارد نومًا بائسًا ومشوشًا ومتقطعًا. بينما دم فادي نجيب يلطّخ وسادتي.. كما لم أنتبه متى بالضبط بدأت رحلتي الغريبة نحو عالم الحيوان، فقد شعرت أول الأمر بألم حاد يطحن ضلوعي، وانقباض غامض في صدري، وأنني أتضاءل بانتظام، وأن أذنيّ يكبران ويستطيلان، وأن فمي يصغُر ويزدان بشوارب رفيعة، وأنني أغادر جلدي بهدوء، لأدخل في مسام جلد آخر، وبدن مغاير، وأن ذيلًا رماديًا طويلًا ورفيعًا، ينمو ويمتد من خلف مؤخرتي؛ ليستقر بجواري على السرير.. حين تحسست هذا الذيل لأول مرة، أيقنت تمامًا أن طقوس التحول قد بدأت، وأن آيات الغرابة قد انهمرت، وأنني يجب أن أودع جسدي البشري الليلة، مثلما ودّع فادي نجيب الحياة الدنيا هذا النهار.

المثير أنني لم أبتئس ولم أحزن لأنني أصبحت من القوارض، كما أنني لم أحاول أن أوبّخ نفسي لأن أبي بات أسدًا مهيبًا، في حين أنني صرت فأرًا مذعورًا! تعاملت مع الأمر بهدوء يليق بشاب سابق يعشق الحيوانات، ولا ينفر منها، حتى لو كانت تثير الاشمئزاز، مثل الفأر الذي أصبحته. ولكن الغُصّة الوحيدة التي أحرقت كبدي هي: كيف ستتحمل أمي هذا الأمر؟ وهل ستسعى جاهدة من أجل انتزاعي من مملكة الحيوان؛ لتعيدني إلى صفوف البشر؟ ثم هل باستطاعتها الآن، وهي طريحة الفراش، أن تفعل شيئًا

أمام المفاجآت غير السارة، التي تجري داخل غرفة نوم ابنها؟ آه.. نسيت.. ماذا ستقول عني نشوى فوزي، حين تكتشف المصير العجيب الذي حُشرت فيه؟ وهل مازلت أطمع في نفحة غرام من فتاة حياتي، بينما أنا لا أجيد سوى قرض القماش والأوراق وتناول الحشرات؟ وهل يليق بعاشق مفتون مثلي أن يظل محافظًا على جمر غرامه، بعد أن أصبح يرتعب من أنفاس قطة، تسير بجوار الحائط؟ ولكن السؤال الأخطر، هو: كيف يمكنني أن أعود إلى عملي، وأنا بهذه الهيئة الحيوانية التي يتقزز منها الناس ويسعون إلى تسميمها وقتلها؟ أما أصدقائي فأغلب الظن أنهم سيتندرون على حكايتي فترة، إذا علموا بها، ثم ينسونني، كما سينسون فادي الذي صرعته رصاصات الشرطة قبل ساعات. حسنًا.. عليّ أن أهرب الليلة قبل طلوع النهار، ولتقدني قدماي إلى مخبأ، يعصمني من احتقار الناس وغدرهم وتربّصهم بي.

الأمر الممتع في مغادرتي دنيا البشر هذه الليلة، يتمثل في أنني سأمتلك فرصًا كثيرة للاقتراب من صديقي الهدهد؛ فالعلاقة بين الطيور والحيوانات أمتن وأوثق من تلك، التي تربط بني آدم بالطيور.. قد يكون في مقدوري أن أراه عن قرب، وأنا مختبئ بين أغصان شجرة، أو تتاح لي فرصة التحدث إليه في لحظات الاسترخاء.. وقد تهبني المقادير نعمة تناول الطعام معًا من مائدة أعشاب عامة.. آنذاك لن يهرب ولن يخشاني، فحجمي ضئيل مثله، كما أنني ليس لي أطماع في الاعتداء عليه أو اقتناصه.. لكن ترى.. كيف حاله الآن بعد الجروح الدامية التي طالته؟ لقد أكد لي أنه بخير، وأنه سيعود إلى سماواته، راجيًا إياي أن أنتبه إلى حياتي وأحافظ عليها. بحق قدرك يا الله احفظ لي هدهدي الجميل؛ لتتم نعمتك عليّ، ولتجعل تاجه البديع قنديلًا يضيء أحلامي المتواضعة.

تبقى المشكلة الأزلية، وهي كيفية الحصول على أنثى من فصيلتي، تقنع بفأر مزوّر قادم من دنيا البشر مثلي؟ لا بأس.. سأسير أمامها مختالًا، وأخبرها بأنني الفأر الوحيد في هذا العالم الذي أنجبه أسد هصور! أغلب الظن أنني سأحظى بنصيبي الطبيعي من الأنثى، فلا يمكن أن أواجه بمفردي تصاريف الزمان ونذالة البشر وتلمّظ القطط، فضلًا عن أنني أطمح إلى تأسيس أسرة من الفئران الجميلة، وهذا لن يتأتى إلا بالفوز بأنثى رقيقة حالمة، تفتنها شواربي، ويدغدغ مشاعرها ذيلي الطويل، فتستوعب جنوني وهياجي، وتلبي رغباتي الجنسية الجامحة.. لكن ما يؤلمني حقًّا هو أنني سأحرم إلى الأبد من تحقيق حلمي بضم نشوى فوزي إلى صدري لأغمرها بقبلاتي، وأتلذذ بملمس جسدها الشهي، مثلما حدث في غابات الأمازون الممطرة في الليلة الفائتة.

طرق مسامعي صوت أذان الفجر، فانتابتني حيرة عظيمة.. كيف سأقوم بأداء واجباتي الدينية، وأنا محشور في هذه الهيئة غير البشرية؟ وهل يمكن لفأر صغير مثلي أن يتوضأ ويصلي؟ أدرك تمامًا أن الله عز وجلّ أسقط التكاليف عن الحيوانات؛ لأنها لا تعي ولا تقدر، لكنني أعي وأفهم، وأخشى حساب المولى يوم تقوم الساعة، وبالتالي عليّ أن أجد الوسيلة، التي تجعلني أمارس طقوسي الدينية دون أن ينتبه أحد، فيركلني كعب غليظ، أو يعصرني قدم خشن! لقد كانت جدتي «مآثر» تردد باستمرار: (كل الكائنات تسبّح بحمد الله)، فما المانع أن يكون هناك فأر يتوضأ ويصلي؟

يا خبر أبيض.. إنها رسمية تناديني.. ماذا أفعل؟ كيف أسمح لها برؤيتي، وأنا مزوّد بذيل طويل؟ سيعتريها جزع، ويقهرها رعب عظيم.. إنها تنقر باب غرفتي برفق.. إنها تصيح: (استيقظ يا معتز).. إنني أتضاءل وأنكمش.. إنني

أختبئ بين طيات اللحاف، عسى ألا تراني.. إنني أفكر في القفز من النافذة، أو الهرب تحت السرير.. إنها مازالت تنقر الباب برفق، وأنا مازلت أنكمش وأتضاءل!

* * *

26| مع
حنان المرشدي

حين خرجنا من مستشفى السلام الدولي، استقبلنا نسيم فبراير البارد بترحاب أكثر من اللازم، فقمت بإحكام الجاكت الجلد فوق جسمي وإغلاق أزراره؛ طلبًا لمزيد من الدفء.. كانت هذه أول مرة أغادر فيها منزلي بعد استشهاد فادي نجيب، وكانت حنان المرشدي قد أصرّت على أن تخرجني من قوقعة البيت، بعد أن سمح لي الطبيب بالعودة إلى ممارسة حياتي بشكل طبيعي تدريجيًّا. أكثر من ثمانية أيام قضيتها طريح الفراش غائبًا عن الوعي أو أكاد؛ حيث باتت الحُمّى في عظامي.. لم أعرف أبدًا كم من الوقت مرّ عليّ، وأنا محشور داخل هيئة فأر صغير، كما لا أعرف هل رآني أحد، وأنا هكذا منتميًا إلى قبيلة القوارض، قبل أن أهجرها عائدًا إلى موطني البشري.. الغريب أنني أتذكر جيدًا تفاصيل رحلتي من دنيا الناس إلى عالم الحيوان، ولكنني لا أعي بالمرة متى وكيف تمت عودتي مرة أخرى إلى عالم البشر.

كل ما أذكره أنني رأيت أختي رسمية وحنان المرشدي وعماد عزوز وعمر عبد الفتاح ومحمود أبو ماضي يحتلون غرفتي، عندما فتحت عينيّ لأول مرة بعد طول إغماض.. أجسادهم سابحة في غلائل من الغبش، وملامحهم تتداخل وتتأرجح وتهتز كما تراهم عينيّ، كانوا متناثرين في أماكن متفرقة من الغرفة، أما رسمية فهي الوحيدة التي تجلس على حافة سريري.. ابتسموا جميعًا في وقت واحد، عندما رأوني أرنو إليهم باستغراب، محاولًا الانفكاك

من أسر الرؤية الضبابية التي تصاحب عيون الخارجين من كهف الغيبوبة عادة.

رسمية، افتتحت الحوار العفوي قائلة بحنان:

- ألف حمد لله على سلامتك يا حبيبي.

بعدها اندلقت من ألسنة الأصدقاء التحيات والتمنيات بالشفاء العاجل.. آنذاك فقط أدركت أنني كنت مريضًا، وأن الحُمّى سلبت مني العقل، وهدّت مني البدن فترة لا بأس بها. تحسستُ باضطراب، من تحت اللحاف خِلسة، منبت ذيلي فلم أجده.. مررتُ بكفي الأيمن على وجهي، بشكل حاولت أن يبدو طبيعيًا، فلم أتبين أي أثر لشواربي السابقة، أيام كنت فأرًا. تنهدت وحمدت الله في سريرتي، وسألت عن والدتي، فأخبرتني رسمية أنها بخير، وقدمها المصابة في تحسن كما يقول الطبيب، وأنه صار بإمكانها أن تتوكأ على قدم عكاز وتنهض من سريرها، وقد كانت تطل عليّ كل يوم أثناء وعكتي، وتنثر فوق رأسي عطر دعائها.. كذلك امتدحت أختي زوجها الدكتور مصطفى غيث، الذي ظل يومين كاملين ساهرًا بجواري مع الطبيب صاحب ملامح الفيل الحزين، فلما اطمأن أن حالتي في تحسن، آب إلى عمله بالإسكندرية، وما فتئ يسأل عني كل يوم أكثر من مرة. حنان المرشدي انتظرت حتى أنهت رسمية تقريرها الطبي والاجتماعي، فمدّت لي كوب عصير برتقال، وهي تهمس:

- تناول هذا حتى نعد لك طعام الغداء حالًا.

كانت سحابة من حزن غامض تتخفى خلف جفنيها، تفاقم من قتامته ثيابها السوداء، ولكنها حافظت على إشراقة وجه أعرفها جيدًا.. ابتسمت

حين لاحظت عماد عزوز يقشر برتقالة لنفسه، ويزدردها بنهم؛ فلما رآني أتأمل ملامحه الطيبة، دنا من وسادتي، ووضع يده اليسرى على جبيني قائلًا:

- شد حيلك.. ارعَ صحتك.. البقاء لله.

أوجعتني عبارة (البقاء لله) فاختلطت فوق شاشة خاطري صور كثيرة متنوعة لفادي نجيب، لهفة عينيه الخضراوين على حنان.. ارتجافة شفتيه، وهو يتحدث عنها.. جبينه المنبسط.. خفة ظله ونزعته المتفائلة.. غضبه المؤقت الذي يحيل ملامحه حينئذ إلى نمر سيبيري.. هوسه الدائم بارتداء أشياء حمراء اللون، على الرغم من كونه تغاضى عن هذا الهوس يوم استشهاده، فتكفل دمه الذي سال على مشارف ميدان التحرير بتعويضه عن الأحمر المنسيّ! صور كثيرة تتقافز نحو سطح ذاكرتي، فتكوي فؤادي وتحرقه؛ لذا طفرت من عينيّ بعض دموع، وأنا أجاهد لأنطق بريق ناشف، ووجع العالم كله يطقطق في صدري:

- فادي كان صديقًا عزيزًا.. الله يرحمه.

لم يمهل عماد عزوز روحي بما يكفي لتستزيد من طلب الغفران لفادي؛ إذ سرعان ما صبّ المزيد من نار الحزن فيها، وهو يمرر لي نبأ استشهاد زياد أبو سريع في موقعة الجَمل.. أول الأمر.. ظننته يسخر من شيء ما لا تسعفني عافيتي لإدراكه.. استشهاد.. زياد.. موقعة الجَمل؛ ذلك أن عمر عبد الفتاح كان يتصفح كتاب (العدالة في عالم الحيوان) في تلك اللحظة، وهو يتكئ على حافة مكتبي؛ لذا حاولت أن أستفسر عما يقول، فسألته بعقل مشوّش وروح قلقة :

- ماذا تقصد بموقعة الجمل وزياد؟

كأن صمت الكون كله غمر غرفتي في ذلك النهار، وشرعت نهنهات أنثوية أول الأمر في الانبعاث، تبعها انخراط محمود أبو ماضي في بكاء حار. في حين أقدم عمر عبد الفتاح على احتضانه محاولًا تخفيف وقع المصيبة عليه. صرختُ فيهم:

- ماذا جرى؟

رسمية فقط من جرؤت على أن تواجهني بالخبر الأليم:

- لقد لَقيَ زياد أبو سريع ربه في ميدان التحرير قبل أسبوع.. إنه من شهداء الثورة.

ثم أكملت حنان المرشدي وهي تجفف دموعها:

- كان شابًّا شهمًا وشجاعًا يدافع عن حق هذا الشعب في حياة حرة وكريمة. فأبى مبارك وزبانيته إلا أن يقتلوه في هجوم خسيس شنّه أعوانهم، وهم يمتطون الخيول والجمال.

للوهلة الأولى لم أستوعب بؤس الخبر وتداعياته، لكن بعد لحظات وجوم مخيف انفجرت في بكاء مرير مزّق مني الصدر، وأخرس مني اللسان، فسعلتُ كثيرًا. نهضت رسمية لتحتضني بقوة، وهي تهتف محاولة تخفيف وقع المصيبة عليّ:

- ادعُ له بالرحمة، فقد كان شابًّا رائعًا.

موسيقى بكاء حزينة اندلعت في غرفتي، حيث سكب جميع من في المكان دموعه بغير حساب، حتى عمر عبد الفتاح الذي لم تربطه بزياد علاقة ذات شأن، لم يقاوم نهر دموعه المتدفق، وأخذ ينشج بقوة مثل طفل مدلل تلقى تحذيرًا جادًا بالضرب المبرح. أزحتُ اللحاف عن جسدي، فاخترق عظامي

تيار هواء بارد أصابني برعدة خفيفة، لكنها غير مستحبة. نهضتُ ببطء وأنا أتحسس ثانية مكان ذيلي الذي كان ليطمئن قلبي أنني غادرت عالم الحيوان نهائيًا، وأن الفأر الذي كُنتُه أصبح ذكرى مبهمة ولّت وانقضت. حاول عماد وعمر أن يسنداني، شكرتهما وأنا أجفف دموعي، وذهبت نحو مكتبي أفتش عن صوري مع فادي وزياد. قرعت أمي الباب برفق، فأقبلت عليها، وذبت في حضنها مستسلمًا للذة البكاء بحرقة.. قادتها حنان لتجلسها على سريري، بعد أن أسندت العكاز بجوار المكتب.

– ألف سلامة عليك يا بنيّ.. شد حيلك.. رحم الله صديقيك.

قالت ذلك، وهي تغالب دموعها، ثم استطردت:

– لقد كانا بطلين من أبطال مصر الثورة.. مصر الجديدة.

عدتُ مرة أخرى إلى مكتبي، لأبحث عن صور صديقيّ اللذين رحلا غدرًا.. اقتربت مني حنان المرشدي، وهي تسألني إن كانت تستطيع مساعدتي في شيء.. شكرتها بحركة من رأسي، في اللحظة، التي وجدت فيها رسالة فادي الموجهة إليها. دسستها داخل كتاب بشكل لا إرادي. وحمدتُ الله لأنها لم تنتبه إلى ذلك؛ إذ كانت قد أمسكت بكتاب (العدالة في عالم الحيوان)، وهمست وهي تنقر على غلافه بسبابتها اليمنى:

– هذا كتاب مدهش.. جعلني أتعاطف مع الحيوانات وأهتم بها.. لقد أنجزت قراءته كاملًا أثناء مرضك.

رشقت عبارتها في قلبي سهم الانشغال بها، فاستدرتُ لأتأملها مليًا، كأنني أراها لأول مرة، ولكن رسمية عقبت، وهي ترنو إلى حنان بمودة ممزوجة بمكر أنثوي:

- بصراحة يا معتز.. لقد حرصت حنان على الاطمئنان عليك يوميًّا.

فتبعتها أمي، وهي ترمق حنان بنظرة امتنان:

- كانت تذهب إلى الثوار في ميدان التحرير في الصباح؛ لتجلس إليهم ساعة أو بعض ساعة، تشاركهم الحلم، وتشاطرهم الأمل، ثم تأتي لزيارتك قبل أذان العصر.

لم أعلق على كلام أمي، فخيّم على الغرفة وجوم كئيب للحظات، هتكه صوت عماد عزوز، وهو يقول لاهثًا:

- هل تعلم أن حنان المرشدي قدمت استقالتها من الجريدة؛ احتجاجًا على سياسة أبيها ومقالاته ضد الثورة؟

أظن أن رد فعلي كان أقل مما يجب، ذلك أن أمي، بعد أن لاحظت فتوري في التعامل مع خبر الاستقالة بما يليق، أطلقت صيحة إعجاب ومؤازة قائلة:

- برافو عليك يا بنيتي.. أنت فتاة مؤمنة بحقوق هذا الشعب المسكين عن جدارة!

احتجت رسمية بسرعة:

- ولكن يا أمي.. رئيس التحرير أبوها، ولا يصح أن تعصى أوامره!

كأن غضب الدنيا قد استعر في عيني والدتي، فلم تتردد لحظة في تقريع أختي أمام الجميع، حيث علقت بحدة:

- مبارك وحكوماته يقتلون الثوار ويذلون المصريين منذ ثلاثين سنة، فكيف تقبل البنت العمل في جريدة، تمتدح رئيسًا طاغية غليظ الإحساس؟ حتى لو كان رئيس التحرير أباها!

شكرتها حنان بهمس، وهي تتابع بحثي عن صور أصدقائي.. بينما لاذت رسمية بالأرض تحاشيًا لأية نظرة غضب جديدة من أمي، معلنة بذلك هزيمتها في الحوار الدائر. حاول عمر عبد الفتاح أن يستأذن في الانصراف، فرفضت أمي بشدة، قبل أن نتناول جميعًا طعام الغداء ابتهاجًا بقرب شفائي.. نهضت رسمية، واتجهت نحو الباب للشروع في إعداد الطعام، بينما كنت أسأل والدتي:

- من فضلك يا أمي.. أريد صورة لجدتي «مآثر»، لأقوم بتكبيرها وأضعها في إطار، مع هذه الصورة.

المفاجأة المذهلة التي صدمتني، في تلك اللحظة، كانت السبب الرئيسي الذي جعلني أنصاع فيما بعد لإلحاح حنان المرشدي في ضرورة البحث عن حل لمعضلتي؛ ذلك أن سحابة من الغرابة مرّت على وجهيّ أمي ورسمية، التي توقفت في منتصف الغرفة، في وقت واحد، فألقت عليهما ظلالًا غائمة أخفت الكثير من ملامحهما الطيبة.. كنت أطلب صورة لجدتي «مآثر»، ويدي تقبض على صورة أخرى تجمعني مع زياد وفادي فقط، بعد أن نحّيت جانبًا عدة صور، يظهر فيها أدهم الشاذلي.

بصوت واحد تقريبًا، شقّت أمي وأختي الورم، الذي كان جوهر حياتي:

- مَنْ جدتك «مآثر»؟

حالة الاستغراب التي شملتني ألجمت لساني، فعادت أمي تشرح بوجل:

- إن جدتك لأبيك اسمها زينب يا معتز، ووالدتي تدعى جلفدان، فمن تكون «مآثر» هذه؟

مفاجأة لم تكن بالحسبان، وأمواج من الذهول تتلاطم في مخيلتي، ووقائع وحكَم وأقوال مأثورة وحيوانات تترى في عقلي، فتشقيه وتشقيني، فمن أين يأتي اليقين إذن ؟ وجدتي «مآثر» كانت تقول دومًا: (النكران آفة الإنسان الخسيس.. لأن الحيوانات والطيور لا تتنكر لأشقائها ومحبيها)، فبمَ أفسر حديث أمي وأختي؟ ولماذا لم أطلب صورة لجدتي «مآثر» إلا الآن؟ وماذا سيقول عني الذين يحتلون غرفتي من الأصدقاء؟ سلسلة مريعة من الأسئلة الحائرة.

قلت لهما، بحلق جاف وحروف تتحطم على شفتيّ، وأنا أجيل عينيّ في أنحاء الغرفة؛ هربًا من ملاحقة عيون عُوّادي:

- جدتي «مآثر» ذات الشعر الأبيض والعينين الخضراوين.. التي تربّي الحيوانات والطيور!

لم أتلقَ أية إجابة أو استجابة، إلا بعد فترة مرّت كدهر ثقيل الإيقاع، حيث عادت رسمية إلى الجلوس على حافة سريري، وهي تغالب ذاكرتها، لتعلن بنبرة طالتها شكوك كثيرة:

- لعلك تتحدث عن الخالة محسنة والدة صديقتي، أيام الكلية، سهير حامد التي كانت تزورني وأزورها في منزلها في شارع شبرا، وأصطحبك معي، وأنت طفل لم تتجاوز الخامسة.

قالت رسمية هذا الكلام، بينما وقف الجميع ساكنًا، ينصت إلى ما يجري، وكأن على رؤوسهم الطير، فاستطردت رسمية تكمل تخمينها:

- كانت الخالة محسنة تربي الدجاج والحمام والأرانب والبط فوق سطوح منزلها العتيق، وكانت تصطحبك معها لإطعامها، فتقص عليك هناك الكثير

من القصص (والحواديت)، كما كانت تهتم كثيرًا بإعداد الطعام والحلوى لك.. الله يرحمها!

بلهفة مجنونة، صرخت:

- متى ماتت؟

- منذ زمن بعيد.

ثم استطردت رسمية:

- آه.. تذكرت أنك بكيت كثيرًا عندما زرناها، ولم تجدها، وأذكر الآن أنك ظللت جالسًا حزينًا بين طيورها فوق السطوح، رافضًا العودة إلى البيت، قائلًا لي بإيمان عجيب: إنها ستعود لتكمل لك الحواديت وتطعم الطيور والحيوانات!

في اليوم التالي، بعد أن غادرتُ عالم الفئران إلى الأبد، ونحن في طريقنا إلى مستشفى السلام الدولي، حكت لي حنان المرشدي، كيف مات زياد أبو سريع في موقعة الجمل، وكيف أن أدهم الشاذلي ونشوى فوزي وهي، هم مَنْ قاموا بإيصالي إلى البيت، بعد استشهاد فادي نجيب مباشرة حين سقطتُ على الأرض شبه فاقد الوعي، فنصحوهم أطباء الميدان أن ينقلوني إلى المنزل؛ لأنني بحاجة ماسة إلى الراحة، نظرًا لنحافتي وإجهادي، وتعرضي لمحنة عصبية شديدة في هذا اليوم. كما أخبرتني أن أدهم يتلقى العلاج في المستشفى، بعد إصابته بجرح كبير في كتفه، وهو يقاوم البلطجية، وقد تهشمت نظارته الرقيقة عندما كان يدافع عن زياد في موقعة الجمل.

كانت حنان تتحدث بصوت مشحون بوجع العالم كله.. وكانت الدموع تنسرب تلقائيًا من مقلتيها، فلا تهتم بتجفيفها. وكانت ترتدي الملابس

السوداء نفسها التي ارتدتها أمس.. بلوزة سوداء تحت بلوفر أسود فوق جيبة سوداء، تنسدل حتى قدميها.. أول الأمر كنت أنصت إليها باهتمام، فلما أخذت تسرد تفاصيل استشهاد زياد شعرت بسكين يمزق أحشائي، فبكيتُ، وودتُ لو تكفَّ عن ذكر الموت.. مسحتُ ببصري الطريق من نافذة سيارتها، فراعني حجم قوات الجيش التي انتشرت في شوارع القاهرة. سألتها: ماذا يحدث؟ فأجابتني أن الجيش نزل إلى الشارع بعد اختفاء الشرطة.. لم أعلق، لأنني لمحت جنديًّا أسمر نحيفًا يمسك بندقيته، ويقف أمام دبابة بجوار بنك مصر، قريبًا من ميدان روكسي. كان لوجه الجندي تقاطيع طائر بطريق منهك، فظللت أراقبه، حتى ابتعدنا بالسيارة عن المكان.

بعد أن دارت حنان كثيرًا بالسيارة، مبتعدة عن أماكن تجمع الثوار، وبؤر الزحام في شوارع القاهرة، وبعد أن تجاوزنا عددًا من نقاط التفتيش، التي أقامتها اللجان الشعبية في أحياء العاصمة؛ حفاظًا على الأمن، إثر انهيار قوات الشرطة.. أوقفت السيارة عند مدخل مستشفى السلام الدولي، وقد هرع إليها السايس لتحيتها.. بدا لي أنها تعرفه من تكرار الزيارة، فأوصته بالسيارة خيرًا. وقبل أن تنزل، مالت بجسدها كله ملتفتة نحو المقعد الخلفي؛ لتحمل باقة من الزهور الجميلة، وتعطيني إياها قائلة بابتسامة مبتورة:

- يجب أن تكون الزهور هي أولى هداياك لأدهم في المستشفى!

آيات الاندهاش التي طُبعت على محياي، دفعتها لأن تضيف:

- لقد ابتعتُ هذه الباقة من محل ورد بجوار منزلكم، قبل أن أصل إليك اليوم.

الدموع الساخنة التي ذرفناها أنا وأدهم الشاذلي ونشوى فوزي وحنان المرشدي كانت تكفي لمحو ذنوب كل الخطائين في هذا العالم؛ ذلك أنني حين

رأيت صديق العمر مُمدّدًا على سرير المرض قليل الحيلة، وملتفًّا بالأقطان البيضاء لم أتمكن من مقاومة سطوة الدمع، فارتميت فوقه أقبله وأبكي، فما كان من أدهم إلا أن استسلم هو الآخر للحزن العميق، فانسابت دموعه على فراق الأحبة لتختلط بدموعي.. نشوى فوزي أمسكت بيديه، وربتت على ظهره، وهي تسبح في نهر العبرات الحارقة، لتشاطرها حنان المرشدي الآلام نفسها، وهكذا ظللنا نبكي حتى تقطعت أمعاؤنا، لدرجة أن الفراشات الملونة التي كنت أراها تحوم وترفرف بحبور حول جبين نشوى، ما تمكنت هي الأخرى من مغالبة الحزن المفاجئ، فشَحُبَ لونها، وتوقفت عن عزف موسيقى الطيران، واستقرت على الوسادة البيضاء، بجوار كتف أدهم المربوط بالشاش والأقطان.

– أنت مفتون بالصور يا معتز، فهل تستطيع أن تقوم بتكبير صورة تضمنا جميعًا: زياد وفادي وأنا وأنت ومحمود لأضعها في منزلي.

هذه أول عبارة نطق بها أدهم الشاذلي، بعد أن نفد بحر دموعنا.. كانت كل ألوان الحزن القاتمة تغلف نبرات صوته، أما حروفه فتكابد لوعة ما بعدها لوعة.. هززتُ رأسي بالموافقة، فاستطرد سائلًا بمحبة حقيقية:

– كيف حال صحتك الآن؟

قلتُ بهدوء وأنا أعاين بأسى حجم الأقطان، التي تخفي بداخلها الجسد المنهك لأليف الروح:

– الحمد لله.. أنا بخير.

بعد فترة صمت غير قصيرة، أطلق موبايل نشوى فوزي رنينه المميز، وهو عبارة عن مقطع من أغنية (ست الحبايب.. يا حبيبة).. كانت مهجة زوجة

زياد هي المتصلة، وقد أخبرتنا نشوى أنها ستقيم حفل (السبوع) لابنهما عليّ في موعده بعد غد، تنفيذًا لوصية والده الشهيد، وتدعونا للحضور! أهاج الخبر مشاعرنا، فانخرطنا جميعًا في وصلة بكاء ثانية؛ إشفاقًا على اليتيم الذي هلّ إلى الدنيا محرومًا من أبيه، ولكننا لم نستمر طويلًا؛ لأن الأستاذ عادل صالح اقتحم غرفتنا فجأة.

- ما آخر الأخبار يا خالي؟

استقبله أدهم بهذا السؤال حتى قبل أن يصافحنا الرجل، فترفّق الخال بابن أخته من خلال ابتسامة عريضة سائلًا بلهفة، وهو يضع علبة شيكولاتة على الكوميدينو الصغير، الموجود بجوار السرير:

- طمئني عن صحتك أنت أولًا!

- أنا بخير.. ما آخر أخبار الثورة، فالتليفزيون في غرفتي تعطل فجأة قبل ساعتين، ولم يصلحوه بعد؟

ثم استطرد أدهم موجهًا حديثه إلى نشوى بعصبية:

- من فضلك يا نشوى.. سليهم مرة أخرى أن يأتوا بأحد لإصلاحه على وجه السرعة!

لم أنتبه إلى أن هناك تليفزيونًا معطوبًا في الغرفة إلا بعد هذا الكلام؛ فالتفت خلفي لأجده قد وضع داخل صندوق خشبي قديم نسبيًّا.. أظن أن الفراشات أدركت ما يبتغي أدهم من نشوى؛ إذ سرعان ما طارت نحو صديقتها حتى قبل أن تهم نشوى بالانصراف، بحثًا عن حل للتليفزيون الخَرِب.

ألقى الأستاذ عادل صالح جسده البدين على المقعد الصغير، الكائن بجوار سرير المريض.. سعل مرة أو بعض مرة، فأخرج منديلًا ورقيًّا

يمسح به فمه وأنفه، ثم احتار أين يلقيه، فوضعه على صينية الطعام ذات الأطباق الفارغة، الموجودة على الكوميدينو القريب منه. أمعنت النظر في وجهه الممتلئ المشرق، فتأكد لي صدق حَدْسي أن له علاقة حميمة بحصان أبيض يعدو بسرعة، على الرغم من أنه كان يرتدي جاكت بدلة كحلي اللون، فوق قميص أزرق فاتح، ثم شرع يسرد لنا آخر الأخبار، ممزوجة بتحليلاته السياسية الخاصة، فقال:

– حتى هذه اللحظة، مازال المصريون يتوافدون على ميدان التحرير وميادين مصر كلها بكثافة مدهشة، لم تحدث في التاريخ الحديث ولا القديم.. أتخيل أنهم تجاوزوا عشرة ملايين إنسان، والكل يطالب برحيل مبارك، لدرجة أن أوباما رئيس أمريكا يتحدث يوميًّا تقريبًا بانبهار عن عظمة هذا الشعب، ويضغط بعنف مطالبًا الرئيس مبارك بالتنحي. كما أن عمر سليمان، نائب الرئيس، مازال يلتقي القوى السياسية المختلفة في محاولات يائسة للبحث عن مخرج لأزمة النظام المرفوض شعبيًّا ودوليًّا.. بعض القوى السياسية الانتهازية تستجيب لاقتراحات عمر سليمان، ولكن الشباب الثوري تحديدًا يرفض أي اقتراح، قبل أن يرحل مبارك فورًا، ويسقط نظامه البائس.

قاطعه أدهم مستفسرًا:

– أظنك تقصد بالقوى الانتهازية جماعات الإسلام السياسي.. أليس كذلك ياخالي؟

قبل أن يجيب، اخترقت الفراشات الثلاث فضاء الغرفة، بصحبة نشوى التي قالت بيأس:

– يقولون إنهم أرسلوا في استدعاء المهندس الفني لإصلاحه، وهو في الطريق.

أشاح أدهم بيده احتجاجًا على هذا التلكؤ، ولكنه لم يتكلم، وأخذ يحثّ بعينيه خاله ليواصل الحديث، فاستجاب الرجل بعد أن طاف ببصره علينا جميعًا، واطمأن إلى أننا قد اتخذنا مواقعنا حول سرير المريض، وأننا سوف نصيخ السمع لما سيقول، فأكمل:

– ما أكثر القوى الانتهازية في مصر.. أجل.. جماعات الإسلام السياسي، وأحزاب المعارضة الرسمية والأحزاب الكرتونية، التي صنعها نظام مبارك.. كلهم انتهازيون بدرجات متفاوتة، وكلهم ما كانوا يحلمون بالجلوس إلى نائب وزير في النظام المترنح؛ لأنه كان نظامًا متغطرسًا ومتعجرفًا، يعامل تلك الجماعات والأحزاب بعنجهية لا مثيل لها، فما بالكم بأنهم يلتقون نائب الرئيس شخصيًّا كل يوم تقريبًا. ولكن المشكلة تكمن في أن الثوار لا ينضوون تحت لواء حزب سياسي محدد، أو يرفعون راية سياسية واضحة، ثم إن هناك الكثير..

قاطعه أدهم بصوت واهن:

– ولكن يا خالي ألا يكفي الحضور القوي في الثورة للجمعية الوطنية للتغيير، ورئيسها الدكتور محمد البرادعي؟

ابتسم الأستاذ عادل صالح، واعتدل في مقعده، متخذًا وضع المعلم الجاد المحب لتلاميذه الحيارى الشغوفين بالمعرفة، ثم أردف:

– أعرف جيدًا اعتزازك بالجمعية وتقديرك لرئيسها، كما أعلم جيدًا دورك المهم في حركة كفاية وفضلها في إشعال نار الجسارة، لدى العديد من المصريين منذ تأسيسها قبل خمسة أعوام تقريبًا، ولكن الحزب السياسي شيء، والجمعية شيء آخر يا أدهم.. الحزب السياسي ينبغي أن يعبر عن أحلام

وطموحات طبقة اجتماعية واضحة المعالم، ينضوي تحت برنامجه مجموعة من البشر، أصحاب مصالح مشتركة، ويسعى لتسلم السلطة؛ لينفذ برنامجه السياسي/ الاقتصادي/ الاجتماعي الذي يظل سنوات يدعو له ويبشر به؛ أي أن يكون هناك حزب يعبر عن مصالح العمال أو الفلاحين أو الرأسماليين، أو عن شرائح الطبقة الوسطى، ولا مانع من وجود حزب يعبر عن تحالف عدة طبقات، مقهورة ومطحونة، في مواجهة طبقة أقوى مسيطرة ومهيمنة.

تدخلت نشوى بسؤال بدا لي أنه يشغلها كثيرًا من طريقة إلقائها:

- هل من الممكن يا (عمو) أن تعطينا مثالًا على ما تقول؟

اخترقت أذني كلمة (عمو)، فمسّت الجرح القديم وأججته، ومع ذلك فقد أيقنت أن الأمر بينها وبين أدهم قد انتقل من صفحة الإعجاب والغرام إلى صفحة العلاقة الشرعية والرسمية؛ لأنها لن تجرؤ على مخاطبة الخال بهذه المفردة العائلية الحميمة، إلا لو كانت تدرك أن الرجل يتنسم زهور الهوى المزدهرة بينهما ويباركها.. سددتُ بصري نحوها للحظة، وهي تضبط وضع الوسادة تحت رأس حبيب القلب، فراعني حجم الإجهاد الساكن في عينيها، والذي زادته الثياب السوداء حضورًا وطغيانًا، فقد التزمت نشوى فوزي بطقوس الحداد على فادي وزياد، وعلى كل شهداء الثورة كما يبدو من ملابسها، وطريقة تصفيف شعرها؛ حيث لملمته إلى الخلف، وربطته على هيئة ذيل حصان.. لقد منحها الحزن ألقًا خاصًا وسحرًا أخاذًا.. يبدو أن الأحزان تزيد بعضنا جمالًا فوق جمال!

واصل المُعلم الأمين شرح دروسه السياسية، مخاطبًا صديقة الفراشات:

- يا نشوى.. في مصر على سبيل المثال.. هناك طبقة رأسمالية تملك السلطة والمال وتحكم منذ أربعين سنة تقريبًا، في مقابل عدة طبقات، تكابد الفقر

والجهل والمرض.. هذه الطبقة التي تحكم تتمثل في الرئيس وأفراد أسرته والوزراء الحاليين والسابقين، وقادة الشرطة والجيش، ورجال الأعمال الكبار، ورؤساء مجالس إدارات شركات القطاع العام، والبنوك، وكبار رجال الحزب الوطني الفاسدين، علاوة على قادة وسائل الإعلام الحكومية معدومي الضمير.. هؤلاء كلهم يمثلون الطبقة الرأسمالية المصرية، التابعة بدورها للرأسمالية العالمية، وعدد أفرادها وأنجالهم ومواليهم لا يتجاوز مليوني إنسان بأية حال، وهؤلاء أيضًا هم الذين يتلذذون بالسلطة والمال والنفوذ والوجاهة الاجتماعية؛ في حين أن عشرات الملايين من المصريين أسرى الفقر والأمية والهم وقلة الحيلة، مثل: العمال، والفلاحين، والموظفين الصغار، وجيش المتعلمين العاطلين إلى آخره.. إلى آخره. فكيف يستقيم الوضع هكذا؟ لقد تحمل المصريون من الطبقات المقهورة هذه الكثير من الفقر والبطش والعدوان على الكرامة؛ لذا قامت الثورة، التي فجرتموها أنتم أيها الشباب النبيل والجميل، ولكن..

توقف الأستاذ عادل صالح فجأة عن مواصلة الحديث؛ حين دلف من باب الغرفة طبيب خمسيني العمر، مزوّد بنظارة بيضاء ذات إطار أسود رقيق، وشعر أبيض مثل سلك الألمونيوم.. كانت تتبعه ممرضتان: واحدة أكبر وأجمل وأطول وأكثر مرحًا مثل زرافة سعيدة، والثانية أصغر وأكثر بدانة، ومحرومة من اللفتات الأنثوية الساحرة، مثل: أنثى خرتيت مكلومة. صافح الطبيب الأستاذ عادل بحرارة، تؤكد أنه يعرفه جيدًا، ثم أهداه حزمة إعجاب بمقالاته، مشيدًا بما كتبه اليوم تحديدًا في الجريدة، فاكتسى وجه مدير التحرير بخجل طفولي محبب، حين تلقت أذنه موسيقى الثناء والتقريظ.

مارس الطبيب مهام عمله سريعًا، وهو يداعب أدهم الشاذلي، ويطمئنه أن حالته في تحسن، فانتهزت نشوى الفرصة وشكت للطبيب تباطؤهم في إصلاح التليفزيون المعطوب.. انزعج الرجل بشدة، وعقد حاجبي الغضب، فلاح لنا أكبر من سنه بعشرة أعوام، ثم التفت إلى الممرضة الأجمل والأطول، آمرًا إياها أن يأتوا بتليفزيون آخر فورًا، وهو يصيح مشيرًا إلى أدهم بسبابته (هذا بطل من أبطال الثورة.. فكيف تحرمونه من متابعة ما يحدث؟).

ركضت الممرضتان إلى الخارج في التو؛ لتنفيذ أوامر الطبيب، فكدتُ أضحك على ألاعيب التناقض الجسدي، حين عاينت حركة ساقيهما أثناء الجري! وقبل أن يغادر الطبيب، داعب أدهم سائلًا: كيف ستشاهد قناة الجزيرة وهم يتعمدون التشويش على إرسالها؟ فرد أدهم بغيظ (إنهم يريدوننا أن نشاهد تليفزيون صفوت الشريف وأنس الفقي وعبد اللطيف المناوي، فنغتم ونتوقف عن الثورة، ولكن هذا محال!).

بعد انصراف الطبيب، استطرد الأستاذ عادل صالح في تفكيك المجتمع المصري، وشرح تناقضاته وصراعاته؛ حيث قال:

- المشكلة الآن أن خروج الناس بالملايين هكذا يهدد الطبقة الرأسمالية التي تحكمنا بقوة، وبالتالي عليها أن تجد حلًّا سريعًا لاستمرارها في السلطة؛ خاصة وأنها فقدت جهاز الشرطة، وهو ثاني أقوى مؤسسات الدولة الرأسمالية بعد الجيش.. هذا الجهاز الجبار انهار أمام الحشود الغفيرة، التي ارتدت ثياب الجسارة المذهلة والجرأة الشديدة.. ومع ذلك يصح الكلام..

انطلق صوت عبد الوهاب فجأة متسائلًا: (إمتى الزمان يسمح يا جميل؟)، فاكتشفنا أنه الرنين المميز لموبايل الأستاذ عادل، فتوقف عن الكلام، وتحدث

مع المتصل. في الوقت نفسه جاءني اتصال من والدتي، لتطمئن عليّ، ولما علمت أنني أزور أدهم طلبت أن تتحدث إليه. وبالفعل أعطيت الموبايل لأدهم، الذي شكرها ودعاها ألا تقلق، وأن تنتبه إلى صحتها.. فلما انتهى حديث الموبايلات، سألت حنان المرشدي الأستاذ عادل صالح بحماس مفاجئ:

- من فضلك أستاذ عادل.. ماذا سيحدث في مصر؟ وهل سيرحل الرئيس ويغادر السلطة؟

ابتسم الرجل، وهو يضع الموبايل في جيب الجاكت، ثم قال بحكمة شيخ أزهري مستنير:

- لا أحد يعلم ماذا سيحدث يا حنان.. ولكني أعتقد أن هناك عدة سيناريوهات مطروحة؛ خاصة وأن غضب الملايين يسطع في شوارع مصر كلها منذ 25 يناير، ونحن الآن في 9 فبراير، وهو وقت طويل لا يستطيع فيه النظام، في مصر، احتمال كل هذه الضغوط الكبيرة داخليًّا وخارجيًّا، ولعل تسريب الإعلام الغربي لثروة مبارك وأسرته، وأنها تتراوح بين أربعين وسبعين مليار دولار، لهو دلالة على رغبة القوى الكبرى في سرعة الإطاحة بالرجل ونظامه، من خلال فضح ما نهبه وسرقه من خيرات هذا الشعب المسكين. من هذه السيناريوهات مثلًا: أن يتخذ قادة الجيش خطوة حاسمة، ويطيحوا بالرجل، ويطردوه من عرين الرئاسة؛ حتى يحافظ الجيش على قوام الطبقة الرأسمالية فلا تسقط تحت أقدام الثوار؛ إذ لا بد أن نفرق بين الطبقة الاجتماعية والنظام السياسي؛ ذلك أن الطبقة يمكنها أن تغير جلدها، مثل الحرباء، وتتخذ أشكالًا أخرى من أنظمة وأحزاب سياسية متباينة.

- هذا سيناريو ممتاز يا خالي، فالجيش المصري مشهود له بالوطنية، منذ أن أسسه محمد علي قبل قرنين.. ليت الجيش يجرؤ على اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة!

أخرج الأستاذ عادل منديلًا من جيبه، قبل أن يضعه على فمه، ليسعل بحريته، ثم قال بنبرة يشوبها قلق كبير:

- معك حق.. جيشنا مشهود له بالوطنية والكفاءة المهنية عند تعرض البلد لأي خطر يهدد حدودنا، ولكن أن يستولى العسكر على السلطة السياسية، فهذا أمر آخر تمامًا.

حاول أدهم أن يضبط وضع رأسه على الوسادة، فانبرت نشوى لتعاونه برفق.. كانت تفعل ذلك بمحبة حقيقية، وهي تمطره بنظرات فخر وإعجاب، فابتسم لها وغمغم بعبارة لم أتبينها. غضّت بصرها خجلًا، ولم تغادر شفتيها ابتسامة رقيقة، إلا حين طرح أدهم سؤاله بريبة:

- الشعب يعيش ثورة حقيقية الآن يا خالي.. ولا بد أن ينحاز الجيش للشعب، وهو ما تحقق حتى هذه اللحظة، فهو لم يعتد على المتظاهرين..

قاطعه الأستاذ عادل بحسم هاتفًا:

- لكنه لم يقم بواجبه في حمايتهم في موقعة الجمل، التي أصبت أنت فيها، وراح ضحيتها شباب مصري أجمل من الورد وأغلى من الذهب؛ فقد سمح الجيش لهؤلاء الأوباش باقتحام الميدان بدوابهم، ولم يعترض طريقهم، ورآهم، وهم يقذفون الثوار بزجاجات المولوتوف، ويقتلونهم ويدوسونهم بحوافر الخيل ولم يقبض عليهم.

كان الأستاذ عادل صالح يتحدث بحنق واستياء بالغين، لدرجة أنه سعل أكثر من مرة، وقد اعتذر لكونه مصابًا بنزلة برد، ثم أخذ يلخص فكرته بالآتي:

- يجب أن تعلموا أيها الثوار (قالها وهو يبتسم) أن المؤسسة العسكرية تمثل الوجه الخشن للطبقة الاجتماعية التي تحكم، وأنها أداة بطش مسلحة، إذا اضطرت هذه الطبقة إلى استخدامها في مواجهة أية اضطرابات أو قلاقل اجتماعية، حال عجز جهاز الشرطة عن إخمادها.. لذا جُلّ ما أخشاه أن يُجبر الجيش على إزاحة مبارك تحت ضغط الحماس الجماهيري المذهل، ويسطو على السلطة السياسية، ثم يطمع في البقاء، ويرفض تسليم هذه السلطة للمدنيين، وهو أمر وارد بقوة؛ لأن شباب الثورة لم يتمكن حتى الآن من تنظيم نفسه في أحزاب سياسية، تعبر عن مصالح البسطاء والفقراء في هذا البلد المنكوب بجشع أثريائه وضيق أفقهم.

رفرفة الفراشات الجميلة حول جبين نشوى فوزي، ونحن خارجان من مستشفى السلام الدولي أهاجت خواطري، وأسلمتني لمشاعر شتى، فمكثتُ في سيارة حنان المرشدي، شاخصًا أنظر إلى لا شيء.. تراني صفحت عن أدهم وما فعله بي؟ أم مازالت نار الحقد متقدة في أحشائي تجاه من سلب مني أنيسة الروح؟ هل أيقنت الآن أن نشوى وفراشاتها ليست من نصيبي؟ هل ما زال هناك أمل ما في أن تتحطم هذه العلاقة التي بنيت في غرفة مكتبي، حين تكتشف نشوى أن المسافة بين قلبها وأدهم أطول مما يسمح لها بالاستمرار الإيجابي؟ هل مازلتُ موقنًا بأن عشق الطيور والحيوانات قادر على ريّ وردة غرام واحدة في قلبينا أنا ونشوى؟ وتلك الفتاة الرائعة التي

تقود سيارتها الآن بجواري.. ما يجعلها تحتمل شابًّا مثلي تحرقه اللوعة، كلما ذُكر اسم فتاة أخرى، حتى لو كانت ابنة عمتها؟ والجيش.. كيف سيتعامل مع حسني مبارك؟ لكن نشوى لم تتعامل معي الآن بحقد أو غضب، بل صافحتني بقوة، كما كانت تفعل قبل أن يعتقلوا أدهم؟ أما من أحد يضيء لي الطريق لاستعادة قلب فاتنة الفراشات؟ وهل كانت معي أصلًا وهجرتني؟ ما بك يا معتز مختار؟ وإلى متى ستظل منتظرًا إشارة ما، تنير لك عتمة الحياة وظلامها الدائم؟ وأمس أخبروني أن جدتي «مآثر» ليست إلا وهم، فهل يُعقل هذا؟ ردّتني حنان المرشدي عن شواغل العقل وحيرة الروح، سائلة برفق:

- أين أنت؟

أجبتُ بصوت منهك، دون أن أنأى بنظري عن متابعة الطريق:

- أبدًا.. موجود!

ضحكت، ربما لأول مرة منذ أن ابتلينا برحيل الأحبة، وقالت:

- لا.. لستَ موجودًا معي، كما أنك لم تكن موجودًا معنا، حين كان الأستاذ صلاح يتحدث عن الثورة ومستقبلها!

لا أعرف لماذا أغاظتني هذه العبارة، ربما لأنني تابعتُ حديث الأستاذ صلاح وإجاباته باهتمام حقيقي؛ لذا نفيتُ بسرعة هذه التهمة قائلًا:

- غير صحيح.. لقد كنت أنصتُ إليه جيدًا، وكنت أتابع..

لم تمهلني لأكمل، إذ عقّبت مسرعة:

- ولماذا لم تتحدث أو تعلق أو تسأل، وظللت صامتًا كأنك إلى الشرود أقرب؟

لم أجب، وشغلتني دبابة في الاتجاه المقابل تتحرك بسرعة، لا تناسب شارع صلاح سالم المزدحم، فاكتشفت، عندئذ فقط أننا في طريقنا إلى مصر الجديدة.. قرأت شعار (يسقط مبارك.. الشعب يريد إسقاط النظام) أكثر من مرة، مكتوبة بخط ركيك على أسوار الهيئات والمؤسسات المنتشرة على الطريق.. أشفقتُ على حنان من إرهاق القيادة؛ فطلبتُ منها أن توقف السيارة لأنزل وأستقل أي تاكسي إلى البيت. كانت السيارة قد توقفت بالفعل عند مطلع كوبري العباسية؛ نظرًا للفوضى المرورية الشديدة، فنظرت لي حنان نظرة عميقة، قبل أن تسألني برجاء:

- ألم نتفق أمس على ضرورة أن نذهب إلى طبيب؟ واليوم موعدنا في السابعة مساءً!

حركة شفتيها وهي تتكلم أعجبتني، كأنها يمامة تطلق هديلًا هامسًا، فتأملتها وتمنيت لو ظلت تتحدث فترة أطول، ولكنني لم أميز فحوى ما قالت، فسألتها بارتباك خفيف:

- ماذا قلتِ؟

ابتسمت، وقبل أن تنطق بحرف واحد، رنّ هاتفها المحمول، فسمعتها تقول: (نحن في الطريق، لكن الزحام شديد نسبيًّا)، ثم باغتتني بسؤال موجع:

- معتز.. مَنْ جدتك «مآثر»؟

عبوس العالم كله طُبع على وجهي، فانعقد فمي، وانقبض فؤادي.. لم تتركني حنان أغرق في دوامات التعاسة كثيرًا؛ إذ سرعان ما قالت برقة لا متناهية:

- معتز.. أنت مُجهد عصبيًّا، وهذا أمر طبيعي، وأمس اتفقنا جميعًا، بمن فيهم والدتك وشقيقتك على ضرورة زيارة الطبيب؛ لنطمئن على صحتك، بعدما قيل عن حكاية (جدتك «مآثر» وطيورها وحواديتها).

ثم استطردت بابتسامة مضيئة، مخلوطة بشقاوة أنثوية:

- أنت عزيز علينا جدًّا.. أم أن الرسالة لم تصلك بعد؟

لم أعلق، وشعرت باختناق.. ففتحت نافذة السيارة، بعد أن كنت قد أغلقتها فور ركوبي؛ بسبب تيارات البرد. تحركت السيارة ببطء، وسط جحافل من المركبات المتراكمة في شارع صلاح سالم، وكانت حنان المرشدي لا تتوقف عن إلقاء النظر عليّ، كلما حانت لها فرصة، وهي تقود على مهل.. ماذا تريد مني هذه الفتاة؟ وهل يمكن لي أن أتخلص من هوى نشوى فوزي لأقع في غرام حنان المرشدي؟ وكيف سأحتمل فكرة أن أشتهيها، بينما صديق العمر رحل ولم يقتنص منها نظرة غرام واحدة؟ هل سترتاح روح فادي نجيب في سماواتها، إذا علم أنني قد أضم حنان المرشدي، فاتنة فؤاده وحارقة كبده، إلى صدري؟

- أريد أن أنزل.. أوقفي السيارة من فضلك!

قلت ذلك بحدة، وأنا مغمض العينين حتى لا أرى ملامحها.. لكنني لم أنتبه إلى أن السيارة قد توقفت بالفعل في شارع إبراهيم اللقاني، قريبًا من ميدان روكسي، إلا حين همست حنان:

- السيارة متوقفة منذ خمس دقائق، وأنت غائب في شرودك!

ثم أردفت برجاء يمزق القلب:

- معتز.. من فضلك.. من فضلك.. هيّا إلى الطبيب.. لا تقلق.

مسلوب الإرادة، سرتُ بجوارها في شارع إبراهيم اللقاني، انحرفنا في شارع جانبي بعد محل ملابس يعرض ثيابًا أنثوية مستلة من جلود الحيوانات، فأزعجني ذلك، وفكرت أن أخبر حنان بما رأيت، لكنني تراجعت.. دفقات من الهواء البارد تطارد جسمي، فأرتجف وتصطلك أسناني، على الرغم من كوني أحكمت إغلاق أزرار الجاكت. أوراق الأشجار قصيرة القامة على الجانبين تهتز بشدة، مصدرة حفيفًا ذكرني بحلم غابات الأمازون، فتحسرت.. أمام مدخل فيللا صغيرة، استقبلني عماد عزوز وعمر عبد الفتاح ومحمود أبو ماضي بابتسامات متعاطفة ومشجعة، كانوا يرتدون ملابس صوفية ثقيلة، ويضعون أكفهم في جيوبهم اتقاءً للسعات البرد الغادرة. وكان عماد عزوز يتناول سندويتشات شاورمة اشتراها من (أبو حيدر)، كما قال لنا عندما عرض علينا أن نأكل منها ما تيسّر.. أمام الفيللا تنتصب شجرة كبيرة معمّرة، ذات أغصان طويلة ومتشعبة. على شرفة الفيللا لافتة كبيرة، مكتوب عليها بخط الرقعة (الدكتور باهر الليثي.. أخصائي أمراض نفسية وعصبية). حين قرأتها انقبض قلبي بشدة، وزاد وجيبه.. استدرتُ لأنصرف، ولكن قبضة عماد القوية أوقفتني في مكاني؛ حيث قال بحماس وبصوت لاهث، جعلني أكاد أرى فؤاده، وهو يخفق بشدة:

- معتز.. أي إنسان معرّض لتوترات نفسية شديدة، فلا تقلق.. نحن نريد أن نطمئن عليك فقط!

أما عمر عبد الفتاح، فغمغم:

- لعلك لا تعلم أنني أجّلت سفري إلى دبي مرتين: الأولى حين اندلعت الثورة؛ حيث قررت أنا وزوجتي المشاركة فيها، بدلًا من العودة إلى دبي.. والثانية حين تعرضت أنت يا معتز إلى هذه الوعكة الصحية، فأبيت ألا أغادر القاهرة قبل الاطمئنان عليك.

عندما أنهى عمر حديثه، تقدم نحوي محمود أبو ماضي، وقال لي، وهو يضع يده على كتفي بصوته الناعم، المشوب بحزن كبير:

- أستحلفك برحمة زياد وفادي أن تعرض نفسك على الطبيب!

ولم يزد بعد ذلك حرفًا، لأننا انخرطنا، أنا وهو فقط، في بكاء مفاجئ ضعضع منا البدن، وأحرق منا المقل! آنذاك احتضنني محمود بقوة، بينما أمسكت حنان المرشدي يدي اليمنى لأول مرة، واتجهنا جميعًا نحو باب الفيللا.. وقف البوّاب احترامًا فيما يبدو، ففوجئت أن له جسدًا عملاقًا، ووجهًا صغيرًا تقاطيعه تقارب حيوان الكسلان، الذي رأيته مع نشوى في حلم غابات الأمازون. ضحكتُ بصوت مسموع لمفارقات التناقض؛ فرمقوني جميعًا بنظرات متساءلة. هززتُ رأسي بحركة لا إرادية، كأنني أعتذر، أو كأنني لا أرغب في الكشف عن سر الضحك المباغت، فضغطت حنان المرشدي على يدي ضغطة خفيفة؛ ليطمئن قلبي فيما أظن، ولكن صوته الهامس أوقفني، ورائحته الطيبة عطّرتني، فامتنعتُ عن مواصلة السير والعبور نحو مدخل الفيللا. نظرتُ إلى الخلف باحثًا عنه، حيث وجدتُ صديقي الهدهد، يقف على أقرب غصن للشجرة المعمّرة.. يتأملني بمودة، ويمنحني ابتسامته الرائقة عن طيب خاطر، كدتُ أسأله عن عنقه وجناحه

اللذين أصيبا في الثورة، وهممتُ أن أقول له: لقد أوحشتني يا رفيق، ولكنه سبقني، حيث قال لي، وهو يتمايل فخورًا بتاجه الجميل:

- ألف سلامة عليك يا معتز!

* * *

القاهرة / دبي

مـن 4/ 9/ 2010

إلى 27/ 2/ 2012

«طرق مسامعي صوت أذان الفجر، فانتابتني حيرة عظيمة.. كيف سأقوم بأداء واجباتي الدينية، وأنا محشور في هذه الهيئة غير البشرية؟ وهل يمكن لفأر صغير مثلي أن يتوضأ ويصلي؟ أدرك تمامًا أن الله، عز وجلّ، أسقط التكاليف عن الحيوانات؛ لأنها لا تعي ولا تقدر، لكنني أعي وأفهم، وأخشى حساب المولى يوم تقوم الساعة، وبالتالي عليّ أن أجد الوسيلة، التي تجعلني أمارس طقوسي الدينية دون أن ينتبه أحد».

وكما يتداخل الإنسان مع بقية المخلوقات، هنا، تتداخل في ناصر عراق خبراته العلمية، حيث تخرج في كلية الفنون الجميلة، مع روحه الإبداعية التي أنتجت [illegible] رواية «العاطل» التي وصلت إلى القائمة القصـ[illegible] «البوكر العربية 2012» و«أزمنة من غبار»، و «م[illegible] الغرام»؛ ليخرج علينا الآن بخبرته الحياتية فـ[illegible] البشرية لابسًا «تاج الهدهد».

تصميم الغلاف أحمد مراد



٤٠



الدار المصرية اللبنانية